جدار الصَّمْت

جدار الصّمْت

ديـــــنا سَـــــليم

رواية

دار الجندي للنشر والتوزيع

٠٠٩٧٢٠٢٢٣٤٠٠٣٥

Mjundi46@gmail.com

(2015)

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب، أو أي جزء منه، بأي شكل من الأشكال، بدون إذن خطي من الناشر.

All rights reserved: No part of this book may be reproduced in any form or by any means without prior permission of the publisher.

جدار الصمت

رواية

ديـــنا سَـــليم

٢٠١٥

دار الجندي للنشر والتوزيع

الإهْداء

إليكَ...

يا من أصبحتَ روحاً

ربّما

الرّوح تفقه حشرجة الكلام

يا أنتَ

طائر جريح يقفز خلف سِربه

يعوي مثل ذئب

يمتطي صهوة الحلم

ويغرّد بكاءً بملامحه المنسية

لقد

تلاشى الضّوء من صباحك

وسقطت النداءات من بعدك

هلاّ أدركك صدى صمتي؟

لم تمكث طويلا هنا فصوتك

مبحوح

امتلأ العالم بالأصوات

لم يسمعوا أغنيتك

لا يريدون... فَ

ضجيجهم فجّ قاتل

حنايا قلبي دروب لوعة

بعثّر الليل الطويل أحلامنا

يا أيها الشّرس الجميل

لقد قتلتني مرتين

*

إهداء آخر

غادِروا وجوهكم فالرّياح أبدية

***

ما قبل السَّرد

يا له من قدر تفوح منه رائحة العذاب

الألم قوة، يعانقك؟... لا تعانقه!

لكن

إن لم يعتقك عانقه

الألم صدفة، وشاحها أسود وحضنها لحن حزين

حاربه

قمت بتدوين هذه الرواية مباشرة بعد وفاة ابني "باسم" سنة ٢٠١٤

دينا سليم

ذِكْرى

زهور ذابلة في مدخل الفيلا التي أقمت فيها في فلسطين

تلك المتروكة، لم تكتشفها يد مقلّم أو قلب رئيف

من بعدي

تلك الحزينة التي طرق الشّتاء بابها وأحرقها الصّيف بناره

لقد كان حارس الدار ذكيا

حمل دلو الماء ووقف جانبها يوهمني أنه أسقاها

لقد ادخر الماء لأشياء أخرى هذا الكسول

هذا الخائن والخونة كثر

لم يعلم أني أتقن لغة التربة

التربة لغة الحياة

لقد تركت الزّهور حزينة هناك

وعدوت من بعده ... إلى الحيوات

***

البداية

حضرتَ زائرا، أحسستُ بشيء غريب فبدأت بترتيب المناشف وتعليقها في الحمام ولملمة بعض الأشياء المتناثرة غير المهمة وتهيئة المكان للطارق، ينتابني هذا الشعور عندما أشعر بأحد يقصد عتبة بيتي، شعور قديم نما معي، أحسست بروحك تحوم في البيت، روحك حلت دون أن تطرق الباب ولم تقف على عتبة الدار، وكما في كل مرة نظرت خلفي لكي أحظى برؤيتك، التفتُ وبحثت عنك، لم تكن موجودا، لكن سقطة ما دعتني لأدرك أنك تسمع ندائي وأنك حاضر معي، أتيت قبل يوم ميلادي بيوم واحد، ربما لتقول لي، (أتذكر يوم عيدك يا أماه، أتذكره)، لقد تركت علامة وغبت سريعا، سقطت ساعة الحائط على الأرض وتحطمت عقاربها فقط، تلك الساعة المستديرة البيضاء التي اقتنيتها لي، لقد حضرت لتخبرني أن الزّمان لن يعود... إشارة الحظ الآتي لن تأتي برزء آخر!

بكيت، ظننت أن البكاء نسيني وكتبت على حائطي في الفيس بوك لأصدقائي، أصدقائي الأعزاء: أعلن أني أحبكم كثيرا وأعلن أيضا أني لن

أحتفل هذه السنة بيوم مولدي الذي يصادف غداً، أرجو عدم نشر أو ارسال التهاني هنا أو إلى إيميلي الخاص.

فعندما ولدت في الثامن والعشرين من نيسان ذاب الحصى في الوديان وغرقت أشجار الكرمة، ماتت حيوات وبدأت حيوات، سأنتظر حتى العيد القادم لكي أصلح ذنوب ما اقترفته لحظات مولدي فربما تعود فتنتشي بذرة الأمل مجددا.

***

اتفقتا فيما بينهما أن تمضيا الليل دون شجار، (دجّانة) نحيفة سمراء اللون، قبيحة الوجه، قوية البدن تغسل الأجساد الميتة وتكفنها، (بيضاء) مكتنزة، متوسطة الجمال، مهنتها ندّابة في الجنازات، لا تعلمان كيف وجدتا نفسيهما في بيت واحد وفي حجرتين منفردتين مدخله مشترك، تتشاركان غرفة الحمام وشجرة (الأكادنيا).

(بيضاء) تراقبها من بعيد وتتأمل خطواتها بدقة ثم تسألها:

- من هو صاحب الجثة اليوم؟
- ألم نتفق على السكوت، ألا تستطيعين إغلاق فمك الكبير هذا أبدا، أين هو الفأر ليأكله؟ تجيبها (دجّانة).

وشرعتا تتعاركان مجددا فتسترسل الشتائم بين الإثنتين، (بيضاء) تتمنى أن تقوم بالندب عليها ومن صميم قلبها تتمنى لها أن تتعذب وتكوى في جمر الموت، و(دجّانة) تتوعدها بألا تحقن شرجها بالقطن حين تحين ساعتها وأن تكشف قاصدة عن ثديها للمعزين... وتستمر المشادة والوعيد بينهما حتى تتعبا فتغطان بعد ذلك في نوم عميق طويل.

عاد الميت إلى الحياة فجأة، باستفاقته ألغي مشروع (بيضاء) وقد بدأت تعدد مآثر وحسنات المتوفّى كتابيا لكي تحفظها غيبا بعد ذلك لتكون جاهزة لتكرارها أمام جمع المعزين، و(دجّانة) التي بدأت بترتيب

عدّة الغسل وتعقيمها بمسحوق الديتول، قامت بإعادة الحوائج بعصبية ظاهرة إلى داخل الحقيبة.

مرت سنة كاملة ولم تزُل الحياة عن أحد، لحقتها سنة أخرى، ذات الحال، وأخرى، لم تحصل أي حالة وفاة، لقد ابتعد رسول الموت عن الضيعة تماما فبقيت الإثنتان بدون راتب يقيهما من الجوع والعوز، قررت (بيضاء) الندب على ذكرى مجهول قبل أن يجف حلقها وتنسى الأنداب التي حفظتها بالوراثة عن والدتها، أما (دجّانة) فبدأت تستعلم عن حالات الوفاة في المناطق المجاورة، لكن حصل وصدمت دائما بأجوبة الرفض وتعرضت للنفور والكره، أُخبرت وبما أنها غريبة، أنه لا يصح لها أن تستحوذ على مصدر رزق النّدابات الأخريات.

غمرهما قنوط عظيم وتوقفتا عن الشجار على أتفه الأسباب وأصبحتا أكثر هدوءا، جهزتا بعض التعويذات قبل موعد النوم وبخرتا الحجرتين وطلبتا من الله أن يوفقهما بحالة وفاة يستمدان منها بعض الرزق فتستقران على قرار بعد ذلك.

وفي اليوم التالي قفزت (بيضاء) من فراشها مذعورة، فقد شاهدت في منامها عددا لا بأس به من المحتضرين، آرقتها الرؤيا بما أن موعد الجنازات سيتم خلال نهارين، أصابها القلق وخشيت من أن تصاب بالنسيان فتخفق بتذكر جميع الأسماء؟ جلست القرفصاء وبدأت

تكتب بعض الملاحظات على قطعة ورق من دفتر قديم، اغتالها الشحوب وظهرت التجاعيد جلية على وجهها الذي اكتسى بالحزن، غمرها التفكير، احتارت في جلستها، انحنت قليلا إلى الجهة اليمنى ثم عدّلت جلستها، انحنت إلى الجهة اليسرى ثم عدّلت من قعدتها، اعتدلت قليلا ثم نهضت سريعا، أخذت فردة حذائها ووضعتها تحت وسادتها وعادت مجددا إلى النوم على أمل محتمل من معاودة الرؤيا واستمراريتها حتى تأتي النهاية؛ فتطلع على جميع التفاصيل بعد ذلك، لم تخبر (دجّانة) بالأمر حتى تتيقن مما أشاد به الحلم من علامات مؤكدة؛ لكي لا تنعتها الأخيرة بالجنون، كما تنعتها دائما، لكنها استفاقت على دوي صراخ في الخارج، نزلت من السرير ونسيت فردة الحذاء تحت الوسادة، كان الصراخ عاديا لا يحمل أي خبر يضطرب له القلب، وجلست (دجانة) تصرخ وتولول تحت شجرة الأكادنيا، فوجهت لها الأخيرة الحديث:

- نوم العوافي يختي! قالت مستهزئة.
- سوء الحظ يحدق بنا، ماذا يجب أن نفعل، بدأت النقود تنفد ونحن ننتظر! قالت (بيضاء).
- أنتِ السبب، لأنك تحسنين القول على الميت فيصاب ملاك الموت بالغيرة، عزرائيل يغار منكِ!

- فكرة جنونية تستحوذ على عقلي...
- ما هي اخبريني بها بسرعة!
- لماذا لا نطلب سلفة من أهل الضيعة، هكذا يقتسمون المبلغ قبل الوفاة وبعدها! قالت (بيضاء)
- أنتِ تفكرين بضياعنا، أكيد أصابك الجنون، سيقتلوننا، سنكون أول الميتات بعد سنوات المحلّ التي تمرّ علينا الآن ولن نجد من يندب علينا ومن يقوم بإفاضة الماء على جسدينا قبل دفننا، ثم من غير المستبعد أن يأتوا على سرقة الكفنين، فكري بشيء آخر يا (بيضاء) فأنت تحسنين القراءة والكتابة، أنتِ أكثر ثقافة مني، سأندب حظي لأني أميّة تماما، لا أحسن سوى غسل محيضات النساء وتطييبها بماء السدر، أما بالنسبة لغسل جثث الرجال، فلا تسألي، (خلّيها مستورة). ضحكت ضحكة بلهاء.

***

الشيطان يتلهى برجم أحجار اللعنة في المكان، روح ما تتأوه، صراخ مكبوت يلجم صهوة السّماء، قاع الصمت يدوي في أزمنة ضائعة، (بيضاء) تصغي لمعزوفة صمتت أوتارها، سيمفونية حيكت بلعاب العنكبوت، أصوات ماتت داخل شِباك اللهاث وتأرجح صداها في بريق عينيهِ، عينان تموتان في نفق الزمن المفقود، استفاقت مذعورة تلعن الحذاء الذي وضعته تحت وسادتها، ها هو الحلم يصبح حقيقة، شاب في مقتبل العمر يستعد لمغادرة الحياة وحيدا، نادت (دجّانة) وطلبت منها أن تستعد، لكنهما توقفتا وسط الحجرة المعتمة مترددتين.

- الشاب يموت وحيدا فمن سيضع القرش باليد؟ سألت (دجّانة)
- هل تفكرين بالمال فقط؟ أجابتها (بيضاء)
- طبعا، اللعنة على العوز، ولن أفعل شيئا دون مردود!
- لكن الشاب سيغادر الحياة وحيدا!!
- لا أثق بحلمكِ، أنتِ تخطئين بالتقديرات دائما! قالت (دجّانة).
- بل أنا واثقة مما رأيته في الرؤيا، لم أحلم بل رأيت الحقيقة بأمّ عينيّ!
- لن أدعك تفسدين علينا الأمر، لقد جهزت كل ما يلزم وحتى المقص وضعته في الحقيبة.
- لماذا المقص؟
- لكي أقصّ لسانكِ إن فعلتها وأغويتِ ملك الموت مجددا بكلامك المعسول فيعود أدراجه!

وتشاجرتا مجددا من مجرد كلمة تقال، هذه المرة كان النزاع شديدا حيث تبادلتا خشونة الكلام واتفقتا أخيرا على الفراق، وافترقتا.

وجدت (دجّانة) نفسها وحيدة في مستشفى ما مجهول الهوية، دخلت دون أي معيق وبدأت تبحث عن شاب سيفارق الحياة من بين عشرات الأسرّة البيضاء لكي تقوم بالمهام سريعا، لقد اشتاقت لرائحة الميتين التي تبقى عالقة في ثوبها ومساماتها مدة لا بأس بها من الزمن، وكذلك لرائحة النقود التي تكون عادة ملوثة بعرق أهل المتوفى، خشيت من وصول (بيضاء) قبلها فتحظى الأخيرة وحدها بالمردود، بينما سلكت الأخيرة مسلكا آخر، وعندما وصلت توقفت في فتحة الباب وأخذت تفكر في كيفية الوصول إلى أم الشاب لكي تخبرها عن حال ابنها قبل فوات الأوان.

شاع خبر احتضاره بين الأرواح المتنافرة، أرواح قلقة متألمة وأخرى غاضبة فاقدة للصبر، معظمها أرواح ملائكية حزينة، هي ذاتها التي تستدعيها أحيانا لتكون أول من يعلم بالخبر اليقين، الأرواح التي تترنح قلقة الآن تتحدث بلغات أخرى لا تتقنها وتؤمها بلا تردد لكي تخبرها أنه سيقضى أجلا، إلا روحا واحدة أخبرتها أنه ما يزال على قيد الحياة، تلك الروح التي بدأت تبحث عن والدته لكي تكون أول من يعلم بالخبر

اليقين، فبدأت ترسل لها رموزا وإشارات توحي ببلوغ الخاتمة قبل أن تفيض روحه وينكس وجوده إلى الأبد.

لقد تعمد الشاب عدم إخبار أحد عن موعد رحيله، ربما أحس بموعد الفراق، وربما هو ما يسمونه العناد، لقد تقصد الاختلاء وحيدا واستطاع أن يفعل، انفرد بنفسه مكتفيا التواصل مع البعض عبر الانترنيت، ودحر كل فكرة تأتيه على غرة تدعوه لأن يتصالح مع نفسه والآخرين، تستر داخله شعور غاضب، غضب واستياء وفقدان الثقة بالآخر، لقد خطط بتكتم مريع إجهاض وجود أقرب الناس إليه انتقاما لذاته المجروحة.

رغم فقدانه الاهتمام بالعالم الخارجي إلا أنه استطاع أن يبث وجوده على القلة التي استطاعت اختراق حيز دائرته المغلقة، وذلك استجابة لدوافعه ورغباته الذاتيَّة بإشهار وجوده رغم حالة الانطواء التي عانى منها، خاصة عندما ضعفت قدراته بالتواصل الفعلي الملموس بالعالم الخارجي، استطاع فقط أن يحتفظ لنفسه بالبقعة التي استوعبت أفكاره وأحلامه بعيدا من الواقع.

استجاب لنداء عقله المتعب مستغلا السويعات القليلة التي يكون فيها مستيقظا، فيقضيها بمعية مسلسل عربي أو مع برنامج ديني وحيدا، وأحيانا يغفو معتمرا قبعته متلحفا بغطائه، تتكئ يداه على حافتيّ

المقعد المُنجّد، ساعات طويلة تمر وهو جالس في مكانه دون حراك، شهور تمضي وفصول تتبدل، لا شيء يتبدل غير اللحظات التي تمرّ مثل السكين على جسد صنم حتى أصبح مثل تلك الرخامة (المزولة الشمسية) المعزولة، التي لا تقع الشمس عليها ولا تلمسها عين إنسان، لم يشخّص ظله أحد ولم يمرّ أحد في المكان، لقد تنصّل منه الزمان وانحلّ الضوء عنه فغيّب وجوده... لكن...استطاعت الشمس أن تشرق من بعده!

تغذى على ذكريات الماضي السعيد، تلك التي ساعدته باستيعاب ما حصل لأحلامه الكبيرة التي توقفت ولم تخرج إلى حيز التنفيذ، مسترجعا نجاحاته وبطولاته السابقة، متباهيا بجيوبه المليئة متفاخرا بأعماله التي درّت عليه الربح الوفير، يتحدث في تفاصيل مملة يصف فيها العيشة البهية التي ظفر بها في حياته، شارحا عن الرحلات والسفريات التي قام بها والتي ينوي القيام بها أيضا، وتحدث عن المركبات التي اقتناها والصبايا الجميلات اللواتي صادقهن، يتذكر الأيام الجميلة التي أمضاها ما بين إيلات و حيفا، المغرب وفرنسا، الولايات الأمريكية و أستراليا، ثم ينتقل إلى حاضره المعيش في الوطن البديل، مباهيا بما يملك من أرصدة وأجهزة كمبيوتر وأدوات كهربائية، وأحذية ثمينة وملابس فاخرة ومدخرات كثيرة جميلة، وحقائب السفر الثمينة التي

اقتناها شارحا لأصدقائه تفاصيل اقتنائها عبر السكايب...لم يمت الحلم في قلبه!

لكنه لم يعد إلى الشرق الأوسط كزيارة أولى بعد الهجرة كما خطط أن يفعل لأن ملاك الموت كان أسرع، وبقيت الدائرة مفتوحة، رحل قبل أن يغلقها، تلك الدائرة التي تتألف من تلقاء نفسها كنتيجة لعملية الهجرة والتي يتبناها سِرار العقل دون أن ندري، هذه الدائرة غير المغلقة تحصل نتيجة الحيرة وعدم الثبات على رأي والتأرجح ما بين الأحاسيس المتناقضة، ناهيك عن شعور التردد الذي يتبدد من تلقاء نفسه عند العودة الأولى إلى الوطن الأم، حينها يأتي البت بالقرار، فإما اختيار الوطن البديل والمكوث فيه ونسيان الوطن الأم نهائيا، أو العكس تماما...لم يغلق (باسم) الدائرة ولم ينقسم على نفسه أيضا لأنه قرر أن يبقى حيث هو.

وعندما عدت من البلاد إلى أستراليا بعد زيارة أولى للوطن سألني:

- كيف هي البلاد، اشتقت لكل شيء فيها، الشوارع والمطاعم، وكيف هي الضيعة والأهل والأصدقاء وجميع الناس؟
- البلاد ما تزال على حالها والجميع سألوا عنكَ!
- هل التقيتِ بفلان وفلان وفلان...؟

- نعم لكني لم ألتق بفلان ولا فلان!
- خسارة جدا، تمنيت لو التقيتِ مع فلان وفلان أيضا، اشتاق لهم كثيرا!
- لماذا لم ترافقني إن كنت مشتاقا؟
- أرافقكِ؟
- نعم ترافقني وما المانع، ألست مشتاقا لجميع الأصدقاء؟
- مشتاق طبعا لكني لن أخرج من هنا أبدا!
- تتحدث وكأنك موقوف هنا، (أجبته ساخرة)
- نعم أتمنى أن أبقى موقوفا هنا، أستراليا أجمل ما منحتني إياه يا أماه، لولاك أنت لعلم الله وحده أين كنت الآن ولمَ ظفرت بالجنة الحقيقية!
- تعتبرها جنّة إذن، وماذا عن جنة الله المزعومة التي تؤمن بها؟
- هناك أجمل طبعا، ثمّ لا تقولي (مزعومة) لأن هذه الكلمة تخرجني من نصاب عقلي!
- إن أردنا التحدث عن جمال الطبيعة والمياه العذبة، الأنهار المتدفقة والطيور السّاحرة والخضرة المذابة تحت قطرات الندى، الناس وقلوبهم الجميلة فكلها مجتمعة هنا، أتمنى أن تشبه جنتك الموعودة!
- إذن أنت لا تؤمنين بالجنة!
- (.....)
- وتصمتين كعادتك، أخبريني هل تؤمنين بالجنة والنار؟

- سألتني هذا السؤال أكثر من ألف مرة، ثم لماذا تسألني أنا؟
- أنتِ خير من يعلم، ومن أسأل غيركِ يعني؟
- (شفتني رحت عالجنة ورجعت يعني) حتى أخبركَ؟

وبعد صمت، لم أُظهر ترددي لك لكي لا يكون هذا التردد سببا آخر يؤدي إلى زعزعة إيمانك فتتعذب أكثر، أجبتكَ:

- أنا أؤمن بالجنة مثلكَ!
- هل تؤمنين فيها فعلا، أخبريني بالحقيقة أرجوكِ؟
- كم يقلقك الموضوع، دعني أؤمن بما أريد مثلما أدعك أنتَ تؤمن بما تريده، لك مطلق الحرية بإيمانكَ ولا اعتراض!
- إذن، أستنتج أنكِ لا تؤمنين بالحياة الأخرى؟
- أؤمن، لكني لا أجعل هذا الموضوع من أولويات تفكيري، لدي أشياء كثيرة أخرى أفكر فيها عدا الجنّة والنار!
- ماما، أعلم أن الكتابة قد أفسدت عقلك قليلا، وأعلم أكثر كم أنتِ مؤمنة وأنكِ ستكونين من أهل الجنة أيضا، لقد جهز الله لكِ كرسيا هناك، صدقي ما أقوله لكِ!
- لكني أسكن مع أهل الجنة هنا، لو تدري كم أكره الكراسي والمتنازعين عليها أيضا. (قلت ولم أدعك تسمعني مراعاة لشعورك).

لم يصلني منكَ جوابا، اكتظت الأفكار في عقلي واختلفت التصورات، لم تخبرني عن الجنة التي وعدت نفسك بها، هل أنتَ هناك؟ منهم من أغراني بجلسة استحضار لكي أطمئن عليك لكني لا ولن أفعل، لن أوافق على أن يقوموا باستحضارك فتخبرني إن كنت قد نلت مرادك أم لا، لن أفعلها أبدا.

الصراع في البحث قاس، أصبحت كل إيماءة صغيرة تعني لنا أشياء كثيرة، أقصد أنا وأخواتك، وبدأت التلميحات تعتمل دواخلنا، كل تلميحة أو إشارة ما نعتبرها مُصدّرة أو مقصودة، طلبنا لك الراحة في عالمك الآخر تعويضا عما نلته من عذابات في هذة الحياة الدنيا، الصغيرة (مرلين) وصلها اسم في المنام وسألتني عنه، مرت على مسامعها أسماء كثيرة متشابهة لكن اسم (باسيليوس) هو ما استقر بأذنها، لو تدري كم أسعدها الحلم واعتبرته رؤيا حقيقية عندما أخبرتها أننا لقبناك في فترة ما بهذا الاسم فتحمست مؤكدة لنا:

- باسم أصبح مع القديسين، لقد سمعتهم وهم يختارونه ليكون معهم، لقد سمعتهم وهم يقلّبون أسماء كثيرة متشابهة حتى استقروا على هذه الكنية، (باسيليوس).

وشقيقتك (زيزي) شاهدتك في الحلم وأنت تداعب الأطفال، تمرح وتضحك معهم، رأتك سعيدا ومشغولا بمساعدتهم، لقد أصبنا جميعا

بحاسة جديدة وبدأنا نراقب الإيحاءات التي تحدث من حولنا فنصدق كل إشارة، ونتوقف عند كل علامة تصلنا، نتبادلها فيما بيننا ونحاول فك شيفرتها، ونفسرها كما يوحي لنا القلب والحسّ، لقد جنّ جنوننا على فراقك وزاد انتباهنا للمؤثرات المحيطة بنا وكأننا بدأنا نكتشف العالم من جديد!

وعندما حضر الكاهن إلى البيت لكي يقوم بالصلاة على روحكَ وذلك قبل مراسم الدفن بيومين، طلب مني إحضار صورة لك لكي يضعها أمامه أثناء الصلاة، بدأنا نقلّب في صفحات ألبوم الصور، عهدت المهمة لأخواتكَ لأني رفضت حينها فكرة أنك قد غادرتنا، كنت ما زلت عالقة في مرحلة الإنكار، أريدك حيا وليس ميتا، ومن بين جميع الصور المتراكمة داخل الألبوم سقطت اليد على صورة ما وهي عندما زرت قبر المسيح في كنيسة القيامة في القدس، ظهر قبر المسيح خلفك وظهرت خاشعا ممتلئا بالإيمان، وجهك حائرا ومتعافيا نسبيا... لم تشبه نفسك!

جمعتنا صلاة واحدة وقلب واحد ونيّة واحدة ومحبة نكنها لك بحجم الكون، لو تدري كم نحبك، أخواتكَ الباكيات مقهورات على فراقك، لقد كسرت قلوبنا بغيابك، صلينا لكَ وتمنينا أن تصلك صلواتنا، لو تسمعنا وتعلم كم نحبكَ، بصلاتنا الخاشعة طردنا نعيب الغربان، تلك

التي تجمعت عند فتحة الدار فجأة، نعبت بصرامة وكأنها لا تريد لروحك السكينة لكننا التزمنا بتكملة الصلوات حتى اختفت من الحارة كليا.

أطلب السكينة لروحك بني وهنيئا لابتسامتك الجميلة، استقرت عيناي على صورتك؛ فنسيت أنكَ فارقتنا، وبدأت أتغلغل داخل بهو الذكريات؛ لكي أستجمع ابتساماتك وألملم شظايا روحك المتفائلة التي حصل وبخختها في كنيسة القيامة، ما أجملها من ابتسامة ضاعت منا، وعندما ظهر تاريخ التقاط الصورة، ٢٠٠٢/١٢/٢٥ عادت الدائرة المفتوحة لتقرع ناقوسها في فراغ الوجود من جديد، مثلما عادت إلى رؤوسنا التساؤلات الكثيرة لتطرح نفسها، أهمها، لماذا رحلت الآن بالذات ولماذا لم تنتظر قليلا...

لقد رحلت ودوائر عقولنا ما تزال مليئة بالتساؤلات!

***

من بين ردفيّ الصّمت استنشقت دويّ الهمس، همس ما يصلني، هلا تكون حاسة الأمومة، تلك اللعنة الأبدية التي لا تموت، تلك التي قادتني إليك في يوم قائظ، الشمس تلتهب في حضن الأفق قبل المغيب، دخان الحرائق للغابات المجاورة لم يستطع تغييب لهيب قلبي المحترق الذي اخترق حرمة السماء دون هوادة، الساعة تشير إلى السادسة والنصف مساء، المركبة تهدر بعصبية واضحة نحو الهدف، بؤرة الفكر تمحورت واضطربت، توقفت هناك حيث لا مجال لتبديلها، قلبي يهفو، صدري يعلو وينخفض، أسمع صوت أنفاسي وقلت في صمت مريع:

- لن أجده لقد تأخرت!
- ماما هل قلتِ شيئا؟ سألتني شقيقتك (رورو) التي قامت بقيادة السّيارة.
- لم أقل شيئا، لا شيء غاليتي لا شيء!

وتغمرني كل الأشياء، كل الأشياء تغمرني، تخنقني الأشياء، كل الأشياء تخنقني!

يخيفني البقاء في المنتصف، لم أتجاسر على التوقف، الطريق آمن مفتوح على مصراعية، يستقبلني ويحثني المضي فيه بينما احساس آخر يوشوش داخلي يحثني على عدم المضي والتوقف حالا عن المسير، بل بالأحرى هو إحساسي الذي اختلط عليّ والذي بدأ يقودني إلى حيث

بؤرة النهاية ليضعني أعلى فوهتها، لم أشعر بالضياع ولم تزغ مني لحظات الحزن، بل، لقد شعرت بالضياع الكامل، لكن لم تزغ مني لحظات بائسة أردت التهرب منها، الآن أصبح الحزن حقيقة مؤكدة، الحزن لا يتكيف مع الضّياع، بل يتكيف، الضّياع لا يتكيف مع الحزن، بل يتكيفان... لقد اتفقا عليّ أخيرا، الحزن والضّياع!

تذكرت حالا سؤالا كررته شقيقتك مرلين:

- ماما إن حصل وتوفي باسم هل ستفقدين عقلكِ، هل...؟
- لماذا هذا السؤال، يدهشني سؤالكِ!
- أخاف عليكِ إن حصل وفقدتهِ لأني أخشى عليكِ ماما!
- لا تخافي يا صغيرتي لقد قمت بتوصيته! وأشرت بيدي إلى رأسي
- توصية من؟ سألتني
- لقد أوصيت هذا العقل وصية غالية جدا، أن يقوم بلجمي ساعة الفجيعة لكي لا أضيعه فمن يضيّع عقله تضيع منه جميع الأشياء!
- وهل ستقدرين؟ سألتني مجددا
- لزاما، يجب أن أقدر، لزاما علي...!

الحديقة صامتة هادئة محاطة بسور صنع من الخشب المصقول، عشرات القطع طويلة المدى التحمت ببعضها البعض، صُدع ظاهر

حصل في الجدار المرصوص بالألواح الخشبية المستقيمة...لوحة خشبية مفصولة حادت عن المجموعة، لقد انتزعت من مكانها فحدث تشوّه واضح في الجدار، زاغ اللوح من مكانه ومال مبتعدا وكأنه يد مريض تستجدي الحياة قبل الرّحيل، حاولت إعادتها وبكل قوتي إلى الصف لكي تلتئم مع مثيلاتها لكني أخفقت، أصبح الميل شديدا والقطعة لم تعد تشبه مثيلاتها، أعدت الكرّة مجددا وبقوة العزم أردت للقطعة العودة إلى الصف المرصوص، لكن هذا الضّلع أبى العودة، نذير شؤم أو ربما هي علامة واضحة مرسلة إلى أن من سكن هذا البيت قد انفصل أخيرا عنه ومن الحياة!

تراجعت خطوة إلى الخلف ثم عدتُ إلى السّور وحاولت إعادة القطعة إلى الصف مجددا، وبكل عزيمة شددتها لكنها أقوى من كل عزيمة، جميع محاولاتي باءت بالفشل فنزحت خطوتين إلى الخلف، رمقتها ورمقتني، تأملتني وتأملتها، عقدة تشبه العين مغروسة داخلها توعدتني بألا أفعل، رمقتها مجددا وردت لي الصّاع صاعين، أجزم أن هذه القطعة لا تشبه باقي القطع، قلت في سرّي، غريب أمر هذا الضلع المسلوخ عن أربابه.

العقدة التي تشبه العين الموجودة في اللوح الخشبي أعادتني إلى الخلف، إلى سنوات الذاكرة الملمومة التي بدأت تتناثر الآن، هنا أرى عينا واحدة

ترمقني تحثني وتأمرني وهناك تركت عيونا كثيرة نافرة أخافتني، تلك التي غرزت داخل بلاط بيتنا المرصوف بها، مئات العيون السوداء التي صنعت من خليط الحصى بألوان متماسكة في البلاط الأبيض مبسوط أرضا والتي جعلتها مستوية فخرجت منها تلك العيون المصقولة، تلك التي رمقتني وتصيدتني والتي أخافتني في الماضي، ومنذ الصدمة الأولى عندما أخبروني أنك مريض حاولت التهرب منها لكنها خرجت من مكانها وبدأت تركض خلفي، حادة ومخيفة، لقد تراءت لي من بين دموعي المسكوبة وهي معلقة في الهواء أيضا عندما تركت مكانها وتطايرت في كل مكان في الدار ولحقت بي لتغرس حقدها داخل بؤبؤي عينيّ!

ضربتني الأفكار وبدأت أدور حول نفسي مجددا، أدرك تماما كنه هذا الشعور، الصدمة تعود مجددا لكن بثوب آخر أكثر دكنة تجر خلفها جميع المشاهد الكليلة والتحركات التي تنغلي الآن والتي حصلت سابقا أيضا، الصدمة تخطفني من يقيني مجددا، الأحداث الحزينة تعاد لتتبارى فيشرد ذهني ليهرب إلى أماكن أخرى، أحداث صفيقة تعتريني فتضعني من جديد على فوهة البركان، البركان هذه المرة في مكان آخر، تتكرر الأحداث معززة بتصوراتي القديمة، تتشابك الأمور وتنفجر، المشاهد ذاتها تحمل فصولا محدثة مؤلفة من تكوينات حقيقية وملموسة... هل صرعتني صدمة جديدة؟

يدان غريبتان أمسكتا بكتفيّ، هزتني جارتكَ بقوة لكي تعيدني من شطحة أفكاري إلى الواقع الفجّ، وطلبت مني أن أجلس فرفضت، ظننتك أنتَ من فعل، هي ذاتها الحركات التي أجفلتني عندما كنت تختفي قاصدا، تحتضن كتفيّ من الخلف، تهزهما وأنا مولية ظهري لكَ، تلعب معي لعبة (الغميضة) ثم تشهر عن وجودك مستهترا بقلقي قائلا:

- هيّاني أنا ها هنا!
- أعلم أنكَ هنا؟
- لماذا تبحثين عني إذن؟
- لكي أطمئن عليكَ، لماذا تتقصد الاختفاء، ألكي تقلقني قاصدا!
- لا تقلقي عليّ أنا بخير!
- لماذا لا تجيب على مكالماتي، لماذا لا تجيب على الهاتف؟
- كنت نائما!
- بل أنت تتهرب من مكالماتي، ألا تشتاق لصوت والدتكَ؟
- ماما أنا بخير، لا تتصلي بي وإن حصل واتصلت مجددا فلن أردّ، ثم لا تأتي دون موعد مسبق فربما تكون صديقتي معي، ثم من حقي أن أعيش وحدي، لم أعد طفلا رغم أنكِ تصرين على أن أكون، كل إنسان

بحاجة لخلوة وآن الأوان أن أحياها، عندما أحتاجك سوف أتصل أنا بكِ! هذه المرة لم تتصل بي ولم تكن تلك يداك، لم تكن أنتَ ...

***

راقبتهما (بيضاء) من بعيد وراقبت تلك الفتاة، ابنتها رورو التي بدورها حاولت أن تخفي خبر وفاة أخيها عن والدتها بداية، تلك الفتاة التي التصقت بأخيها كثيرا في المدة الأخيرة والتي بدأت تبحث عنه الآن في المشافي وكلّ كلّها يرتجف، يداها ترتجفان وعيناها مرعوبتان، ترى بماذا حدثها قلبها في تلك الساعة المشؤومة، هي تتبع نظرات الأم التائهة الزائغة، نظرات تستجدي الرحمة وتنتظر من المجهول الجواب، لقد انصب كل اهتمامها على إيجاد أخيها (باسم) الذي حارب لكي يبقى وحيدا، لقد جافى وتحامق وأظهر طيشه وارتدى طاقية الإخفاء وابتعد قاصدا متقصدا.

أخطأت رورو بتلقين الاسم لموظفة غرفة الاستعلامات في المشفى فلم تجد له الأخيرة إقامة فيه، سألت عنه في مشفى آخر وآخر، لم تجده، وتساءلت أين سيكون يا ترى إن لم يكن في المشفى، تجهم وجهها وتعكرت ملامحها، تواصلت مع عناوين أخرى في أماكن أخرى، كان من العسير إيجاده، لم تتوقف عن البحث، وبينما انشغلت هي باتصالاتها الهاتفية لجأت الأم إلى الجدار الخشبي بعد أن جثت مدة طويلة مثل جثة هامدة على أول سلمة من الدرج المؤدي إلى الطابق الثاني، انتظرت ولم تنتظر، اقتربت ولم تقترب، رمقت اللوح النافر تارة وتارة أخرى ذهبت بفكرها حيث ذكريات الماضي المؤلم... ذلك الكتاب المغلق يفتح على مصراعية الآن ويحضر بفصوله الكئيبة أمامها فجأة، مرّت على

صفحاته سريعا، غمامة من النسيان تسيطر عليها فتفقدها شيئا ثمينا ...

لم تتذكر يوم مولده... غاب... وكأنه لم... يلد...

طرقتا، الأم وابنتها أبواب الجيران للاستعلام فظهرت امرأة من أصول إيرانية في فتحة دارها، جارته التي تقيم في الطابق العلوي القائم فوق مسكنه مباشرة، كل الذي قالته أنها لم تلمحه منذ عودتها من إيران وذلك قبل ثلاثة أيام مضت، تحدثت بالإنجليزية المكسرة، أرادت أن تقول شيئا وسكتت، حاولت الأم التقاط الحروف من فمها لكنها لم تفلح.

وجارة أخرى قالت أنها لمحته قبل أسبوع فقط عندما خرج ليرمي شيئا في مكب النفايات، قالت عنه أنه شاب منطو على نفسه كثيرا وبالكاد يتحدث مع الآخرين في البناية، اللهم امرأة مسنة أخرى هي الوحيدة التي استطاعت أن تلملم بعض الكلام من فمه لكي تطمئن عليه، تلك المقيمة في البيت المقابل تماما، لكنه في المرة الأخيرة عندما حاولت التواصل معه صرخ في وجهها وطردها من أمام بابه وذلك قبل سنة تقريبا.

- هؤلاء المسنات الخرفات يفسدن عليّ التفكير، ابني موجود في الداخل، أنا أشعر به، قلبي يقول لي ذلك! خاطبت الأم نفسها

لا بدّ من الانتظار أمام فتحة داره ولا بدّ من استمرار البحث عن وقع قدميّ هذا الشاب المريض، أتت الجارة مجددا وهي تحمل سلما ومصباحا ضوئيا لأن بقع ضوء النهار بدأت بالتلاشي والعتمة بدأت تتسلل لتحط سريعا في المكان، ظهر وجه (باسم) على مضض، لقد حضر بجسده وبدأ يتدرج في المكان، نهضت الأم من مكانها وصعدت السلم بعد أن أسندته على السور حتى تكشّف عليها القسم الأمامي من البيت، إنها تراه، هو الوحيد الذي ينتسب لهذا المكان ويجب أن يكون هناك.

خشيت دائما اعتلاء السلالم، لكن هذه المرّة نسيت خوفها وبدأت تبحث عنه في الداخل، الزجاج مغلق، ذلك المؤدي إلى غرفة الجلوس، تعرفت على الحاجيات التي انتظرت هناك بكماء صماء، انتشر صمت لا يشبه أي صمت آخر، حدّثت نفسها قائلة:

- تلك المكوّنات الجامدة هي الشّاهد الوحيد عما يحدث في الداخل، لو تنطق!

أجالت بنظرها حتى توقفت نظراتها عند المرناة المغطاة بشرشف أبيض، حينها علمت أنه قد سافر إلى مدينة (سيدني) كعادته.

قفزتُ من أعلى السّلم وأنا أدمدم ثم نزلت على أرض صاخبة، أرض غاضبة تنذر بوجود خطر ما وطلبت من رورو أن تستعلم الأمر في إحدى المستشفيات من جديد، ربما تكون صحتك قد توعكت فجأة فاضطررت المكوث، ثم عدت إلى أوّل سلمة وجلست، جلست وفكري موزع في كل مكان، بحثت عن شيء يرشدني إلى الحقيقة أو لكي يرغمني إلى تبديل ما أفكر به على الأقل، أفكر بحالة الموت، هو ذا الموت الذي ربما يكون قد اختطفك مني، هذه الفكرة تطرق خاطري الآن، هو الطارق العظيم الذي يمكنه أن يطرق كل باب دون أن يتحداه أحد.

***

أسرعت (بيضاء) إلى الأم لكي تخبرها وعندما وصلت المكان وجدتها جاثمة في مكانها ساكنة، تركتها لبرهة وحيدة تفوّض الله بما احتسب، ترددت بالمثول أمامها وقبل أن تطوي ساقيها للريح سألتها الأم:

- من أنتِ وهل تعرفين ولدي؟
- أنا....!
- من تكونين؟
- أنا جئت لكي...
- لكي ماذا وما هذه الصفحات التي بين يديكِ؟ سألتها الأم.
- هذه الأوراق...هذه...! (تلعثمت بيضاء)!
- وكيف علمتِ أني بحاجة للصفحات البيضاء الآن بالذات؟
- أنتِ بحاجة للأوراق فعلا خذيها مني إذن ودعيني أرحل، خذيها فأنا لا أريدها.
- شكرا لك ما هو اسمك؟
- اسمي (بيضاء)!
- اسمك (بيضاء) وتمنحيني صفحات بيضاء، هل...
- لا عليكِ، لماذا تريدين الأوراق؟
- آن الأوان لكي أنتهي من رواية، رواية يجب أن أنتهي منها تحمل نهاية حزينة!

أدركت (بيضاء) أن الأم قد علمت بالخبر فقالت لها:

- دوّني ما تريدين تدوينه، لك كل البياض، سأذهب الآن، سأذهب!
- لكن، من تكونين وكيف ظهرتِ فجأة وإلى أين تذهبين، و...

أطعمت (بيضاء) قدميها للريح ثم اختفت، وبدأت الأم بتدوين الحكاية

*

أكتب لكَ هذه الرواية يا باسم، يا بنيّ...وكلي يقين أنكَ لن تقرأها!

مهما تحلّب الورد وإن نشفت عصارته، ألا تأنّى جسدك بالتهام نفسه، بلى تبقى عيناك منارة رغم قمّة العذاب، تبقى عيناك منارة، شرسة هي الحياة، قاسية هي النهارات التي آويت إليها، ولم تجد فيها سوى القسوة، مهارة المرض تتجمع داخلك ونبذت كل خلية رحيمة فيه حتى بدأ جسدك يتآكل ببطء مثل مروحة تهرش أجساد الفراشات فتطاير نثارها، نثارك تطاير في زحمة السنين وتأسس غبار ذكراك في نفوس الآخرين حتى أصبحتَ منسيا تماما، الحقيقة مرة عندما تتحدث عن نفسها، هل تعذبت يا بني لمّا أقلتك الملائكة إلى مكان آخر، أخبرني، هل حظيت بمزيد من العذاب، أم كان موتك مريحا وهادئا، هل هدأت روحك الآن واستكانت، أم بقيت زمنا لا بأس به تبحث فيه عن الراحة، متى وجدتك الملائكة، وهل هي رحيمة معك، لو تخبرني متى زارك ملاك الموت، وهل انتظرك بالمرصاد طويلا حتى لفظت آخر أنفاسك، هل أحاطك مصمما البقاء أم غادر ثم عاد، لماذا لم تراوغه هذه المرة فأنت أذكى المراوغين، لماذا لم تراوغه، ماذا حصل لكي تستسلم له هكذا وكيف تستسلم له بكل هذه السهولة؟ لا أصدق أنك منحته روحك بنفسك، لا أصدق أنك لم تقاومه، لا أصدّق أنك متّ، لا أستوعب غيابك...

عينان متقدتان وأبواب مغلقة عليك وخطواتك عرفت الهمس، هادئ صلب النفس، عيناك جريحتان وفؤادك قويّ وجسدك طريح الفراش، عضوان إثنان قويان بقيا ملكك (قلبك وعقلك)، هذا ما كنت عليه فعلا، وأبدا لم تبكي، لا تعرف البكاء ولم أرك يوما تبكي، الآن بدأت أتساءل لماذا، بعد أن فقدتك عرفت سبب جمود دموعك داخل مقلتيك، يا لهذا الكبرياء أم هو الجبروت الذي يتحدثون عنه، أم هي المكابرة، أم الدموع هي مجرد كذبة، أم أنا كنت ضريرة فلم أرها!

- لن أموت! قلتَ بصوت عال
- لن أتركَكَ تموت! أجبتكَ بانكسار
- وأنتِ؟ سألتني وكأنك تنتظر نائبة
- ماذا بي أنا؟ أجبتكَ باستياء
- هل ستموتين في يوم ما؟ سألتني بتهكم
- جميعنا سيغادر الحياة في يوم ما! أجبتك بهدوء
- أنتِ لا تموتين! قلتها بأسلوب استفزازي فاجأتني حينها

استدرت استدارة سريعة ثم ثنيت جسدك، انحنيت ولويت خاصرتك وضحكت ضحكة واسعة، ضربت كفا بكف وبنظرة استعلاء رددت:

- أنتِ لا تموتين، أنتِ لا تحبين الموت، أنتِ جبانة يا أماه! وغلبكَ الضحك
- (.....) بكت دواخلي
- هلا ذهبتِ معي؟ سألتني بتهكم
- إلى أين سنذهب في هذه السّاعة المتأخرة من الليل؟ أجبتك بهدوء
- إلى المقبرة، إن كنتِ تتصفين بالشّجاعة والجّرأة تأتين معي الآن وحالا! قلتَ متحديا
- لقد قمنا بزيارتها سابقا عدة مرات وقد استوحيت منها قصتين قصيرتين، (مستنقع الحياة) و (المرآة الهشة) وتحدثت عنها في مؤلف (ربيع المسافات) أيضا، أي أفكار هذه التي تأتيك على غرّة. أجبتك رادعة

ضحكت مجددا، ثنيت جسدك، انحنيت ثم استقمت، صفقت بكفيك النحيفين، استدرت كعادتك وأجبتني مستهزئا:

- قولي أنكِ امرأة جبانة...خائفة وتخيفك المقابر!
- (.....) بكى قلبي مرارة .

***

دجّانة أطالت البحث، جميعهم غير متعافين لكنهم ما يزالون أحرارا من ربقة الموت، من الصعب تجاهل المرضى الذين بدأوا يرتقون سلّم الشفاء، هؤلاء الذين بدأوا يجهزون أنفسهم للخروج من المكان للبحث مجددا عن استقرار ما في بيوتهم حتى لو كان وقتاويا، المريض حالما يخرج يشعر أنه معافى وسليم وقوي، وهذا ما يغضب دجّانة حقا التي بدأت تطرح عدة أسئلة لنفسها، أهمها (لماذا يتعافى الناس)؟

استغلت وجودها هناك حيث بدأت تحوم حول الأجساد الضعيفة للشبان الذين يوازون باسم عمرا، نفحة غريبة لفتها عندما وقعت عيناها عليه فتوقفت عنده، ذلك الضاحك العنيد سمعته بينما هو يسخر من طبيبه قائلا له:

- سأموت هنا في المشفى وعلى هذا السرير ، لكن ليس الآن!

- من قال أنكَ ستموت؟

- الموت ذاته!

- وهل الموت يتحدث؟ سأله الطبيب

- هههه، أنت لا تسمعه لأنك لا تعاني، حتى أنك لا تشاركنا بقلقنا نحن المرضى!

- أنا، وماذا برأيك أفعل هنا؟

- أنت مجرد طبيب لا أكثر ولا أقلّ، تعاين الحالات، تدوّن ملاحظاتك وتزجها داخل جهاز الحاسوب، تتتبع مجريات الأمور بواسطة هذا الجماد فقط، ثم تكتب بعض الملاحظات وتعيّن الأدوار الجديدة، لكن أحاسيسك ميتة تماما، على فكرة وللعلم أنه لي باع طويل بمسائل الحاسوب فذلك هو اختصاصي وأعلم جيدا كيف أدعه ينطق فقد أحييت عشرات بل المئات من الميتين أمثاله فيما قبل، هناك في بلدي عملت في هذا المضمار سنوات طويلة، إن حصل وصادفتكَ أي مشكلة أخبرني.

- سأخبركَ لكن لا يعجبني ما أخبرتني به بشأن أحاسيسي الميّتة، اشرح لي المزيد وأخبرني أنتَ الآن كيف توصلت إلى هذا الاستنتاج الذي أعتبره خطيرا؟

- أراك مجرد سكرتير تافه، تطبق الأوامر لا أكثر ولولا هذا الاكتشاف العظيم لضعتم جميعكم، آه على هاتيك الأيام، لقد أشتقت لك يا صديقي جدعون! صرخ وكأنه ينادي

- ماذا تريدني أن أكون، أوافق أن أكون تافها ثم من يكون جدعون هذا، لقد اهتزت جدران المشفى وأنت تناديه؟

- جدعون هو صديقي الأوفى، أو لنقل، صديقي الوحيد في هذه الحياة وهو الذي دربني على العمل ويقيم الآن في كندا.

- لماذا لا يزورك جدعون هنا إن كنت ترتاح لصحبته؟

- لا أريد أحدا لأني أريد أن أبقى وحدي، وحتى والدتي لا أريدها أن تلازمني أيضا!

- والدتكَ، وهل بدأت تتذمر، وحسب اعتقادي يحق لها؟

- لا لم تتذمر لكنها تأتي إلى هنا بصحبة كتاب تقرأه من أوله إلى آخره وحتى أنتهي أنا من العلاج، بدأ الكتاب يأخذها مني، إنها تحب الكتب أكثر مني!

- ويحق لها أن تفعل ذلك، الكتاب في هذه الحالة أجمل مصدر لتزجية الوقت، فكر فيها قليلا، كيف يمكنها إضاعة ست أو سبع ساعات وربما أكثر دون أن تفعل شيئا؟ ثم يحق لها التهرب من الواقع.

- في الماضي كانت تتصرف بطريقة مختلفة أما الآن فهي تتصرف وكأني أصبحت شيئا ثانويا في حياتها، تغطيني جيدا ولا تدع نسمة هواء خفيفة تدخل إلى جسدي، تدفئني عندما أشعر بالبرد،

خاصة عندما تسري دماء الدريل الباردة في جسدي وتطلب مني أن أغفو لكي لا أشعر بالوقت، حجة لكي تستمر في القراءة.

- مرضك طال كثيرا وأنت تعلم جيدا ما أقصده، دعها تفعل ما يرضيها، جيد جدا أنها وجدت شيئا مفيدا تفعله، أرى أنك تتجاهل هذه المرأة التي هي والدتك!

- جميعكم راضون عنها، ثم من تكونون أنتم؟

- نحن هنا لمساعدتكما أنت ووالدتك أيضا، هي بحاجة ماسة للمساعدة أيضا لذلك تهرب إلى الكتاب طالبة الشفاء من الواقع الأليم الذي يمرّ عليها؟

- أنتَ لا يمكنك أن تكون أي شيء سوى ما أنتَ عليه وأنا لا أثق بكَ، أطالب بتغييرك، أريد طبيبا آخر غيرك وأعتقد أن هذا من حقي!

- طبعا من حقكَ لكنك قبلا يجب أن تخضع إلى عملية سريعة!

- لا أريد وأرفض ذلك رفضا باتا، لن أخضع لأي عملية!

- أنت بحاجة ماسة لهذه العملية، ستخضع (لبيوبسي) مجرد استئصال عينة صغيرة لكي نعلم إن كانت أمعاؤك نظيفة من أي وباء سرطاني!

- هههه (ضحكة تحمل سخرية ظاهرة)، وبعد ذلك ستخضعني حالا لذات العلاج اللعين، ألا يكفيكم، أنتم تستهلكون جسدي حتى النهاية وكأني في حقل تجارب!

- نحن نستهلكه! أم هي الحاجة الماسة التي تودي بنا لنفعل الأفضل لكي نحافظ على وجودكَ، نحاول الإطالة في حياتكَ وحتى الآن أنت تتجاوب معنا جيدا من ناحية صحية، وهذا رائع جدا، على الرغم من استيائك الواضح منا وعدم احترامك لجميع جهودنا التي كرسناها للاعتناء بكَ، نحن نتجاهل تصرفاتك الرائعة تجاهنا ونفعل ما وجب علينا فعله.

- هل تحاسبني عما تفعلونه من أجلي، هل بدأت تعيّرني أنت أيضا؟

- ماذا تريد أن نكون بالنسبة لكَ، نحن لا نعاير أحدًا، يحزنني تفكيرك؟

- أن تشعروا معي مثلا!

- كيف تريدنا أن نشعر معكَ، بأي طريقة؟

- أنتم أطباء قلوبكم قاسية جدا!

- هل تريدنا أن نكون رسل الله على الأرض، ليست مهمتنا؟

ويصمت باسم وقد قرر أن يغلق نافذة قلبه على نفسه حاجبا الجميع من حياته بما فيهم أقرب الناس إليه، بل وأكثر، فقد قرر أن يسهم بتظليل الضمير الذي يناشده الكفّ عن تصرفاته الصبيانية غير المجدية التي يبالغ فيها، لقد أقفل على مشاعره ظانا أن ذلك يمنحه المزيد من القوة والكبرياء، كما أنه أغلق الموبايل بوجه طالبيه لكي لا نتعقب خطاه وأولهم أنا، أراد أن يبقى وحيدا، أن يتألم ويحيا ما تبقى له من عمر وهو بعيد عني.

قبل أيام من وفاته قال لي:

- الأفضل لك ألا تقتربي مني لأني أحمل فايروسا رقيقا، سيكون رفيقي وحبيبي فيما تبقى لي من رحلة الحياة، سيخونني هذا التافه، إن حصل وانتقل إليكِ ربما سيخونكِ أنتِ أيضا.

- لا يهمني ودعني أحمله معكَ!

- لا أحد يحمل مصيبة أحد!

- نعم، لا أحد يستطيع أن يحمل مصيبة الآخر، لكن لا تعتقد أنك وحدك من يتحمل المصاعب، بدأت تسميها مصيبة، سابقا أسميناها حالة خاصة!

- (.....)

- لا تصمت، يخيفني هذا الصمت، تكلّم، لا تتوقف عن الكلام!

- متعب جدا، حتى الكلام بدأ يتعبني، ابتعدي عني يا أماه، لا تقتربي، لن تستطيعي شيئا، هذا الفايروس العنيد يخنقني، أنا أشعر بالإختناق.

- سوف أستدعي الطبيب، سأعود حالا.

- (.....).

فرحت (دجانة) بالحوار الذي دار بينهما وقررت المكوث بجانبه تنتظر مجيء ريح الرحمة، أنصتت جيدا إلى الحوار وبدأت تخطط في كيفية نصب شباكها نحو المريض فتخضعه في قبضتها، حاولت الاقتراب منه لكن عودة والدته منعها من ذلك فآثرت انتظار الفرصة المناسبة!

رحلتَ .... رحلتَ .... وأصبتُ أنا بذلك الفايروس الرائع الذي صدرته لي قبل وفاتك...لقد تركته لي ورحلت.

طالت فترة مرضي، أشعر أنه سوف يلبسني حتى أنتهي من سرد الحكاية، حكايتنا، أعتقد ذلك!

***

صوتان إثنان يناديان، اهتز جسدي وارتعد فؤادي، بحثت عن الصوت الذي سحبني إلى مكان لا أعرفه، وصوت آخر أومأ لي بحدّة التوقف وناشدني عدم الاقتراب وأمرني بالاختفاء حالا، صوت وصورة واحدة عالقان في ذهني الآن، ابني، بينما صوتان إثنان يجتمعان معا داخلي، يا لهذه البلبلة، إشارات معينة تصلني من حيث لا أدري، أستشعرها أنا فقط، نهضت لكي ألاحقه، أي ابني، عاد الصوت ليطنّ بقوّة في أذني، طنينه المؤلم، حدثته قائلة: (هو صوتكَ أم صوتي أنا، هل سآخذكَ إليّ، إلى حضني وأطعمك من كفي مجددا، أم ستتركني وحيدة، هل أتبعك حيث سارت بك الحياة، لا تذهب، هل ستدعني وحيدة الآن، أغوص بين ثنايا العمر أبحث عن عمر انقضى)؟ سرت ببطء خلف صوت قلبي، شيء خفي يغرقني، قاومته وبهدوء دنوت منه، لكنه، حاول منعي من الاقتراب، لحقت به فابتعد، هرب مني حتى غاب كليا، لم أستطع اللحاق به فاختفى إلى الأبد...

*

تجمدت إشارة ٧٨٨ في مكانها وبقي صوتي عالقا داخل صدري!

لاح أمامي رقم يخيل لي أني أعرفه، ٧٨٨، رقم سيارة واقفة في المرآب المقابل، لماذا هذا الرقم يظهر لي الآن؟، هل هو دلالة شيء ما، الرقم يتكرر ويلتصق ببصري دائما، منذ وصولي القارة الجنوبية وهذا الرقم

يظهر لي دون سابق إنذار، من يرسل لي هذا الرقم في طرائق عديدة، ربما تكون هناك خديعة ما، أو إشارة ما، أو تلويحة، يا لهذه اللغة الإيمائية التي تحمل أسرارا خفية!

تذكرت الرقم جيدا لأني استثمرته داخل ذاكرتي، ربما هو إشارة الحظ القادم عندما انتظرت بفارغ الصبر حصولي على الإقامة الدائمة في أستراليا، وكذلك ظهر لي في مكان آخر، وبطريقة ووسائل أخرى عديدة، خاصة عندما اصطدمت معاملات الهجرة بتأخير معين، أو عندما انتظرت خبرا هاما كنت بأمس الحاجة له يطرد عني الشعور بالغربة، أو عندما حلّ عائق ما أمام أبنائي كان يشكل خطرا على وجودنا واستقرارنا معا في الوطن البديل، كل ما همني حينها هو أن نبقى معا، فقط معا نبقى أو نعود أدراجنا معا من حيث أتينا، لم أتساءل قبل الآن عن كنه الرقم الذي تكرر إلا هذا المساء الملوث بالضبابية حيث بدأ يشغل بالي كثيرا.

يا لهذا الانكسار الفظيع الذي بدأت أشعر به، يا لهذه اللحظات المشؤومة التي حطت رحالها بين كفيّ المرتعدتين وجعلتني أرتعش مثل سنبلة تخشى وطأة سنان المنجل، ها هو انكسار آخر يزحف نحوي فيصلني لكي يميتني مجددا، كم مرة توجب عليّ الموت وجوبا وارتد عني؟

لفتني سحابة طائشة ثم غارت عاصفة قوية علقت فوق رأسي ومدّت أذرعها نحوي، المنجل المصوب نحو رأسي يدنو أكثر، مصيبة مؤجلة سوف تحدث أخيرا على أرض عمرها ملايين السنين، حيث استطاع الأطباء تطييب جراحاتنا النازفة لكنهم لم يستطيعوا بترها، أستراليا، التي اخترتها لتكون هي المكان لذبح أمومتي فيه بعيدا من هناك، من هنا أردت أن أتحدى العالم مجددا بعد رحلة العلاج الطويل في الوطن الأم، حيث خضعتَ لعلاج مكثف بعد رحلة معاناة طويلة، هنا استطعتَ أن تحيا ثماني سنوات أضيفت إلى حياتك البائسة، ثماني سنوات فقط وقلبك لم يعد يحتمل فجاء ملاك الموت ليسحب من تحتك بساط الحياة أخيرا.

في يوم ما، بدايات الفترة الأولى من وصولنا إلى أستراليا، سألني طبيبك المعالج:

- يحيرنا كيف ما يزال باسم على قيد الحياة وهو يكابد كل هذه المكابد؟

أشرت إلى السّماء وقلت:

- لأننا نؤمن بالله!

- بل لأنكِ أنتِ من دربته على الصبر فاستطاع أن يواجه مرضه الذي طال بكل شجاعة، أنتِ تريدينه حيّا أيتها الأم الصبور، يصعب علي أن أخبركِ بأن ابنك ميت منذ فترة طويلة وهذا ما يجب عليك تقبله!
- ميّت! يدهشني كلامك، لا أوافق على ما تقوله، يسير ويتحرك من مكان إلى آخر، ويجهز لنفسه الطعام، يستحم وحده، يتحدث ويضحك، كيف يكون ميتا، أعتقد أن الرّب معنا!
- أنتِ تصرين على بقائه حيّا، ثم هل أنتِ الله؟ ها هو الميت يسير على قدمين هزيلتين وظهر منحن ورأس أصابته عاهة خطيرة، هذا الرأس الذي بدأ يتقلص يحمل عقلا حقودا يغلفه بقبعة حيكت من الصوف، عقل ذكي تحوّل إلى عقل آخر أصابه الفساد، أنصحك بأن تأخذي حذرك منه، لقد أصبح خطيرا ويجب أن نخضعه لعلاج نفسي مكثف، لكنه يرفض ذلك رفضا باتا، كان الله بعونكِ.
- أنا لا أفهم شيئا؟
- ابنكِ... ماتت دواخله، ليس الجسد هو الذي يموت فقط، والروح أيضا مؤهلة للموت بينما يبقى الجسد حكرا على الحياة!
- هل تخبرني بأن روحه بدأت تذوي؟
- بل ما أقصده أنه أصبح إنسانا آخر، ظاهرة يصاب بها عادة المرضى الذين يعانون من الأمراض المزمنة التي تستمر سنوات طويلة، هم أدمنوا المرض ولا يدركون شيئا آخر غيره، يتحملون الضغوطات والآلام

المبرحة كثيرا، عادة تنشأ لديهم حالة خاصة فيها يفقدون الإحساس بالآخرين فتتولد لديهم ظاهرة الأثرة وحب الذات وعدم التفكير بالغير، باسم ولأنه خبر حالات كثيرة من العناء والألم الجسدي والنفسي والتي سببت له أن يكون غاضبا لوّاما للحياة والآخرين، ولأنه أصيب بعاهة استمرت معه زمنا طويلا، ناهيك عن أنواع العقاقير والسموم التي يتناولها بشكل يومي، تبدلت عقليته وبدأ ينظر إلى الآخرين بنظرة دونية واستهزاء لأنهم لم يساوونه في التحمل والصبر، حسب اعتقاده، فأخذ ينظر إلى نفسه وكأنه البطل الذي لا يقهر، وعندما وصل به الحدّ إلى عدم التحمل بدأ يسخر من الحياة ومن نفسه، ناهيك عما يعانيه من انزعاجات وضغوطات نفسية وحالات أخرى كثيرة، جميعها أدت إلى اختلال توازنه فالبطل داخله بدأ يسقط والجميع من حوله يتمتعون بحياة صحية كاملة، لقد اجتمعت داخله أسباب كثيرة ساعدته على تبني حالة الكره، فبدأ يشكل خطرا على الآخرين بتصرفاته الطائشة، دعتني أنا شخصيا التنحي عن متابعة حالته الصحية.

- أنه مصاب بهشاشة العظام وذلك من تأثير المرض ويعاني من الركاكة في عدة فقرات في عموده الفقري، وكل ذلك بسبب ذلك المرض الخطير الذي ألّم به بعد اختفاء سرطان الدم، المسمى، (GVHD desease).
- بل أنتِ تتجاهلين الحقيقة المرة، تتجاهلينها وبكل قوة، الأمر أصبح معقدا جدا، أنتِ تعودتِ عليه بحالاته المرضية الكثيرة وتعايشتِ معها

جيدا وتقبلتها بصدر رحب، وهو أيضا، تآلفتما فانسجمتما جيدا أنت وحالته الصحية المزرية، لكن هلا استطعتِ التعايش والتكيف مع حالته النفسية؟ لماذا تتجاهلين أنه لا يمكنك السيطرة على انفعالاته الحسية الآن، هو ضعيف جسميا ونفسيا وحسيا، ويدرك تمام الإدراك أن الجميع يخشون عليه ويدللونه فبالتالي مسموح له كل شيء، ومؤمن أن الله سوف يستقبله استقبال المنتصرين في الجنة التي يؤمن بها، ليس هكذا تؤخذ الأمور، ويعرف تماما كم أنتِ أم رؤوم لذلك استغل ضعفكِ، هو واثق جدا أن مكانه الجنة حتى وإن أخطأ في الحياة الدنيا، إيماني يضعني على طرفي نقيض من مهمتي كطبيب واجب علي تقويم ما بقي تقويمه من الناحية الصحية، أما بالنسبة لحالته النفسية فليس الأمر من اختصاصي، أترك لك عنوانا لطبيب نفسي يجب أن يراه حالا، وإلا لاحتسبت الأمور بشكل سيء تندمون عليها جميعا فيما بعد.

- تخيفني يا دكتور، إنك تخيفني جدا!
- بل أنهكم جميعا، أعتقد أنكم الأقربون إليه، أنتِ وأخواته لن تستطعن التعامل مع ما آلت إليه الأمور الآن، صعب جدا!

***

تستطيع أن تسمعني، أدرك جيدا أنكَ تسمعني...أشعر بروحك تحوم حولي...أنتَ لم تغادرني...

تعود الآن إلى ذاكرتي الراهبة (دي لورد)، ملاك ظهر لي عندما مكثت وحيدة أنتظر مجيئكم إلى الوطن الثاني، لا أعرف كيف ظهرت ومن أين أتت، لكن كل الذي أعرفه وأذكره تلك القشعريرة التي سرت في جسدي عندما لمست يدها يدي، يد أعرفها ولا أعرفها، ملمس حظيت به من قبل، وربما لا، نعم، لقد ذكرتني بملمس جدتي (جميلة) رحمها الله عندما كانت تأخذني في حضنها كلما رأتني حائرة، كم أشتاق إلى لمساتها، في حضنها أحسست بالأمان دائما، لكن هذه السيدة لم تأخذني في حضنها لأني أظهرت لها تمنعا وتخوفا، لكن رغم كل شيء كانت أول من نشلني من حيرتي وأوفى من ساهم بترميم قلبي المجروح، ساندتني عندما أمضيت وحيدة لا ألوي على شيء سوى التفكير بعدم العودة، فما من (قط يهرب من عرس) إلا وإن كانت الأسباب عظيمة، انتظرتك، هل تذكر عندما حذرت عليكَ المجئ بدون الصغيرة مرلين، عندما خططنا معا للرحيل من الوطن إلى هنا، وعندما أخبرتني أنك ستأتي ولن تنتظر الصغيرة لأن تأشيرتها قد تأخرت رفضت ذلك رفضا باتا وأمرتك بالانتظار حتى تنجز وثائقها وتأتي معك، فلا يمكنني أن أترك خِمس روحي هناك، أنتم خمسة، لكل واحد منكم خمس فتكتمل روحي فيكم وبكم.

في غيابي، أُصبت بذات الوعكة الصحية مجددا، تلك الوعكة التي تعودنا عليها تماما والتي أصبحت روتينا ثقيلا لا مناص منه بعد أن تعرضت المثانة للإصابة بالنزيف الدموي، خضعت للعلاج عن طريق عملية ترقيع التمزق الذي حصل في جدار المثانة حيث تمّ التشخيص بواسطة المنظار، ثُبتت قسطرة كبيرة لتفريغ المثانة من البول حيث يكون كافياً لالتئام التمزق وذلك نتيجة أمراض الدم التي تعرضت إليها والتي سببت لك مرض الإنيميا (فقر الدم المنجلي) فيما بعد (Sickl cell anemia).

مكثت وحدك في مشفى (هداسا) وقامت على رعايتك شقيقتك (سوزان) التي بدأت تحترف مهنة المحاماة في القدس حينها، أمسكت بيدها بلطف وقلت لها:

- هذه يد الماما، كم يدك تشبه يد الماما!
- هل يدي تصبركَ يا أخي العزيز؟ سألتكَ
- نعم وكأني أرى يدّ أمي!

وتواصلت معك هاتفيا لكي أطمئن عليكَ، لو كنت تدري مقدار وجعي وقلقي وأنا بعيدة عنك، أخبرتني حينها أنك بخير وألا أفكر في العودة، قلت لي:

- ليست أول مرة أدخل فيها المشفى لهذا السبب، ربما تكون المرة الألف، ووجودك معي لا يقدم ولا يؤخر الآن بالذات وجميع الأطباء حولي، إن عدتِ فلن تنجحي في الخروج من البلاد مجددا، ابق حيث أنتِ واستمري في عملكِ، سنلتقي قريبا، إياكِ أن تضعفي، إن حصل ولبسك الضعف وعدتِ ستعودين إلى ذات الجحيم، لا تعودي، سآتي أنا!

صرخت من أعماقي صرخة سمعها كل امرئ يحترم وجع الآخر فكانت هي حاضرة، أقصد الراهبة (دي لورد) الإنسان الأول الذي فهم وجعي واحتوى دمعي، هدّأت من روعي، أمسكت بيدي وصمتت قليلا، تمتمت ببعض الكلمات التي اقتبستها من الإنجيل ثم قالت:

- ما هو وجعكِ؟
- هل توجهين لي الحديث؟
- نعم أوجهه لكِ!
- وجعي أنا، وما أدراك بوجعي! (قلتُ مستهترة من كل ما فعلته بي الدنيا)
- أخبريني عن وجعكِ!
- وجعي كبير جدا ولا أدري كيف أبدأ... (وصمتُ مجددا وانفجرت بكاء)

طبطت على كتفي ومنحتني منديلا لكي أمسح دموعي فيه وقالت:

- اتبعيني!

كيف لي أن أتبع امرأة غريبة لا أعرفها ولا تعرفني ثم إلى أين ستأخذني، أفكار غريبة جالت داخل عقلي وتساءلت في أعماقي (من أرسل لي هذه المرأة فتعقبتني ووجدتني أخيرا، امرأة لا أعرفها ولا تعرفني، تساوي والدتي عمرا، تبتسم لي، تطبطب على كتفي، تناولني منديلا جديدا ثمينا منسوج من القماش ومطرز بدقة حيث الأطراف لكي أمسح به دمعي وتشاركني حزني، أنا التي فقدت ثقتي بالناس جميعا كيف أصدقها فأنقاد إليها وأوافق على المضي معها بهذا الشكل، من تكون يا ترى)؟

- لكي تطمئني سأعرّفك على نفسي، أنا الراهبة (دي لورد)، لقد انتظرتك، وها قد حضرتِ أخيرا، حان الوقت إذن وقد أرسلك الله لي لكي أقوم بواجباتي.
- لم أفهم شيئا وعن أي واجبات تتحدثين! سألتها بنوع من الدهشة الملوثة بالرعب.

مرعوبة أنا، مرعوبة من كل شيء، وصلت إلى هنا حيث الحياة متاهة كبيرة والرعب يجتاحني، لا أعرف شيئا عن المكان ولم ألتق بوجه يمكنه أن يدرأ عني شعور الغربة، بحثت عن وجه أعرفه، تمنيت لو يظهر وجه واحد يمكنه أن يخرجني من حالة الرعب التي ألّمت بي، وكيف لي

التخلص من الرعب بينما موجودة أنا في مكان ربما لن يتسع لعمق آهاتي، والمرعب أكثر هو التفكير في العودة، فكيف لي العودة من حيث أتيت وهل سأعود أدراجي مهزومة مستسلمة حقا؟

كُلما شعرت بانكسار أليم أقلّب أُلبوم صور الماضي القديم، يا لهذا التحدّي الحكيم، لقد التقمتُ بنور الحياة من جديد، لقد أصبحت هنا ويجب أن أبقى حيث أنا وسوف أستثمر وجودي هنا لكي يكون مصدرا للتحـدي وأنشودة للفـرح وأوزار قـوّة.

ارتدت الراهبة زيّا عاديا محتشما، لم يكن زيّا خاصا بالراهبات، نظيفا وبسيطا وأنيقا، اختارت اللونين الأسود واللّبني بينما الراهبات في الشرق يرتدين زيّا خاصا بهن، هذه السيدة تريد استدراجي، أنا لا أصدقها، ثم عن أي واجبات دينية تتحدث، ولماذا الله أرسلني إليها أنا بالذات ولماذا تنتظرني، أنا لا أفهم شيئا، هذه مؤكد خديعة، نعم خديعة، بالكاد أصدّقها!

- سأجهز لنا القهوة فنحتسيها معا، خذي راحتك وأزيلي القلق من قلبك، هل تفضلين تناولها مع الحليب وكم قطعة سكر تحبين!
- أحبها بدون سكر وبالحليب! أجبتها بسرعة

كلا، ليس من المعقول أن تأتي سيدة لا أعرفها من حيث لا أدري لكي تدللني بهذا الشكل، لم أتعود على هذا الدلال، أنا أصلا طوال حياتي امرأة تعمل بشقاء وتطبق الأوامر بصمت، (هاتي، اعملي، خذي، ضعي، أفرغي، نظفي، امسحي، حضري، تعالي، روحي،...الخ) محكومة من الآخر وكنت راضية بقسمتي تسترا على حالي لا أشتكي ولا أتذمر وطبقت المثل القائل (الجدران لها آذان).

أشعر بخديعة ما وأحس بأمور غير منطقية في الموضوع لأني لم أتعود على هذا الأسلوب إطلاقا، وهو أن أشعر أني مهمة، لأول مرة أحس أني إنسان يملك روحا وكيانا وحياة، أنا إنسان إذن!

- هلا عرفتني باسمكِ؟
- (ها هي بدأت تسأل عن اسمي، أكيد مخابرات) قلت في سرّي!
- هل أنتِ متوترة، أراكِ غير مرتاحة، يمكنكِ أن تشعري بالأمان، أين تقيمين؟

وتسأل عن محل إقامتي أيضا، لن أخبرها عن عنوان الفندق الذي أقيم فيه، لكنها تبدو امرأة هادئة ويمكن الوثوق بها فلماذا أتعنت وأرفض المساعدة وأنا بأمس الحاجة لها؟

- لقد وصلت حالا من مدينة سيدني.

- وأين أقمت في سيدني؟
- أقمت عند ابنة خالتي (أمل)، لكني قررت المجيء إلى (بريزبن) لأني أبحث عن عمل يؤهلني في البقاء، أريد أن أبقى في أستراليا وأبدا لا أفكر في العودة.
- أها، لقد أحسست أنك غريبة وبحاجة لمساعدة، لمَ أنتِ مشدودة الأعصاب، أرجوك اهدئي قليلا، اشربي قهوتكِ وأنتِ هادئة!

كيف يمكنني طرد الخوف من قلبي وكنت محاطة بكل شيء اسمه خوف، أنا الهاربة مع الخوف ومن الغدر، وكيف لي الوثوق بأحد وأنا التي أنهالت عليها ضربات الألم من الأقربين وأهمهم والدك، هو من غرز داخلي هموم الحياة وبؤسها وبسببه تعاظم ارتيابي من الآخرين.

تشتتنا، أظلمت الدنيا في عيوننا وانسحب الاستقرار من تحت أقدامنا، هربنا من عوالم سقطت منها الضمائر، تحايلنا على الحياة، كان الصراع كبيرا والظلم أكبر، رغم توسلاتنا لم ترضخ تلك العوالم لصوت الضمير أبدا وتجاهلت نداءاتنا وبقيت محانأة بلون خطيئتها، ألوان الخطيئة كثيرة، ليست الخيانة والكذب والتحايل والمراوغة والسرقة فقط، وأكثر، الحياة واحدة والعمر غال، ونحن بشر كأي بشر نستحق الحياة.

وعندما تقابلتما أنتَ والراهبة لأول مرة قلت لي:

- ماما هنا تقيم الملائكة!
- الملائكة!
- نعم، (السيتسر دي لورد) ملاك، أرسلها الله لنا لكي تساعدنا في الغربة، يا إلهي أحبكَ! ونظرت إلى أعلى وأنت تستجدي.
- لم يعد بمقدوري استيعاب أي شي.، شيء محيّر فعلا ما يحدث معنا، بل إنه أكبر من كل التصورات، هل الملائكة تقيم هنا فعلا؟ سألتكَ
- هذه راهبة مؤمنة جدا ومهمتها هي مساعدة المحتاجين ولكي تضمن الجنة أرادت مساعدتك، وعندما وجدتك حائرة ووحيدة قررت ذلك، يجب أن نثق بها، بدأت أتفاءل من مسألة بقائنا في أستراليا ولن أفكر بالعودة لأن الله أرسلها لنا رحمة، الله يحبك يا أماه!
- (شيء بِمَخْوِل العقل)، ملائكة وآلهة وجنة، و...أنا لا أؤمن بكل هذا، أؤمن أنه بإرادتي فقط يمكنني أن أصنع قدري!
- إنك تصنعينه الآن، لا تقولي أنك غير مؤمنة، لا تخبريها أرجوكِ، (في حدا برفس النعمة)؟
- وإن طلبت مني طلبات لا تعجبني ماذا أفعل؟
- طلبات مثل ماذا يعني؟
- ربما ستطلب منا أن نذهب إلى الصلاة مثلا، لن أذهب إلا عندما أشعر أني بحاجة للذهاب، أحب أن أصلي بخشوع وحدي، إيماني مختلف، أسلوبي مغاير وعلاقتي مع الله علاقة متميزة ومقتنعة تماما بما قاله

نيتشه أيضا: (أشعر كلما تعاملت مع رجل متدين بحاجة إلى أن أغسل يَدَيّ) ثم طريقة إيماني تختلف عن هؤلاء الذين يدّعون الإيمان ويظهرونه علانية.

- سأذهب أنا معها إن حصل وطلبت ذلك ولن نصحبكِ معنا، ليس هو هدفها ولم تطالبنا بذلك، استرحتِ الآن، ثم ليست رجلا متدينا يجب أن تغسلي يديك منها بل يديها أنظف من النظافة ألا ترين الفرق؟
- نعم هناك فرق كبير فعلا!
- ثم، لا تتحدثي كثيرا أمامها في الأدب والفلسفة والأساطير والسياسة، حتى لا ننكشف!
- وإن تحدثت بالدين سأتفاعل معها جيدا فلا تخف، أنا قارئة جيدة وأعرف الكثير، ثم لا تحاول أن تجردني من إيماني.
- أنتِ أكبر مؤمنة رأيتها في حياتي لكنكِ لا تظهرين ذلك!
- لأني أؤمن أن مسألة الإيمان هي مسألة خاصة!
- (مش قلنا بدون فلسفة ولا اشتقت لسوط زوجك هناك)؟
- سأصمت لأن السوط ما يزال معلّم على ظهري، ليتها تساعدنا بمسألة البقاء هنا، نحن هنا منذ أيام قليلة وقد لاحظنا الفرق بالتعامل، فلتحيا الإنسانية!

وعندما استقررنا وعايشنا فئات مختلفة من الناس أدركنا كم فاتنا من المعرفة، لقد اكتشفنا الآخر المختلف عنا وتدربنا على تقبله واحترامه، الآخر أكثر إنسانية منا، ورأينا كيف أن عظمة الله تكمن داخل قلوب رحيمة، العظمة أن نساعد المحتاج أوقات الشدّة وأن نرأف بالمعذبين وأن نرضى بالمختلف عنا دون تردد وألا نحس أننا غرباء، يا لهذا الدفء!

- كل الجمال يكمن فيكِ أيتها الأم! قالت لي الراهبة
- أشكرك كلك ذوق!
- (بيلي) ابننا!

وقد اخترت اسمك ليكون (بيلي) عوضا عن باسم، سريعا تنصلت منه وتنكرت له، اسمك يعذبك وتريد أن تستبدله باسم جديد وفعلت.

- ابنكم، ليكن... لكني لم أفهم من تكونون!
- ستفهمين لاحقا.
- من تكونون؟
- نحن هنا في خدمتك أنت وبيلي.

سألتها ولم تجبني، لكن عندما ترجلت من مركبتها أدركُت أننا سنكون بخير وأن أستراليا ستكون وطننا الثاني الذي فتح لنا ذراعيه مرحبا بنا.

لقد حملت مركبتها لوحة رقمها ٧٨٨ ، لم أعر للرقم أي انتباه حينها لكن الآن بعد تكراره بدأت أشعر أن هذا الرمز الهام ليس مجرد صدفة لأنه يوحي لشيء ما سيحصل، هذا ما أشعر به!

***

كيف لك أن تراني وتتمنع من فتح الباب لي لكي أدخل إليك، أردت أن أحتويك وأضمك إلى قلبي وأن أستنشق من بعض رائحتك وأقول لك (اشتقت لكَ...نعم اشتقت لكَ)، لماذا تركتني واقفة في الخارج بهذا الشكل كثيرا وكيف تهربت من النور الذي سلطته عليك، نعم أنتَ، هو أنتَ بكلك وجسدكَ وضحكتك وسخريتكَ من الحياة، تلك الحركات أعرفها تماما، لا تقل لم ترني ولست أنا من كان هناك، هو أنت حتى لو سخرت مني، وضحكت ضحكتك الشيطانية تلك التي أفهمها جيدا، لقد سرتَ سريعا داخل رواق بيتك لكي تقهرني عذابا، نعم أنت، لكي تقول لي (ها أنا هنا، ها ها، لن أفتح لكِ، لن أفتح)، غبت قليلا، دخلت إلى غرفتك ثم عدت، سرت أمامي مجددا، سخرت مني مجددا، وقلت لي (ها أنا هنا، ها ها، لن أفتح لكِ، لن أفتح)، ثم غبت مجددا، نور المصباح الذي بيدي لم يقلق عينيك ولم يكشف دواخلهما، يدي تبحث عنك والمصباح نفذ صبره، ماذا حصل لعينيك؟ لكني رأيتكَ تسير أمامي حتى تلاشيت تماما، لا أراك، تولي ظهرك لي فتختفي فجأة، غبتَ عن ناظريّ، أصررتُ النظر إلى داخل بيتك فالزجاج مكشوف والرؤيا واضحة جدا، لماذا تغلق على نفسك، افتح لي الباب فقد أرهقني الانتظار!

وأكملت متابعتك من الخارج من خلف السّور والمصباح بيدي والسّلم يرتجف تحتي، ورأيت الصحن الذي أكلت فيه، أبقيته على الطاولة

وأسندت الملقط على طرفه، هي ذات العادة أن تلتقط الأشياء بالملقط لا بيديكَ، ودربتني على هذه العادة أيضا لكني كنت أحيانا أتسرق الأشياء والتقطها بيدي دون أن تدري، يا لحظي السيء ذاك اليوم، لقد التقطتَ مما جهزته لك من طعام شهيّ، رأيتني متلبسة دون أن أدري بذلك، حينها حرّمت علي التذوق من صحنك لقمة، من حينها لم نتشارك الطبق!

أين اختفيت، هل عدت إلى سريرك وتركتني هكذا أنتظر خطواتك من أعلى السلّم، أنا خلف سور حديقتك يا بني، عد إليّ، أنتظرك لكي تفتح لي الباب، افتح لي الباب أرجوك، هل تريد أن أكسر الجرس لكي تفتح، لقد كسرته فعلا وانتظرتك حتى قبل المغيب وحتى اسوداد الليل لكي تظهر ولم تظهر، هل ذهبت للنوم داخل سريرك وتركتني حائرة هكذا؟

الجارة هزأت مني، أشعر بذلك حقا، هزتني بقوة لكي تنزلني من أعلى السلم لكني رفضت النزول، هذه المرة تيقنت جدا أنك موجود وأنك سوف تظهر مجددا، اظهر، تعال، اسخر مني، أسمعني قهقهاتك، تلك التي تسخر فيها مني دائما، نعم أنا أم بلهاء غبية، كما كنت تقول لي أحيانا، هل تذكر عندما هززتني من كتفيّ في يوم ما وقلت لي:

- ماما استفيقي والدي ما زال على علاقة حميمة معها، أنه يغرر بكِ، لقد أخبرك بأنه قطع صلته بها لكنه كاذب، استفيقي من غفوتكِ، لماذا

تثقين به، هو ليس موضع ثقة أبدا، صدقيني يا أماه، ليس جديرا بقلب مثل قلبك؟

- لا يا بني، والدك يحبني ويحبنا جميعا ولا يمكنه أن يتخلى عنا، هو لن يتخلى عنا!

أجبتك حينها بإصرار فظهرت على محياك نظرة شفقة، لقد بدأت تشفق عليّ، أنا القوية التي دربتك على القوة أصبحت ضعيفة مثل نملة تحتار في سيرها أمامك، نملة تشتاق لذرة خبز تقتات عليها فتضل الطريق الذي سيوصلها لهذه الذرة، أصبحت أمامك نملة تحبو على بطنها، كسرتني نظراتكَ، نظرات الشفقة إياها لكي أصدق ما تقوله لي، لكن قلبي لم يعرف سوى الحب فهذا عيبي.

- أمّي أرجوك استفيقي من غفوتكِ، إنه يخونك مع امرأة أخرى!
- لا تقل هذا الكلام، هو يحبني وأنا أعشقه، لقد ارتبطنا بعد قصة عشق عنيفة، نحن مثال العشاق، طبعا لن يفعلها!
- تحبينه أكثر من الله؟
- كيف لكَ أن تقول هذا، أي مقياس هذا؟
- لأنه يكرهكِ كما يكره الله!
- يكرهني؟

- نعم، لماذا إذن يترككِ تنتظرين عودته، من يحب لا يغيب، هو يغيب عن البيت قاصدا متقصدا لكي يلوعكِ وتبقين بانتظاره دائما!
- لكنه العمل (.....)
- كلا، لا تكملي، يدّعي انشغاله في العمل، إنها حجّة لكي يبقى معها، استفيقي من غفوتكِ يا أماه، يا أغلى إنسان على الأرض لا تكوني ساذجة أرجوك، يجب أن تتدربي على الحزم.
- الحزم؟
- نعم، لا تكوني طيبة القلب، يجب أن تتدربي كيف تكوني حازمة حينها والدي لن يتركنا مجددا، يجب أن يبقى معنا، هو نسينا تماما، يجب أن يتذكر أنه أب لأسرة تحبة وزوجة جميلة تنتظره.
- سيعود!
- نعم سيعود، حتى تنتهي أنتِ من شطب الأيام من على سجل الأيام!
- هل تراقبني؟
- بل أحصي معك الأيام التي تمرّ بينما هو غائب، جميعنا نتقلب اشتياقا لهُ، أنا بأمس الحاجة له لكني لن أخبره بذلكَ لأني عندما أكبر وعندما أتغلب على المرض سأكون رجلا أقوى منه، رغم المرض الذي ألّم بي سأكون أقوى منه، أعدك ولن أعامل زوجتي كما يعاملك هو، لقد خذلنا!
- سيعود...لن يتأخر!

- كما أخبرتكِ، هو معها الآن وسيعود لكي يقضي بعض الأيام معنا حتى يؤدي دوره جيدا مثل أب مثالي وبعد أيام سيتركنا مجددا ويعود إليها، لن يبقى أسبوعًا واحدًا هنا، أشارطك!
- (.....).
- لا تعوّدي نفسك على الصمت أماه!

***

تتالت السنوات وبدأت تتساقط أوراق الشجرة وكبرت الحكاية، هذه الشجرة العملاقة تتقزم، ورقة تلو الأخرى، لم تشخ الشجرة بعد لكن الأمل في نفخ روح الحياة فيها بدأ ينبض وبدأت السعادة التي تمتعنا فيها سابقا بالتناقص، فلا فائدة من عمل أي شيء، حتى أعظم التعاويذ والرقى لن تعيد السعادة إلى قلوبنا مجددا، لقد تسلل اليأس وبدأت لجج الحقيقة تدوي داخل قلوب ضعيفة، انتصبت النوائب أمامي مثل مارد قاطع السيف، حقيقتان اثنتان، أو لنقل حكايتين اثنتين تتضوع منهما رائحة النكبات، حكاية أولى مؤكدة وهي أنك مريض جدا ويجب الاعتناء بك بالمثابرة والمواظبة حتى يقتنصك الشفاء بعيدا عن الموت، وطريق الشفاء طويل جدا وغير مؤكد، والحكاية الثانية، الضياع، وهي أن والدك قد تغيّر كثيرا وبدأ يبحث له عن منفذ يساعده في التهرب من مسؤولياته الأبوية، لقد ضاع منا، بل أضاع نفسه وقطع بنا المسافات عندما بدأ يبحث عن نفسه في مكان آخر، ابتعد كثيرا ونسي طريق العودة، رقص على قلوبنا المدماة وبقيت وحيدا تصارع الحياة بدون أب يأخذ بيدك، هذا الأب الذي ملّ بسرعة واستسلم من بداية الطريق.

في يوم ما وضع أمامك على المنضدة مبلغا كبيرا من المال وذلك أمام أعيننا جميعا بمقدار عشرة آلاف دولار، أجلسك أمامها وخيّرك قائلا:

- جميع هذه النقود لكَ!
- لماذا تمنحني هذه النقود؟ سألته مندهشا؟
- وسوف أعطيك المزيد إزاء شرط واحد فقط! قال
- ما هو هذا الشرط يا أبي؟
- أن تكره والدتكَ، أن تكرهها، ماذا تختار، هي أم النقود؟
- لا أريد نقودك ولا جميع ما تملكه، لا تعتقد لأني مريض لا أستطيع جنيّ أضعاف ما تجنيه أنتَ، أنا رجل وأستطيع أن أجني أكثر منكَ، أما والدتي فلن أكرهها مهما فعلت، مهما فعلتَ سأبقى أحبها أكثر منكَ!

وبكيتَ أمامه، أحسست بالقهر، وقهرني أنا أيضا، لم يجد اللعبة ففشل، بدأ ينافسنا على قضايا كبيرة وتافهة وعن كل شيء يفسد حياتنا، المهم هو اللعب على أعصابنا لإثارتها ومحاولة زعزعة الكيان داخلنا، لعب معنا لعبة تسمى لعبة الحب مقابل الكراهية، البغض مقابل التسامح، الخير مقابل الشرّ، ولعبة الكذب مدعمّة بالاحتيال والمراوغة، وألعاب أخرى كثيرة شيطانية... حسبي من لعبة الجريمة والتهرب من العقاب! كل ذلك أدى بنا لأن نفقد ثقتنا به تماما.

قوبلنا بالإهمال وتغاضى قاصدا من الاهتمام بكم وبدأ يعدّ العدّة لكي ينسف كل ما بنيته تعويضا عن نواقصه عندما بدأ يشعر بالعجز، لم يعجبه أن أصبح أقوى منه وأن أعبيء الفراغات أثناء غياباته المتكررة

والتي طالت، وأن ألبي متطلبات الأمومة الحقة وأيضا متطلبات الأبوة الغائبة حقا، أحس بالغيرة لأنكم التصقتكم بي أكثر بالرغم أنه (بداية وحسب ادعائه) لم يقصر من واجباتكم، فهل يمكن للقمة أن تحلّ مكان الرأفة والعطف والرحمة وصلة القربى، لم يفهم أنكم لا تطالبونه بأي شيء سوى أن يكون أبا متواجدا معكم بكيانه وإخلاصه ووفائه، لكنه أمضى نصف عمره مُجازا، لقد طالت أجازته الأبوية والنصف الآخر يمضيه الآن وهو يبحث عن زلات لنا ينشرها للآخرين المتعطشين لقصة تزيل عنهم بعض الملل.

لا يهمني التحدث عنه ويحزنني أني لا أستطيع تخطيه وكم تمنيت إنكار وجوده في هذا المؤلف بالذات، لكنه هنا سيحضر إن شئت ذلك أم أبيت، رغم أني أحاول جاهدة إبعاد وجوده في الكثير من الأحداث التي لن أدونها قاصدة، أحداث قررت نسيانها.

ولأن أمثاله كثيرون، فهم أكثر من (اللّطم على الخدود) سيأتي النص على ذكره لكي يكون عبرة للآخرين، لعل النساء اللواتي يمررن بذات المحنة ينتفضن ويقفن ويقلن (كفى) ولعل الرجل العربي يستيقظ من كبوته فينقى المجتمع المنغلق على نفسه من قضية (سي السيّد) هذه، لأننا سئمنا من هذه الخرافة المملة.

انتفض أيها المجتمع، وما زلت أتساءل، كيف يمكن لذكر جاهل غبي أن يقود عائلة مكونة من أرواح وعقول، ونتساءل جميعا، لماذا الجهل منتشر في الأمم حتى في زمن (النت والآيبد)، أتمنى أن نعيد حساباتنا جيدا وأن نعيد تأهيل الذكر أولا قبل فوات الأوان، هذا إن لم يكن قد فات الأوان، ومنح الفرصة للأم لأنها هي التي تمضي مع أبنائها جلّ الوقت، لنمنحها الثقة ولتخرج إلى العلم لكي تؤهل جيلا آخر أكثر ثقافة!

***

ولم أجد من يدفئ أضلعي المعراة حزنا وكمدا سوى صفحات الكتابة، عدت إلى الكتابة سرّا وأخفيت ما كتبته تحت فرشة السرير وكلما تمددت فوقها أحسست بالاطمئنان، طالبت بسلامة كل كلمة أتنفسها، وخلال النهار وقبل عودته من العمل، أجلستكم في الشرفة وقرأت على مسامعكم بعض الأبيات من القصائد التي نظمتها، اغترفت تصفيقكم اغترافا، فقد استمددت منه قوتي وهو الذي أعاد لي الثقة بالنفس، اعترفت بذوقكم فبراءة الأطفال هي الأكثر صدقا، وعندما خرجت بروايتي الأولى التي دونتها بخط اليد حينها، (الحلم المزدوج)، والتي أفرجت عني الكثير من الهموم، أحسست أني موجودة وغير مغيبة، فالكتابة أنستني الحبوب المهدئة والتي تناولتها بشكل يومي، أذكر جيدا عندما عادت شقيقتك سوزان في إجازتها الأسبوعية من الجامعة، وعندما رأتني منهمكة في الكتابة سعيدة بما تنتجه يداي، سألتني:

- ماما هل تناولتِ الحبوب اليوم؟
- كلا لقد نسيت تناولها!
- منذ متى لم تتناوليها؟
- منذ عشرة أيام أو أكثر، لا أذكر!

- إذن لن تعودي إليها بعد الآن لأنك لست بحاجة لها، أرى أنك استعضتها بالكتابة، أكتبي وسوف ألقي بها في سلة المهملات أمامك، إياك وأن تتوقفي أبدا عن الكتابة فهي دواؤك!

أعجبت بمشهد الحبوب المهدئة وهي تسقط داخل سلّة المهملات، لم أتخيّل مقدار سعادتي عندما تعافيت منها ولم أعد بحاجة لها، لكنها بقيت في متناول اليد، وضعها أمامي لكي أشتاق لها، واستمر في أسلوب التعنيف لكي أشعر بالاحتياج لها: لكني تحديتها ولم أتناولها بعد ذلك أبدا.

وبعد توسلات جمّة لكي أحظى منه بالموافقة على طباعة الرواية ولأنها سبب تفاؤلي في الحياة رفض بشدّة، لكن رغم كل التوسلات خرجت إلى النور، ومن بعد صدورها سنة ٢٠٠٤ أمسكتَ بيدي، جررتني وأجلستني أمام جهاز الحاسوب وقلت لي:

- ماما اجلسي هنا!
- أتجلسني أمام الحاسوب؟
- هذا الجهاز لا يخيف، سوف أدربك على كيفية استعماله وعاجلا ستتركين القلم!
- القلم حياتي كلها سأموت إن حصل وتركته!

- لقد أفرغت جميع الأقلام الموجودة في البيت وقد بدأ القلم يشتكي منكِ، أسمعه وهو يبكي، هذا (الوورد) لكِ وحدك وسوف تستعملينه عوضا منه، تدربي عليه وإن صادفتكِ أي مشكلة سوف أحلّها لكِ!
- إذن يمكنني كتابة روايتي الجديدة على الحاسوب!
- يوجد جديد إذن، طبعا يمكنكِ جدا ويمكنكِ إخفاء ما كتبته هنا بالداخل دون أن يدري بها أحد بعد حفظها!
- كلا بل سوف أدوّن (تراتيل عزاء البحر) أمامه وعلانية، لقد تعبت من سرقة اللحظات القليلة المتوفرة، يجب أن أخصص لنفسي الوقت الكافي لكي أفعل ذلك، لا أستطيع تحمل ما يعتمل داخلي دون أن أخرجه على الورق، سوف أختنق إن لم أفعل.

لم أدفن الصّبر داخلي فقط بل عايشته وشربت منه حتى المرّ، نشيج قلبي المكسور يفتر ألما، لطمتني أمواج الحيرة ونهش الغضب دواخلي، لكن رغم كل شيء لم أدعكم تفقدون دفء الأمومة، لقد تعرّت جدران بيتنا وكساها البرد لذلك أمقت البيوت الكبيرة خاصة تلك التي تذكرني بالماضي وقد انهار سقف الأمان على رؤوسنا، السقوف العالية تخيفني، لا أرتاح لها!

وبدأنا نبحث عن الانتماء الذي افتقدنا له، لمن ننتمي، لم نعرف، من نكون، من هم أهلنا، من نكون بالنسبة للآخرين، لم نعرف، ثم حامينا

يتخلى عنا فأصبحنا عرضة لحاملي السكاكين، أصبحنا من هؤلاء المضمنين بالمثل الشعبي القائل (عندما تسقط الذبيحة تكثر سكاكينها)، وعندما يتخلى عنا ربّ العائلة نصبح عراة تماما، أين هي عائلتنا، (العزوة) التي يتفاخرون بها، لو جئت على ذكر أحداث كثيرة حصلت وبدأت أتحدث عن الدور الأساسي الذي لعبوه ضدنا في مرحلة ما وماذا فعلوا، وكيف استغلوا المواقف لغضب مني كثيرون، لكني أقول لهم، أنا أتحدث بصيغة الجمع ولا أطلق الأحكام على الجميع ولا أقوم بالتعميم، فكل واحد يعلم قدر نفسه وما اقترفه من ذنوب نحونا نحن العزلاء، و(كل واحد على رأسه بطحة بيحسس عليها)، ولم أنس من وقف جانبي ودعمني لكي أتخلص من مشاكلي بشكل مُرضي، والذين نبّهوني ونصحوني بما وجب علي فعله قبل فوات الأوان، لكن، ذهبت نصائحهم جميعها هباء لأن طاحونة الشرّ كانت أسرع، ولن آتي على ذكر آخرين كثيرين حاولوا التدخل بهدف إعادة الأمور إلى نصابها، حتى لو فشلوا فهم مشكورون، لكني لن أنسى ما وبخني به أحد أعمدة العائلة عندما زارني في بيتي وهو غاضب، حيث قال محتدا رافضا فكرة انتفاضي ضد التعنيف:

- (كل النسوان بياكلوا قتل وبيسكتوا، ليش ما بتسكتي أنتِ كمان)؟

- ربما لا أشبه تلك النسوة التي تتحدث عنها ولم أتعود على ثقافة العنف، لي كرامتي ولن أوافق على هدرها! أجبته بكل أدب
- إذن سأعلن عليك الحظر وأول من سيتجاهلك هم أبنائي، جميعنا سوف نتجاهل وجودك حتى تقبلي بالوضع الراهن!
- كيف تريدني أن أقبل بالوضع الراهن وأوافق عليه وهو أن (أفطر وأتغذى وأتعشى على قتلة) بدون أدنى سبب، وذلك لأني أطالب بحق من حقوقي ولأني أريد أن أحافظ على حقوق أبنائي أيضا، هل تريدني أن أقبل بقوانين الغاب، لسن في غابة، اعذرني، لا أوافق، ثم هذه البلاد فيها قانون ولن أوافق أبدا على هذه الفوضى؟
- لنرى ماذا سيفعل لك القانون!
- لست في حالة مباراة معه، وجميعنا خاسرون.
- إن لم توافقي على الرضوخ ستقابلين بالتجاهل التام، لقد قلت ما عندي، افسحوا لي الطريق لأخرج من هنا.
- مع السلامة، مع ألف سلامة يا مختار العائلة الكريمة. أجابته شقيقتك رورو
- هل تطردني هذه الصبية من البيت؟
- كلا، العفو منكَ، أنت الذي تساعدهم على طردنا من بيتنا، نحن لا نطرد أحدا من بيتنا، حتى لو كنت تساهم معهم الاستمرار بالخطأ. أجابته

- أنتم كلكم خطأ، (وكأنكِ أوّل امرأة بتاكل قتل وجاي عنا تغيري قوانين عمرها سنين، زيحي هيك عاد)!
- وتريدنا أن نفرش لك الأرض ورودا، مع ألف سلامة! أجابته رورو

طز...طز... أقولها وأكررها لتلك الفترة البائسة!

وأعود وأتساءل من جديد، من قام بحمايتنا أثناء لحظات الشدّة التي مررنا بها، لقد تركونا واتحدوا مع الخُطاء، كل ما فكروا به هو أن يحموا ابنهم وشجعونه على الاستمرار في الخطأ، وهو الذي ساعد وسمح بتدخل الآخرين في حياتنا، بل بالأحرى، هم جميعا لم يستطيعوا تحدّي جبروته، لقد حاول البعض تقويم العلاقة المعطوبة وتلييس الشرخ الذي حصل بيننا لكنهم فشلوا، وعندما طالت الحكاية سئموا منا، فلكل واحد مشاكله الخاصة، واستمرت النزاعات، لم يتغير شيء بل كبرت المشكلة وتحجمت، حتى قام هو بتحريضهم ضدنا، وعندما اهتم بعض المقربين جدا بموضوعنا سعيا على تجريدنا من ممتلكاتنا، وحصلا عليها، نزعا مني كل ما أملك واغتصبا تعب العمر وجريّ السنين، ليشبعوا، ولن يشبعوا، طز، رفست الأرض وتركتها لهم وغادرت مثل فرس شامخة، لقد خرجت منهم متعافية يلفني الشموخ والكبرياء، لقد خرجت بكم وهذا أهم شيء.

وكما قيل في الأمثال الشعبية (الدجاجة لا تشلح طيزها)؟ هكذا حصل، لم يشلحوه، فهو أقرب إليهم مني، أنا الغريبة التي أتت من المدينة وبقيت غريبة دائما، حتى لو مكثت أكثر من ربع قرن بينهم أبقى غريبة، أشعروني في كل مناسبة بأني لا أنتمي إليهم، مع أني أحببت الحياة معهم واعتبرت نفسي جزءا لا يتجزأ منهم.

لقد شلحونا وخططوا أن يرموا بنا في الشارع، أم وحيدة، صبي مريض وأربع بنات، وأجهضونا من ذاكرتهم بسرعة، أين كانوا عندما كنا بأمس الحاجة لهم، كم هي خيبتنا كبيرة لأننا أحببناهم ووثقنا بهم، لهذا السبب طلبنا منهم المساعدة، لكنهم تخلوا عنا لأنهم أدركوا جيدا أنه لا فائدة من التدخل.

لا أحد يطعم لقمته لأحد، لكنه سرقها منا، لم نبحث عن اللقمات بل هي أكثر مما كنا نملكه، ولم ننتظر من يضع الطبق أمام فتحة دارنا آخر النهار، ولم نكن من فئة المتسولين، فقد أعطينا بلا حدود، وما أخِذ منا بلا حدود أيضا، تسولنا الحب فقط، الكرامة والاحترام وأقل ما طلبنا به هو أن نحظى بالاستقرار في بيتنا وأن ننشد الأمان دون وعيد ولا تهديد، وعندما لم نجد مكان نبني فيه أحلامنا ونقيم فيه مسلات لأدمعنا، على الأقل لنبكي جهارة، كبتنا أوجاعنا دواخلنا لسنوات طويلة، وعندما لم نعد نحتمل الضربات التي انهالت على

رؤوسنا انتفضنا وبدأنا نطالب بأبسط الحقوق، والساكت على الحق شيطان أخرس، جميعهم سكتوا، وكثيرون اتخذوا موقف المتفرج، لقد استطاع أن يسكتهم، وعندما قرروا التفاوض معي سقطت أقنعتهم فظهرت وجوههم الحقيقية علانية أمامي، يا للجشع!

بما أني أصبحت طرفا غريبا الآن سأستمر في الكلام...

وعندما بدأت أطالب بالعدالة بعد فترة سكوت طويلة أصبحت عدوتهم اللدود، تحملت وتحملنا جميعنا كلماتهم التي نزلت على رؤوسنا مثل الهراوات، نبذونا لأننا طالبنا بحقوقنا، كرهونا لأننا خشينا على أنفسنا من أن نرتمى في الشارع، هو زوّر وهدّد وارتكب الكثير من الحماقات لكي نشعر بالملل، ثم نخشى ونسكت ونعود إليه خاضعين متوسلين نطالبه السماح، لكننا لم نطلب ولن، وعندما ملّوا منا، هددونا بالطرد من بيوتنا، الأخ الأكبر(رؤوف) الذي أصبح بين يدي الله الآن، صرخ في وجهنا قائلا:

- (يا بنت الـ....ما إلك شيء عنا، روحي عند عائلتك في أمريكا، ما في شيء إلك هنا، معاك حتى الخامسة مساء اليوم، إن لم تخرجي من البيت مع أبنائك سنخرجك نحن منه بقوة السلاح)!
- جئت لكي أحتمي بكَ يا كبير، يا حامي أسرتنا وعرضنا وها أنت تخرجنا من دارنا!

- لا نعرفك وكما أسلفت وقلت لكِ، أخرجي من البيت قبل أن نأتي ونخرجكِ منه نحن.
- أين أذهب بأبنائي؟
- اذهبي معهم إلى الجحيم!
- لكن ...
- هيا إلى الجحيم...

لم أستطع أن أقول شيئا، جلست ساكنة وكل كلي يرتعد، لقد نضبت جميع الكلمات مني!

هل تذكر يا باسم ما فعله بكَ حينها عندما اعتدى عليكَ وحاولت مقاومته وأنت المريض بكل ما تملكه من قوة، ثم أخرجك من مكتبه إلى الشارع عنوة أمام جميع الموظفين الذين تحلقوا حولنا متخذين منبر المتفرج فقط، وكانت ابنته الكبرى (وفية) شاهدة على كل ما يجري في الداخل ولم تتورع بالتدخل، تلك التي بدأت تطالب بحقك بعد وفاتك مباشرة منا نحن وتتهمنا بأشياء كثيرة، لماذا أصابها الخرس حينها ولم تدافع عنك عندما تعرضت للعنف أمام ناظريها، بينما بقيت أنا داخل السيارة أنتظرك، لم أقو على مواجهته لأني أحسست بالعجز حينها، بلعت لساني وأخذت أتأمل كل هذا الجبروت الذي مثل أمامي بحركاته

البطولية المسروقة من فيلم ما، رغم كل جبروته بدا مزيفا منافقا، هذا (الزعيم) أتقن دوره جيدا!

حاصرني وعيده المبالغ فيه لذلك لم أنس الحادثة، علمت حينها أننا دخلنا بؤرة الخطر الأكيد بفقداننا الرجل الأهم في العائلة، هذا الذي انقاد الجميع إليه بعيون مغمضة لم يخفني أبدا ولم أذعن له أبدا، مع أني أحيانا كنت لأعجب بشخصيته الفريدة كروائية حيث يمكن لشخصيته أن تكون مادة خصبة للكتابة، لكن رغم بعض زلاته الصبيانية حمل صفات جميلة، فهو مثل الجوهرة النفيسة بالنسبة لجميع من أحبه، لأنه ملك الكثير من الفرائد التي لا يمكنها أن تكون شائعة، أهمها أنه جعل من أسرته أهم أولوياته، وثمّ، ومن بعدهم ليحل الطوفان، ومن جهة أخرى يصبح كريما فجأة لكل من يشعره بالولاء والمحبة والإخلاص، لكنه عرف كيف يقتنص الحقيقة بذكاء من وجوه ملونة وماكرة، كما علم كيف يحصل على القيادة فوقف الجميع له احتراما، لنقل خوفا، إن حصل ووصل متأخرا في مجلس عائلي ما فيغالون في الترحيب به ويبتسمون له نفاقا ويقفون جميعا احتراما لحضوره، إلا أنا، أبقى جالسة لا يحركني شيء، إحداهن ألزمتني بالوقوف في إحدى المناسبات العائلية قائلة:

- (وقفي رؤوف وصل)؟

- (وشو يعني ومن يكون)، أيكون الملك رعمسيس وقد خرج من التاريخ مترجلا نحونا؟
- متمردة أنتِ، (والله راح تأكلها على دماغك في يوم ما ومن رؤوف نفسه)! وضحكت في سرّها هي أيضا، لأنها عرفت جيدا ما يجري وآثرت أن تتخذ موقف الحياد تخوفا. هذه الماكرة تتمتع بالحاسة السادسة.

لقد كرهت أسلوب الزعامات وانتقدته، رؤوف أكثر الذين يعلمون أنه لنا الحق بما نطالب به، لكننا لم نكن لنحسب من أولوياته بسبب مشاغله الكثيرة، ناهيك عن ذلك، إن حصل وقام بمساعدتنا ربما ستكون هذه الخطوة فاتحة لبؤرة مجهولة ستتسع وتكبر إن حدث وعلم بها الآخرون لذلك حاول أن يقمعني بأسلوبه القاسي وأعطى لنفسه الحق باتخاذ القرارات المصيرية نيابة عن الجميع، متآزرا مع والدك.

هو مثال الرجل السلطوي القيادي الذي أظهر عصبيته جهارة مما أخاف الجميع حوله، فمن يتجرأ لتحديه؟ فكيف لامرأة (غريبة) ووحيدة مثلي أن تقف أمامه متحدية، وتحديته...لكن رغم كل ما حدث ورغم تجاهله لنا لم نكرهه، لو وضع الأمور في نصابها في حينه، ويستطيع، لكنه رفض أن يفعل، لم يقف موقف العادل، لو كان

عادلا، لم يكن، لو وضع النقاط على الحروف، لو، لاختصر الكثير من المعاناة، لم يكن رؤوفا، لم يفعل أبدا واستمرت المعاناة!

***

خرجتُ من حياتهم عندما قررت أنا متى أخرج منها وليس كما أمرني به الأخ الأكبر، لم يخفني سلاحهم ولا نفوذهم ولا جبروتهم بل وخططت وأنا بينهم كيف أعيد لنفسي ولكم كرامتكم، لقد أهِنا بشكل فظيع لأننا ملكنا حرية القرار، لأننا لم نكن مجرد ببغاوات ولم نكن مداحي السلطان ولأننا كرهنا الديكتاتوريات ولم نخضع لأحد، ولأنني طالبتهم بحقوقي بدأوا يخشون مني.

أخذ كل شيء وجردني من مالي وما أملكه، لكنه لم يستطع تجريدي من جرأتي، (صحتين، لو يشبع)، لم يعد الأمر يهمني الآن، لقد تركت له (الجمل بما حمل) وخرجت من الضيعة مرفوعة الرأس، وأذكر ذلك النهار جيدا، وكيف سافرنا معا إلى المطار، كانت معي أختك الصغيرة مرلين، لم نتحدث طيلة الطريق من الضيعة الواقعة شمال البلاد حتى وصلنا المطار، طلبت منه أن نحتسي القهوة في مقهى داخل المطار، وافق، وفعلنا، قلت له:

- لدي رغبة ملحة بأن نحتسي القهوة معا هنا فما هو رأيك؟
- لنفعل وهنا، هيا، ولاحقا سنشربها معا في أستراليا!
- القهوة في أرض محايدة لذيذة جدا! قلت له
- أرض محايدة، أنتِ مضحكة فعلا! أجاب بسخرية

- ألا ترى أننا نجلس في مقهى داخل مطار يقع في أرض محايدة وفي مكان قريب من السماء، والسماء ليست ملكا لأحد؟ أجبته بتراخٍ
- كم أنتِ مضحكة، يا لسخافتكِ! أجاب بلؤم
- تستهزئ بي، ما تزال كما أنتَ إذن وحتى وأنا مسافرة تستهزئ بي، ألا يهمك الفراق، ألن تشتاق لي، بعد لحظات قليلة سنفترق، سوف أتركك وأصعد إلى السماء!
- لو تصعدين فعلا! أجاب دون اكتراث
- سوف أصعد وربما لن أعود، فهل يهمك الأمر إن عدتُ؟ بثثت له طُعم السؤال
- (شو يعني ... الله معك، مع ألف...)! أحسست أنه سعيد بفراقي، أجبته:
- لن تتغير أبدا، ثم هذا الأسلوب يغيظني! أجبته بفضول منتظرة منه الجواب
- لأنه يغيظك اتبعه قاصدا! أجاب بوقاحة
- ليسامحك الله! أجبته والغصة تخترق صدري

ولأني قررت في دواخلي أن يكون آخر لقاء يتمّ بيننا طلبت منه أن نحتسي القهوة معا، على الأقل ليستكين خلدي بذكرى جميلة، تماسكت جيدا لكي لا يعلو ويغلو غضبي بسبب فظاظة أجوبته فيفسد علي الرحلة التي أنتظرتها طويلا، لحظتها تحديدا، تمنيت من

صميم قلبي أن يوفقني الله في البقاء حيث وجهتي وعدم العودة، لقد آن لي الأوان لأتخلص منه، فهو الجحيم، هو الرجل الوحيد في حياتي الذي كان حبيبا وأصبح عدوا، وقد خططت للتخلص منه ومن كل هذا العذاب بصمت وهدوء، وكذلك كنت حذرة جدا لأني خشيت إن حصل وأخفقت بإيجاد فرصة للخلاص منه ألا أعود مهزومة، لذلك تركت باب العودة مفتوحا لكي أسلكه وأدخله مجددا بطريقة ودية، وهو بدوره خطط أيضا كيف يتخلص مني ومن أعبائكم، لقد خطط برويّة وبهدوء لكي لا ينكشف على الآخرين، من هذا الجانب هو يحسبها جيدا دائما لكي أظهر أنا بمظهر المرأة العاصية التي تركت بيتها وزوجها.

وأذكر جيدا كيف أخرجتكم أيضا من البلاد لكي نبدأ حياة جديدة في مكان آخر يحترم وجودنا... ونجحنا!

حضنت الصغيرة مرلين بشدّة وقبلتها عدة قبلات حارقة وقلت لها في أذنها:

- هل تثقين بي؟
- طبعا ماما.
- اعلمي جيدا أنه لن أتركك أبدا وكوني واثقة جدا أنك ستلتحقين بي وستنضمين إليّ في أستراليا وقريبا جدا، إن كتب لي البقاء فيها لن أعود وستلحقون بي، وإن لم يكتب لي البقاء سأعود إليك، لكن حتى لو تأخر

لقاؤنا قليلا، وحتى آخر يوم في عمري لن أتخلى عنكِ، سأتحدث معكِ عبر الهاتف كل يوم، أحبك بحجم الكون كله.

وبعد فترة قصيرة من سفري، أُخبرت أنه بدأ يطالب بالمستحيل، وذلك عندما حصلتما على تأشيرة الدخول، وبدأتما باستعدادات السفر لكي تنضما إلي، اتصل بي قائلا:

- لن أرسلهما!
- لماذا تخلّ بالوعود؟
- لدي شرط!
- ما هو هذا الشرط؟
- سيوقعان ابنك باسم وابنتك سوزان على وثيقة تنازل عن البيت نيابة عنكِ، هذا هو شرطي قبل أن أقوم بالتوقيع على وثيقة خروج الصغيرة مرلين من البلاد، بما أنها ما تزال تحت السنّ القانوني، وتدركين جيدا أنه يمكنني الاعتراض!
- لم يكن هذا اتفاقنا، أفهم من كلامك أنك لن تلحق بنا كما اتفقنا؟
- هذا كل ما عندي، وأكرر أمام الحاضرين هنا، لن أوقّع على إذن المغادرة وها هي المحامية ابنة أخي (رئيفة) جاهزة بالأوراق تنتظر موافقتكِ!

- أوافق، المهم هو صغيرتي، أريدها في حضني وأريد باسم أيضا، لأنه مريض وبحاجة لرعايتي، وحتى يحصل الآخرون على الفيزا سأكون قد رتبت لهم الأمور، ولتذهب إلى الجحيم جميع الجدران... لتذهب إلى الجحيم تلك الجدران التي أوقعت ما بيننا، احتفظ بالجدران وصفق لها كما يحلو لكَ، أضربها براحتكَ كما فعلت دائما... أتركها لكَ!

وهل تُنتسى القسوة؟ العيب لا يكمن فينا بل في الآخر، (والجحيم هم الآخرون)، وقال بول سارتر أيضا (الآخر بالنسبة لي، هو من سرق مني كينونتي، وهو أيضا مَنْ يدل على وجود كينونة أخرى هي كينونتي).

لن أحاسب المجتمع الذي ولدنا وترعرعنا فيه والذي برع بتلقيننا دروسا في الأخلاق وأملى علينا بشرائعه الصارمة، وهي السكوت على زلات البعل حتى لو كان مخطئا، والذي عوّدنا على الاختباء في العتمة إن أصبنا بالاغتمام والحزن ابتعادا من عيون الشامتين، وأن نرضى بظلمه وأن نضرس الهمّ من أجل إرضاء غروره، ودربنا على كيفية تجاهل الخطأ وبلع المرّ وكيف نسكت على الإهانات ولأن نحتمل مزاجية وسلطة الذكر القمعية والخضوع للمجتمع المنغلق على نفسه، وأن نتحسب من الآخرين حتى أصبح الانكسار قيمة تراثية بلهاء وثقافة متوارثة سخيفة، ولماذا يتوجب علينا أن نطبّق المقولات التافهة أمثال (غلب وسترة ولا تطلع برا وتفضح)، (ظل زلمة ولا ظل حيطة)، وأن نرضى بالذّل لكي

يقال عنا نحن النسوة، (والله فلانه ساكتة وصابرة، والله إنها منيحة، والله هي بنت حلال)، لننصب لهن التماثيل في ساحة الضيعة إذا!

وعندما تعبنا من العتمة التي فرضوها علينا قررنا كسر القيود والخروج إلى النور، تكررت محاولات الخروج من الضيعة وباءت كلها بالفشل، بحثنا دائما عمن يرأف بنا، جميعهم أشاحوا بوجوههم عنا بعد أن عوملنا معاملة الغرباء، فمن باعنا ليس منا ولم نعد منه، وفي محاولة ما ضمن محاولات عديدة حيث حاولنا الهرب بأرواحنا إلى شاطئ الأمان، عندما كثرت البنادق من حولنا وأحِطنا بالخوف مجددا، خائبين عدنا وحصلت هذه الحكاية.

***

عندما قررنا كسر القيود وفشلنا بدأنا بتهشيم الأطباق عوضا، هل تذكر يا بني ماذا فعلنا؟ سأذكرك:

سنة أخرى مرّت، جهزت المائدة لاستقبال السنة الجديدة، سنة أخرى تضاف إلى مدوّنة العذابات التي توالت وطالت، تغيّب ربّ العائلة، بل تقصّد الغياب، فكيف لنا من استقبال السنة بدونه؟ وعندما حضر رأى المائدة مليئة بما لذّ وطاب، أيقن أني ما زلت قوية وأني قادرة على التركيز تماما وعلى استقبال العيد رغم ما بذله من جهود كبيرة لإذلالي وقمعي ومحاولة الحدّ من براعة تفكيري، شهد الفرحة داخل أعيننا فقرر نسفها، عرف تماما كيف يقوم بنسف كل شيء جميل فهو متمرس ومتدرب على ذلك، فمن دربه على ذلك وشجعه رجل أميّ بالكاد يعرف القراءة والكتابة، شقيقه الأصغر (رحيم)، هو أقرب الناس له، فكان له نعم التلميذ المطيع، علّمه كيف (يكسر شوكتنا)، نسي أننا أحبابه ولسنا أعداء له.

رفض البقاء معنا لكي نستقبل العيد معا، تركنا حانقا على لا شيء وذهب لكي يلتقي مع نفسه إلى منطقة (رأس الناقورة) ولكي يستقبل السنة معها، عشيقته، وذلك عبر الهاتف المحمول، هو يقضي لحظات جميلة رومانسية مع أمواج البحر ومعها، ونحن نحترق انتظارا لرب

العائلة لكي يأتي فنفصل عنا سنة سيئة مضت ونستعد لاستقبال عام جديد دون شوائب.

ولأنه تعوّد على تبني هذا التصرف المكرر، يعود إلينا مراوغا يوهمنا بعدم الرضى منا لكي نخضع له ونتقبل تصرفاته الشاذة، أسلوب لئيم مبتكر، ولأننا اعتدنا على إرضائه دائما، ولم يرضَ أبدا، ولأنه تعمّد على إذلالنا تحولت الفرحة إلى حزن عارم، أطفال، أنتم بحاجة ماسة لوالدكم يوم العيد، وهو يتغيب قاصدا لكي يقتنص هذه الفرحة من قلوبكم، وانتظرناه، لم يحضر، انتظرناه، تأخر كثيرا، فما كان منّي سوى أني حاولت تهدأتكم ومنعت منكم الاقتراب من المائدة والتقاط أي لقمه قبل وصوله، لكنه تأخر متعمدا، وبعد ساعات طويلة من الانتظار قمنا بلملمة الطعام من المائدة دون أن نتذوق منه لقمة، أتعبتني نظراتكم المجروحة ووجوهكم التعيسة وبدأت ألوم نفسي على الحالة المزرية التي آلت بنا حتى وصلت بنا الأمور إلى هذه الحالة دون أن ندري، وقفت حائرة أمام الموقف المقيت، لقد حاولت رتق التمزق وجسر الهوة، لكن التجويف أصبح ليكون عميقا ففشلت بعد محاولات عديدة التي باءت جميعها بالفشل، تألمت لأني كنت سببا بما غرزناه داخلكم، أنا وهو، من طعنات مؤلمة، تلك التي سببت لكم أنواعا شتى من حالات عدم اليقين والتشتت والانكسار الذي عانيتم منه، أعلم انكم كنتم تتساءلون (ماذا ستكون النهاية، هل سينفصلان، هل

سيقتلها، هل سيتصالحان، لينفصلا نريد أمنا)، لقد هدمنا أنا وهو العنفوان داخلكم؟ لم أقصد، سامحوني، اغفروا لي أبنائي، اغفروا لي إن كنت قد سببت لكم الإساءة عن غير قصد، لقد حاولت عدم إقحامكم بالأمور لكني لم أستطع لأن المشاكل استمرت فترة طويلة وكبرتم أنتم معها، لقد كنت أنا أكثر المعذبات وأنتم أكثر الخاسرين، لقد ضرستم الحصرم الذي أكلناه.

ذهبت إلى خزانة المطبخ حيث أخرجت كل ما فيها من أطباق غير مستعملة، ثم توجهت نحو الباب الخلفي فتحته وخرجت إلى الحديقة حيث السّور الخلفي من البيت، ألقيت أول طبق نحوه لكي ينكسر فيذهب عنا الشرّ، وصرخت عاليا (ابعد يا شيطان، ابعد يا شيطان، ابتعد أيّها الشيطان اللعين من بيتي)، خشيت من نظراتكم أولا، لكن ذهب عني الخوف عندما انضممتم إلى موكب التكسير فارتحت، معا، هشّمنا الأطباق ونحن نصرخ بأعلى ما نملك من عزيمة نطالب الشيطان الابتعاد والخروج من بيتنا، كم سعينا في إعادة الترابط العائلي إلينا، وكم توسلنا أن تعود المحبة ويسود الوئام فاتحا قلبه الواسع نحونا، وأن ننهم من الراحة والأمان مجددا، وفشلنا.

لقد خرجت الكلمات من عمق أعماقنا المحترقة، قذفنا الأطباق، طبق تلو الطبق، أذكر أن شقيقتك رورو رمت طبقها الأول ولم ينكسر،

قالت: (انتظروا، لا تلقوا شيئا حتى أعود)، ذهبت إلى الحديقة حيث السور وعادت بالطبق ثم أعادت الكرة مجددا لكي ينكسر، وعندما رأته يتهشم صرخت بسعادة قصوى وهي تردد بأعلى صوتها: (ابعد يا شيطان...ابعد)، و (زيزي) صرخت دامعة العينين(روح يا شيطان)، و(سوزان) وقفت تراقب المشهد صامتة مترددة، و (مرلين) الطفلة المدللة شاركت أيضا معنا في عملية طرد الشيطان وهي تصرخ عاليا، وعندما انتهينا من مهمتنا تلّونت وجوهنا بالضوء، كم طاهرة وجوهكم أبنائي، وتماثلنا للشفاء من مرض غمّ على قلوبنا وأعتم مدّة طويلة، ابتسمنا ثم ضحكنا، وعندما تحولت الضحكات إلى قهقهات أدركت كم تعانون، لقد عانيتم بسبب النزاعات المستمرة.

أغلقت على نفسي باب حجرتي وبكيت كثيرا وتساءلت، (ما هو ذنبكم ولماذا تستمر المشاحنات ما بيني وبين والدكم ولصالح من هذه الحرب الضروس)؟ توسلت ربي أن يساعدني في حلّ مشاكلنا، أو أن ينهي حياتي إن كان يكمن الحلّ في موتي فأنا مستعدة له، فقط لكي ينتهي العذاب، طالبت بالموت يوميا، طالبت به كل لحظة، تمنيته لكي أرتاح وأريحكم، تمنيتُ أن تزهق روحي لأنه هو الحلّ الوحيد به يمكنني التخلص من العذاب، عذاب استمر طويلا، لقد فضلت الموت على أن أراكم تعساء، وفضلته فيقال عنكم (أيتام)، بدل أن تعيرون بلفظة

(أبوان مُطلّقان)، يا لسخافة تفكيري حينها، ويا لجحيم المجتمع في كل حين!

هبطت يا باسم من الطابق العلوي الذي سكنته وأنت منزعج لأننا أيقظناك من نومك، سخرت منا وبما نفعله لكي نطرد الشيطان من بيتنا، ضحكت، أذكر ضحكتك إياها، تلك القريبة من السخرية وقلت محتدا: (لشو كل هالرزعة هادي، شو ما تعملوا مش راح يخرج الشيطان من بيتنا، الوالد نسينا تماما، مهما فعلتم فلن يعود، عشيقته أكلت عقله وانتهى الأمر، لقد ركبه الشيطان بل هو موجود داخله، وهو الذي يجب أن يغادر هذا البيت، لماذا لا يتركه ويتركنا نحيا بسلام، لماذا نحن الخمسة يجب أن نخرج إلى العراء وهو واحد يبقى فيه)!

عاد والدكَ إلينا بعد أن أنهى مهامه كعاشق يتلوى اشتياقا لمحبوبته البعيدة، عاد لكي يستمر بتأدية الدور المزدوج في المسرحية ذات الفصول الألف، عاد لكي يستمر بتأدية دور (سي السيّد)، وقد أدّاه على أكمل وجه وعندما رأى مشهد الفوضى العارمة التي حلّت صرخ قائلا:

- (عم تكسري الصّحون يا بنت الكلب، أي طبعا، ما هو من مال أبوكِ)؟
- نعم، نريد أن ندخل سنة جديدة بدون مشاكل!

- وهل تكسير الصحون يحلّ المشاكل؟
- ربما، فالغريق يتشبث بقشة، ونحن جميعا غرقى بسببك، ماذا تريد، لو تخبرني ماذا تريد منا؟
- أريد شيئان إثنان!
- أرجوك أخبرني، قل وسألبي لك كل ما تريده، المهم نخلص!
- أن توافقي على (إيمان) عشيقة لي وتتكتمي على الموضوع وتسكتي نهائيا، أو ترحلين من البيت بهدوء دون المطالبة بحقك!
- والأولاد، وهل إيمان ستوافق على رعايتهم، وكيف وأين، أنت جننتَ؟
- إذن، ارحلي من البيت مع الأولاد، فالبيت لي!
- إلى أين تريدنا أن نذهب؟

. . . . .

. . . . .

لكننا رغم كل شقائنا بقينا عائلة دافئة ومتماسكة ومحبة بدونه، ولتذهب جميع الصحون إلى الجحيم.

***

سألتك في يوم وذلك قبل أن تتضخم المشاكل وتكبر:

- لماذا يختلي والدك وحيدا، نعود معا من المشفى ساعات الليل المتأخرة، وفي اليوم التالي أذهب أنا إلى عملي، ثم أعود إلى البيت، أجهز لكم الطعام وألبّي لكم جميع احتياجاتكم، ثم أذهب إلى الدراسة، ومن ثم إلى عمل آخر وأعود لأراجع لكم وظائفكم البيتية، ينتهي النهار ويحل الليل وهو ما يزال يعتكف في ذات الزاوية التي لا يبارحها، يبارحها عندما يشعر بالجوع فقط؟

- إنه العشق يا أماه!

- العشق، هل لا يزال يعشقني حتى الآن؟ أجبتك

- يعشقكِ...هههه...؟

- لماذا هذه الضحكة، أتسخر مني، ثم ما الذي تعرفه عن والدكَ وأنا لا علم لي به؟

- أعرف أكثر منكِ بل كشفته قبلكِ! أجبتني بكل حزم

- إنه (.....)

- إنه ماذا يا أماه؟

- (.....)

قاطعتَ صمتي قائلا:

- كعادتكِ، هو ذات الأسلوب الذي تبتكرينه لكي تتهربي من الإجابات الصعبة، وكم من السنوات ستصمتين وكم عمرا يكفيك حتى تتهربي من الحقيقة، ومهما تهربت فماذا ستكوت النتيجة برأيك؟ سأخبركِ أنا بما أنكِ تعودت على التزام الصمت، النتيجة هي أنك كلما تهربتِ وحاولتِ الحفاظ على سمعة هذه الأسرة الجميلة سيبقى هو المنتفع الوحيد، بل ستكبر سعادته أكثر وسيكبر شعور الغرور داخله، كل هذا التهرب لا يجدي نفعا لأني أسمعه دائما عندما يخاطبها لساعات طوال في الهاتف بينما تكونين في العمل، وأنتِ من يدفع الفواتير لأن الهاتف باسمك، أنتِ تحاولين الدفاع عنا وعن نفسكِ أمام الجميع لكي تبرهني لهم أننا بخير، بينما هو يتغزل بها غير آبه، بل ويتفاخر بذلك، وأنت، يا مسكينة، تنحتين في الصخر لكي تؤمنين لنا مستقبلنا بصمت!

- حان موعد الحقنة! قلت لكَ

- دائما تتهربين عندما أضعك على رأس الخبر! أجبتني غاضبا

- يجب أن أحقن النصل بمادة الهيبرين، لقد حان الموعد قبل أن يتجلط الدم وينغلق الوريد فنضطر إلى عملية أخرى لزرع دريلا جديدا،

يجب الحفاظ على بقاء الدم متخثرا، تعال معي الآن وحالا، يجب أن أنجز هذه العملية بوقاية وبدقة شديدتين.

يا بني، لم أكن غبية كما اعتقدت بقدر ما كنت رزينة وهادئة، حاولت أن أحتفظ بالأمور داخلي، لم أتهرب، بل أردتُ أن أحافظ على صورة الأب الإيجابية داخلكم، وهو للأسف الشديد استغل ذلك وعرف كيف يستغل طيبة قلبي أيضا، اعتقدت أن الحب الأول لا يموت فانتظرته لكي يعود إلي، الظاهر إني لم أكن حبه الأول كما افترى وادعى، وعندما انتظرت كثيرا ولم يعد، وعندما أصرّ على الغياب وخاصة عندما أقسم لي أنه تركها، وكان كاذبا، وعندما عاد إلينا، وذلك بعد سنوات طويلة من التحمل والانتظار، قررت البت بالأمر ونهائيا.

في يوم ما، عدت أدراجي من العمل إلى البيت فورا، كان الوقت صباحا، نسيت شيئا مهما دعاني أعود فقبضت عليه متلبسا وهو ينزل بحقيبة السفر من أعلى السلالم، اعتقد أني في العمل فتفاجأ جدا عندما رآني وسألني بنبرة حادة:

- لماذا تعودين الآن؟
- نسيت أمرا هاما، ثم لماذا تنزل من البيت بالحقيبة، هل أنتَ مسافر، اعتقدتك في العمل، ثم، لقد حصل وأقسمت لي أنكَ انهيت قصتك معها، لماذا تكذب عليّ، قل لي لا أريدكِ لكي أفهم وينتهي الأمر، أخبرني

أنك اخترتها هي، أخبرني بالحقيقة، وهذه القبلة الطويلة التي تشاركنا فيها قبل نصف ساعة من خروجي إلى العمل، هل كانت تمثيلية؟

- أنتِ لا تعنيني بشيء، افسحِ لي المجال لكي أمرّ.
- اخترتها هي إذن! أجبتك بحزم وقسوة هذه المرة
- نعم ولن أتركها، وإن تزمتِ برأيك وأصررت على أن أتركها لن تريني أبدا، ابتعدي الآن!
- سأبتعد، لكن يجب أن تسمع هذه الجملة قبل أن يفوت الأوان، إن حصل وتركتني وذهبت إليها، وكذلك إن حصل وقررت العودة إلي مجددا فلن أوافق على عودتك، هذا آخر إخطار لكَ ، فكّر جيدا قبل أن ترحل!
- من يريدكِ أنتِ، أنا لا أريدكِ، لا أريدكِ!
- أنا، أنا هي التي توجه لها هذا الكلام، أنا؟
- أنتِ نعم، أوجه الكلام لكِ!
- ستندم، وأخيركَ مجددا وأمنحك فرصة وللمرة الأخيرة في حياتي، أريدك أن تختار ما بيني وبينها، وقبل أن تذهب فكر في الموضوع، لن تجدني إن عدت، لن تجدني!
- ومن يهتم بكِ، لا أريدك، لا أريدك!
- ستندم وكثيرا!
- (أعلى ما بخيلِك اركبيه)! صرخ

- أشعر بالراحة الآن، لكنك حتما ستندم، أعدكَ أنك ستندم!

من يومها بدأت أردد أغنية تعالج ذات الظروف ووضعتها على موبايلي، من يومها قررت تحديه لأنه خرج من قلبي نهائيا، حتى لو طال خروجه فقد خرج أخيرا بلا عودة، أعلم أني تأخرت كثيرا باتخاذ القرار، المهم أنه خرج نهائيا من قلبي وبلا رجعة أبدا، وتمنيت أن يأتي يوما فيتوسلني العودة، أصبحت لدي أمنية عزيزة وهي أن يعود متوسلا وأقوم أنا برفضه بشدة وبقسوة، كما رفضني طوال هذه المدة التي احتملت فيها القهر والعذاب، أصبحت أعيش هذا الهدف، وأحلم به، أريده متوسلا نادما.

اخترت أغنية لتبقى مثل ناقوس يطن داخل ذاكرتي لكي لا أنسى ما وعدت نفسي به، (لو مارجعتش ليّ بقلبك تاني هنا، لو ما حلفتش إن الثانية في بعدي سنة، لو ما آمنتش إن الجنّة في حضني أنا، ما ابقاش أنا، ما أبقاش أنا).

هذا الرجل المغرور، الغبيّ حقا، لم يفهمني جيدا، أنا التي قطفها برعما وكبرت بين يديه، أنا التي نوّرت وأزهرت في حضنه وأينعت يجهلني تماما، هذا الرجل الذي عشت معه حوالي ثلاثة عقود لم يعلم أني صاحبة قرارات صعبة جدا حتى لو أتيت على تنفيذها متأخرة، ومن القرارات الصعبة التي اتخذتها في حياتي هي هجرتي له وهروبي منه،

وتهريب أبنائي أيضا، وثانيا عودتي إلى الكتابة متحدية، وبلوغ كرسي الرواية، أقبل بهذا الكرسي لأنه عشقي، قمت بطباعة روايتي الثانية (تراتيل عزاء البحر) بعد كفاح مرير وبعد مشاجرات مهينة، لن أنسى عندما وقف خلفي وأنا أكتب وهو يأمرني بشطب بعض الفصول، جرّ القلم على الأوراق لاغيا بعض الجمل، وكيف أبدى رأيه المعطوب بما أكتب بصوته الجهوري وكأنه هو المؤلف ولست أنا، لم تخرج الرواية إلا سنة ٢٠٠٧، وقد صحبت المسودة معي إلى أستراليا دون أن يدري، هي ضمن الأشياء القليلة التي حملتها معي وحافظت عليها كمن يحافظ على طفل مدلل من الضياع، وطارت معي الرواية إلى البعيد، لكن للأسف الشديد قام الناشر في طباعة المسودة والتي خرجت بها الرواية الثانية إلى النور، وها أنا الآن أعيد كتابتها مجددا، وقد بدأت بنشرها من جديد على شكل حلقات مسلسلة.

***

لم تتكحل عينيك بعطر الياسمين ولم تر نفسك إلا أحد الجنود الحزانى، وياما صفقت لمن ماتوا قبلك، لم يمنحك الله سوى رؤية عيون المشفقين، لقد كرهت تلك النظرات، غادرت إلى البعيد لكي لا يرونك تذبل فيشفقون أكثر، كرهت كلمة (مسكين) كما كرهتها أنا مثلك، فرحت كثيرا عندما أدركت كنه نظرات الأطفال في أستراليا، لم يجدوا فيكَ شيئا مختلفا، لم يطعنوك بطعنة الشفقة إياها ولم يمكثوا كثيرا قريبا منك وهم يتأملون وجهك، الأطفال هنا ليسوا فضوليين، لا بل هم كذلك، هي تربية ذويهم لهم بأن يحترموا كل الناس وحتى المختلف عنهم.

بدأت تشعر بالنقص، جميعهم يكبرون، وسيمون، يحبون، يرتبطون، وأنت عالق ما بين المرض وكنبات العمر المهترء، تجول بين أسِرّة المشافي، من مشفى إلى آخر ومن مكان إلى مكان، ومن قارة إلى أخرى، مشهد لا يمكنني نسيانه عندما حضرت زفة أحد العرسان، صفقت باليد اليمنى التي سقطت على اليسرى، تسمرت للحظات هناك ثم انتشلتها وصفقت مجددا وكأنك تصفق للهواء، لا يمكنني نسيان حركة يديك اللتين أخترقتها وخزات الإبر مئات المرات، يدان ضعيفتان بدأتا تفقدان الأمل، لكنهما لم تفقدا مهارتهما، ومن حينها طلبت مني ألا ترافقنا إلى أي فرح، وانزويت...

هل تذكر ماذا فعلت عندما كنت في المتوسطة، قبل أن يقرروا لك عملية زرع النخاع بأشهر، عندما أردت أن تكون رجلا عصاميا تعتمد على نفسك وتأكل قوتك من عرق جبينك، فبدأت تجوب البيوت في القرى المجاورة، ممتطيا دراجتك الهوائية تبيع مجلة نسائية صدرت بشكل شهري، كنت سعيدا جدا بهذا العمل وبالملاليم القليلة التي كسبتها، في يوم ما عدت آخر النهار منهكا أهديتني عددا، وقلت لي:

- هذه النسخة لكِ، اقرئيها، أدرك أنك تعشقين القراءة، (مرمشيها تمرمش، أي كما يؤكل السمك)، أعرفك، لن تُبقي منها شيئا، صراحة أتمنى لو جميع ربات البيوت يفعلن مثلك لأصبحت ثريا بأقصى سرعة ممكنة... لوفرن عليّ مشاق النهار!
- لن أقبل بها دون أن أضع بيدك ثمنها. قلت لكَ

لكنك ومن أوّل راتب عرفت طريق أجهزة القمار التي غررت بكَ، الطريق الضيق الذي سلكته لم يخفك لكنه أخافني أنا لدرجة الموت، هذا الطريق الذي أودى بكل شيء تحمله الإنسانية بعد ذلك، قلبك ارتعش تماما أمام أول دفعة من النقود المعدنية التي هرّت أمامك وهزّت مشاعرك، تلك الأصوات التي أحببتها دعتك إلى نسيان كل شيء حيوي يجري داخل عروقك الملوثة بخلايا سيئة، وبدأت تفكر فقط كيف يمكنك ممارسة هذه اللعبة، أصبت بتيار الحماسة وبدأت تخطط

لنفسك بأن تصبح رجلا ثريا لأنك آمنت أيضا بأن الثراء والسلطة رمزا القوة، فكيف إن حظي صبي في عمرك ويعاني من المرض بهذا اللقب، أن تصبح ثريا، من منظورك، يعني أنك تحافظ على مكانتك في المجتمع، والمال سيعوضك عن كل الخسارات التي منيت بها وأهمها خسارة الصحة.

زعلت منك، لكني لم أتغضب عليك، وتتالت التجربة، وربحت حتى أصبحت حديث البلد، فبدأ كثيرون يتوددون ويتقربون إليك، لا لشيء، فقط لكي تلعب بدراهمهم وتأتي لهم بالربح الوفير، لقد تفاءلوا بك، قالوا (الصبي مريض سيكون محظوظا فالحظ من نصيبه)، وهكذا تناوب عليك المتكالبون، منحوك نقودهم لكي تأتي لهم بغلّة الربح، وذاع صيتك وبدأت تبحث بمساعدة المدمنين بالمراهنة عن ساحات أخرى مسموحة للعب، وعندما تدخلت لكي أوقفك من هذا الطريق الصعب، طريق اللاعودة بدأت تكذب وتتهرب، وتتصرف بحنكة وذكاء لكي أمنحك تأشيرة الخروج والتأخر خارج البيت ليلا، ولم أسمح لكَ، عارضتك ونفرت مني، تحايلت عليَ ولم أرضخ، حتى بدأت ترسم سيناريوهات مختلفة للتهرب من قبضة يدي وصدقتكَ، قلب الأم يصدّق كل شيء وينكر أيضا كل إشاعة تُطلق ضد أبنائها، وبدأت تقنعني أن طريق القمار مربحة، بالنسبة لكَ على الأقل، وأنك لا تخسر، حتى صحبتني معكَ إلى كازينو (أريحا) لكي تؤكد لي أنك تملك

أموالا وفيرة وقد أمّنت عليها داخل صندوق المدخرات التابع للكازينو، أو، على الأقل، لكي توهمني أنه يوجد صندوق مدخرات هناك، لا أعلم إن كنت جادا، ولا أريد أن أعلم، فكل ما فات قد مات الآن، مسألة الربح، أسلوب ابتكرته لكي تستطيع أن تسخر ممن سخروا منكَ وممن وضعوكَ في يوم ما تحت أقدامهم وساروا على جثتك الضعيفة، وذلك عندما بدأ يتحول لون جسدك إلى الأسود، حيث حطّت آثار فشل عملية الزرع رحاها على وجهكَ الجميل فحولته إلى وجه شبح يخاف منه الناس، لم ينصفك أقرب الناس إليك، بل وخجلوا منكَ، سألتكَ:

- أين يقع هذا الكازينو؟
- في مكان ما ليس بعيدا من هنا، نصف ساعة فقط وسوف نصل.
- نصف ساعة، خرجنا من البيت قبل ساعة وما زلت تقول لي نصف ساعة؟
- ماما، اخرجي إلى الحياة وتمتعي بها، لا أراك سوى امرأة منهوكة القوى، لا تملكين وقتا لنفسكِ حتى، ثم أريدك أن تجربي حظك هذه المرّة، سوف ألعب باسمك، أكيد سأربح بما أنك امرأة قريبة من الطهارة.
- وهل تعتقد أني سألعب القمار مثلك، أنتَ واهم، لعب القمار ليس من أخلاقياتي وليس هدفي في الحياة وما أفكر بتحقيقه أبدا، وأؤمن (من أن القرش الذي يأتي بالسّاهل يضيع بالسّاهل) تعلّم مني هذا المثل وليكن

شعارا لك، وتدرب على مقولة (القناعة كنز لا يفنى) ثم، لا ينقصك أي مال، فلماذا تستميت لكي تصبح ثريا، ها، أخبرني، ألسنا أثرياء كفاية، يغيظني ما أنتَ فيه حقا!

- يا لهذه الأمثال التافهة، (موديلها خلص، أولد فاشن ماما) تطوري، الحياة (إذا معاك قرش بتسوى قرش، ما معاك ما بتسواش)، نحن أثرياء لذلك الناس تحترمنا وتعمل لنا ألف حساب، انظري إلى عائلتنا، فهي مثال العوائل الثرية في فلسطين، مثال يحتذى به لأنهم أثرياء، المال مثل الحاسة السادسة وبدونه لا يمكنك الإستفادة من الحواس الخمس الأخرى وأنا أملك هذه الحاسة وأدرك كيف أستطيع جنيّ المزيد منه.
- إن كان الناس تحترمنا لأننا أثرياء لا أريد هذا الثراء، أريد احتراما بدون ثراء!
- لا يكفي، الثراء هو القوة التي تدعنا نملك العالم بأسره، المال يجعلني سعيدا.
- أفكارك تخيفني، لا تعبث كثيرا فلن يدوم هذا العبث فيأتي يوما وتكون فيه من أكثر الخاسرين، لن نعود إلى نقاش مللناه وهو إن كانت السّعادة تكمن في المال أم لا.
- إذن أين تكمن السّعادة يا أماه، في الصحّة مثلا؟
- (.....)

- لماذا تصمتين، أنا لا أملك الصحة لذلك يجب أن أملك المال كتعويض.
- (.....)
- ستصمتين كثيرا لأني أعلم كنه صمتكِ، تعرفين جيدا أني لا أملك أي صحة وكل ما يفعلونه بجسدي ما هو إلا تجارب لأنواع أدوية عديدة من أجل تسويقها فقط، أنا فأر تجارب، لن أدع الآخرين ينظرون إلي مثلما ينظرون إلى فأر حقير، بالمال فقط تتساوى الأمور!
- (.....)
- أليست هذه هي الحقيقة المرّة يا أماه؟
- إذن أصبحت فكرة جنيّ الأموال من أوّل أولوياتكَ الآن؟ أجبتك متألمة
- سأجرب كيف أكون ثريا وإن حصل وخسرت بعد ذلك لا يهمني، لا أملك شيئا لأخسره، ما الذي أملكه لأخسره، ها، هلا أخبرتني ماذا أملك؟
- عقلك، يكفيني عقلك الذكي الذي يمكنه أن يقلب الدنيا رأسا على عقب إن استغللته جيدا!
- عقلي، نعم أنا ذكيّ جدا، هذا ما صنفت به بعد اجتيازي الامتحانات دون أن أحضر جميع الدروس بصورة فعلية في المدرسة، وسأتخرج وسأحمل لقبا جامعيا محترما، لكن، هل يوجد وقت لكي أصبح أي شيء يرضي الآخرين، ألا نحيا لكي نرضي الآخرين، وهذا المرض اللعين الذي يلاعبني غدرا هل يرضيني؟

- ستنجح لأجل نفسكَ وسيطول عمرك، ثق بي، إن واظبت على دورات العلاج ستنجح!
- سوف أستمر بدورات العلاج لأني أتحدى المرض وسوف أكمل دراستي وسوف أجرب حظّي في القمار أيضا، هكذا أكون قد جرّبت كل شيء، ثم أنا سعيد بهذا، ويجب أن تكوني راضية بما يسعد ابنك!
- (.....)
- لا تصمتي كثيرا يا أعز الناس فقلبكِ لن يتحمل المزيد من الحزن لأنه سيرافقكِ مدى حياتك!
- لا نريد أي حزن، إلهي أبعد عنا الحزن، يا رب الحياة ارفق بنا!

*

لقد ذكرتني بشيء آلمني كثيرا عندما طلب مني والدكَ أن أوافق على شرعية العلاقة التي ربطت بينه وبين عشيقته عندما أخبرني بأنه أصبح رجلا عاشقا لامرأة غيري، حينها رمى بي في مصاف التغافل، والأدهى من ذلك بدأ يطالبني بالتهاون على أن يحتفظ بنا نحن الإثنتين، أن أكون أنا زوجة شرعية ترعى له شؤونه وشؤون أبنائه، معترف بها أمام الناس ولا ينقص من التزاماته نحوها كزوجة وأم من مأكل وشراب ومركبة تركن

تحت الفيلا، لقد نسي أني أعمل بكدي وجهدي، معتقدا أني انتظرت لقمته آخر النهار، يا لخيبته... على أن تكون الأخرى مصدر ترفيه ولهو لأني انشغلت بك عنه، هذا البائس، هو من تحلّ عليه الشفقة فعلا ولست أنتَ!

واستطاع أن يحتفظ بالمرأة الثانية، عشيقة تزيح عنه هموم الحياة فيلجأ إليها متى يريد، حاملا لها ما لذّ وطاب لكي تقبل به، طبّق المثل القائل (اطعم الفم تستحي العين)، حتى ازدادت طلباتها، فبدأ يقتني لها الهدايا القيّمة، وكلما اعترضت على تصرفاته التي كبرت وعظمت، ردّد ذات العبارة (إن كنت تريدين الاحتفاظ بي وبأسرتنا متماسكة مترابطة يجب أن تكوني راضية بما يسعدني، ألست زوجكِ حبيبك لذلك يجب أن تكوني سعيدة لسعادتي)؟ وعندما زاد الصراع فيما بيننا وتفاقمت المشاكل التي لم نظفر في حلها، حينها التجأت إلى أحد أقاربه المقربين طامعة بمساعدته، قال لي:

- لو وجد زوجك ما يريده عندك لما تركتكِ!
- ووجده لدى الأخرى؟ وهل هذا سبب مقنع لكي يترك أسرته ويبذر مالي وماله!
- نعم الرجل حرّ في تصرفاته، أليس رجلا؟

- هل هذا هو الجواب الصحيح الذي يجب أن أنتظره منكَ أنتَ بالذات، عوضا أن تكون محضر خير بيننا، أراك تشجعه على الاستمرار في هذا الطريق؟
- لديك عملك وأبناؤك معك، وابنك مريض وجيوبك مليئة، اتركيه يفعل ما يريده طالما جميع طلباتكم متوفرة فلمَ الاعتراض!
- (.....)

سخافة...التزمت الصمت، تضخمت المشاكل وتوسعت حتى اختل توازننا ففشلنا بتسيير المركب الذي غرق فينا جميعا بسبب نزوة طالت كثيرا، هو اختار المرأة الأخرى وأنا اخترتكم أنتم، وتعاقبت النزوات، اعتبرها هو بطولة بينما اعتبرتها أنا خيانة متعمدة مع سبق الإصرار والترصد، حتى طافت على السطح العديد من الألاعيب القذرة، أصبح وبمساعدة البعض عدوا لنا، لم يستطع الاحتفاظ لا بي ولا بعشيقته أيضا فيما بعد، وخسر أهمّ الأشياء في حياته، أبناءه واحترامه لنفسه، كم نوازع الإنسان طماعة!

- (.....)
- هل حان دورك لكي تصمت، لماذا تصمت الآن، هل أصبح الحزن حقيقة قائمة، دواخلنا تتمزق قهرا، ترى ماذا ينبئ لنا المستقبل!
- سأعيش يا أماه، وسوف نعوّض بمستقبل أجمل!

- (.....)
- يأتي دورك لكي تصمتي، لا تتنهدي كثيرا، خلال عودتنا سأسمعكِ شريطا جديدا لكاظم الساهر، أعرف أنكِ من عشاقه، لقد وصلنا، هيا بنا!
- ماذا يكون هذا المكان؟
- إنها (أريحا) يا أماه (أريحا) المال، النقود، (أريحا) مكمن الثراء، مكمن النسيان، هنا يأوي النسيان، (انسى الدنيا وريّح بالك، اوع تفكر باللي جرى لك)، هنا أنسى الدنيا، لمن هذه الأغنية ماما؟
- لمحمد عبد الوهاب، (انسى الدنيا وريح بالك، اوعى تفكر باللي جرى لك)، وهل تأتي إلى هنا لكي تنسى؟

وغنينا معا، رقصنا في الباحة قبل الدخول، تدرجتَ وأنت ترقص، نزلتَ من السيارة سعيدا، ترقص (لأريحا) المزيفة، وأنا أصمت أمامك وأمام (أريحا) التاريخ، (أريحا) القمر (معنى كلمة أريحا حسب التاريخ السامي القمر، يريحو نسبة إلى أريحا بن مالك بن أرنخشد بن سام بن نوح)، وتعتقد أني لم أزرها سابقا يا ولدي؟

لا أحد يدري أني ابنة العصور، ابنة الجمال، ابنة الحياة، أنا التي تعودت على الحب وعشق الأماكن التاريخية، أنا التي صاغت قصائدها سرا، وأنا التي أسرتني الأماكن بقدسيتها وعظمتها، لقد جهلتني ولم

تدخل إلى أعماقي ولم تدرك حقيقتي والجمال الذي يسكن داخلي، رأيت الظاهر الحزين والمهموم فقط، فرغم كل البؤس الموحل بالأسى هناك ومضة حياة مختفية تنتظر الإشتعال تسكن بين أضلعي، لقد خسرتني!

وتتعجل الدخول إلى الكازينو، إلى هذا المبنى الضخم حديث البناء، مكان سياحي خصص للترفيه بني في منطقة منتقاة ومحايدة، أنيق ومرتب، استقطب الجماهير الثرية التي أمّت المدينة بعشراتها، لكن فيما بعد عادت المدينة لتصبح مدينة كسولة بعد إغلاق الكازينو على مرتاديه، نائمة ومستسلمة.

الأستاذة مربية الأجيال التي هي أنا تدخل المكان، لم يخطر ببالي أن يأتي يوما وأخطئ هذه الخطيئة، بداية اعتبرتها خيانة لشخصي ومبادئي.

***

في (أريحا) بدا الأمر اقترافا لجريمة كبيرة، صدمت بوجوه مألوفة بدأت ترسل لي الابتسامات عندما رأتني هناك، لم أسمح بإطلاق هذه الابتسامات المزيفة التي أحسست وكأنها سهام تتصيدني فأشحت وجهي عن أصحابها، اعتقدوني مُقامرة مثلهم، أشخاص أثرياء من ذات الضيعة التي أقمنا فيها ترددوا على المكان أيضا، يا لفداحة الوقت، شعروا بارتياح كبير بوجودي، فأنا مربية أبنائهم والملقنة للأخلاق أصبحتُ مثلهم لحظة دخولي أماكنهم السرية، خجلت منهم وبدأت أتهرب من نظراتهم التي لاحقتني حيثما سرت في المكان الرحب، هذه الرحابة لا تليق بي، هذا المكان سخط على سمعتي ولن أسمح لك من هدم ما بنيته من قيم تسيرون عليها طوال عمري، وأنتَ يا بني بدأت تسهم بهدمها، سألتكَ أسئلة كثيرة لم تجبني عليها، طلبتَ مني أن أبقى معكَ وبجانبك وألا أبتعد، بل أصررت أن أقف بجانبكَ فوجودي يجلب لك الحظ، ليس إلا، وجهي الجديد يوحي بأنك ستربح، وقفت بين الطاولات متفاخرا، الأضواء تظهرك أكثر تألقا وأناقة، الألوان تبرق في المكان كما أبرقت عيناك سعادة، وتساءلت في أعماقي، (لماذا باسم سعيد هنا، لم أره سعيدا بهذا الشكل فيما مضى)؟ وبدأت أقارن بين ملامحك الحيّة هنا وملامحك الميتة في المشافي التي أخذت من عمرك الكثير والتي سلبتك أكثر مما أعطتكَ، سلبتك رجولتك التي ظهرت هنا بشكل فائق، سلبتك ضحكتك الحقيقية التي أصبحت عملة نادرة، تلك

الضحكة ما كنت لألمحها على وجهك الذي بدأ يكبر فجأة، لكنك هنا تشعر بالحياة!

الوجوه التي نقرتني لاحقتني وبدأت تبحث عن التفاصيل، إنهم ينتظروني لكي أضع أول قطعة نرد على الطاولة، لكني لم أفعل، انتظروني كثيرا، لن أفعل، لا أريد أن أفعل، طاردتني عيونهم الفضولية المقيتة، هربت منهم، بحثت عن ملجأ ما، صعدت إلى الطابق الثاني، وأخفيت جسدي خلف جدار ما ثم هربت إلى غرفة الراحة، مكثت قليلا فيها ثم عدت لأبحث عنك، كان من السهل إيجادك، وجدتكَ، أمسكت بذراعك وهددتكَ، لا أذكر ماذا قلت لك، انصعت لي بعد توسلات مستمرة ثم لملمت الأقراص عن الطاولة، أمسكت بيدي وخرجنا معا، وضعتني جانبك في السيارة، وهدرت بي مسرعا وقلت:

- يجب أن نخرج من الصالة حالا والآن!
- لماذا ماذا حصل؟
- أنتِ برفضكِ هذا تبعدين عني ضربات الحظ!
- أنا... ضربات حظ، (شو يعني ما فهمت)؟
- عندما تدخلين هذه الأماكن يجب أن تكوني واثقة من نفسك لأن الربح الأكيد سيكون من نصيبك، بعبوسك وتأففك تطردين الحظ، الحظ يأتي مرة واحدة يا أماه فاستغليه!

- أنا لا أريد ربحا ولا حظا من هذه الأماكن، عرفت حظي تماما ولن أنصاع لكَ بعد اليوم، هذا هراء ما أنتَ فيه ويجب أن تكف عن هذه الألاعيب حالا!
- ليس هراء، هذا حظ، الحظ يخدمني هذه الفترة من حياتي وأنتِ تتمنعين، اتركيني وشأني إذن، لا تلاحقيني!
- (.....)
- ماما، تمسكي جيدا، بعد هذه الطلعة هناك انخفاض سحيق، لا أريدك أن تطيري خارج السيارة، سنطير معا ونحن داخلها، تمسكي جيدا، سنطير معا الآن، فابنكِ هذه الليلة يملك الكثير من الأموال على الرغم مما فعلته.
- ماذا فعلتُ؟
- أخرجتيني من مكامن الحظ!

وطرنا معا، نزلنا انخفاضا سحيقا بأقصى سرعة ممكنة، ثم طرنا معا فتسلقنا حتى القمة، وانخفضنا مجددا، ثم تسلقنا، وتكررت تجربة الطيران ونحن في المركبة دون أجنحة، ضحكنا معا، ضحكنا كثيرا، أحببتُ لغة الطيران التي تمارسها، لقد دربتني على المغامرة، مغامرات يفهمها فقط من يتسلقون الحياة.

انحرفنا فجأة من الطريق العام فوجدنا أنفسنا داخل صحراء قاحلة، نهبت الأرض نهبا وضحكت، بل قهقهت، أردت أن تقهر الظلام والخوف معا، وعندما سألتكَ:

- لماذا لا نعود إلى الشارع المعبّد، ألا تشعر بكل هذه المطبات، سوف نخسر الاطارات، ستنام!
- هههه، بل سننطلق من هذه الطريق! أجبتني متحديا.
- سنتوه في الصحراء يا بني، عد إلى الشارع العام!
- ونترك هذه الأراجيح، ألا تعلمين على ماذا تتأرجح السيارة؟
- وماذا سيكون في الصحراء يعني؟
- بل يوجد الكثير، نحن ندوس بالسيارة على عشرات العقارب السامة التي تعيش في هذا المكان الصحراوي الحار، نحن في المنطقة الأكثر انخفاضا عن سطح البحر في العالم، نحن في منطقة البحر الميت.
- ماذا نفعل هنا، ماذا قلت، عقارب، نحن ندوس على كواهل العقارب الآن؟
- ويحك يا أماه، ألست امرأة شجاعة فكيف تخافين منها؟
- أنا شجاعة... ومن قال لك هذا، هل يمكن لعقرب ما الدخول إلى هنا؟

رفعت قدميّ واحتضنتهما بيدي حتى وصلتا عنقي وباسم يقهقه ضحكا.

- أكيد شجاعة والعقرب لن يجد له طريقا للدخول لأنه يعلم جيدا أنكِ مغرمة بالطيور!
- هل تسخر مني يا ولد؟ أجبتك محتدة
- لا بل هي التي تسخر منا هههه، هل تسمعين شخيرها هههه!
- هل العقارب تشخر!
- افتحي النافذة واسمعيها بنفسكِ....
- وتسخر مني مجددا يا ولد؟ أجبتك محتدة
- لا أسخر منك أبدا بل أؤكد لكِ، أنه من تعاشر رجلا مثل والدي سنين طويلة تكون أكثر الأمهات شجاعة.
- لماذا تصفني بالخوف إذن؟
- الخوف...، إن لم تتدربي على الرقص على أجساد العقارب، ستبقين خائفة، وهذا الذي يسمونه التحدي، هيا إلى التحدي!

*

دخلنا البيت معا كل على أخمص قدميه لكي لا تستفيق أخواتك، همست لي بأذني تريد إغاظتي:

- تصوري المشهد الآن.
- أي مشهد؟

- لو والدي يفاجؤنا بعودته من عمّان دون دراية، ربما سنجده في البيت، أكيد هو بانتظارنا الآن، أتخيل المشهد بينما تتلعثمين أمامه لا تدرين بماذا ستجيبينه إن سألك أين كنا حتى هذه الساعة المتأخرة من الليل؟
- ش ش ش، أسكت، لا تتحدث... صحيح ماذا سنقول له، هل سنقول له أننا كنا في (أريحا)، سأخبره أننا كنا في الصحراء!
- هههه (ما ألذك أنا) أنتِ لذيذة مثل طعم الحليب المثلج، ستذوبين أمامه من الخوف، أعرفكِ جيدا، لست شجاعة كفاية، بدلا من أن يخشى هو منكِ تخشين أنتِ منه، (يا سلام على روحك المسالمة هذه)، سوف أدربك على الشجاعة، يلزمك الكثير من التدريب.
- (تدريب على شو)؟
- سأدربك كيف تقولين كلا.
- أقول كلا، أنا أقولها دائما ومن قال لكَ أني أوافق على ما يفعله بنا؟
- لا تقولينها بحزم، هذا الرجل يلزمه الحزم، لستِ حازمة كفاية لكي تقفي أمامه وتقولين له (كلا، كلا، كلا، كلا...).
- لن يرد فهو أصعب من مجرد كلمة كلا حتى لو رددتها آلاف المرات!
- إذن سنذهب مجددا إلى هناك.
- لن أذهب معك لأني شعرت بالإهانة وأنا هناكَ!
- يجب أن تشعري بالفخر لأنكِ معي!

- أشعر بالفخر لأنكَ ابني فلا تهدم هذا الشعور داخلي، لا تكررها مجددا، لا تذهب إلى هناك!
- بل سأذهب!
- بل لن تذهب، لن أسمح لكَ بالذهاب، أنتَ تهدم الشيء الجميل داخلكَ!
- هل ترين حقا أشياء جميلة داخلي يا أماه؟
- كلك جمال يا بني، فأنا من ربتكَ وقامت على تنشئتكَ فكيف لا تكون جميلا؟
- أخشى عليكِ الآن!
- مم تخشى عليّ يا باسم؟
- لأن مهمتكِ قد تضاعفت، ستقولين (كلا) لاثنين، لأبي ولي أيضا، لقد صعّبتُ عليكِ المهمة يا أجمل أمّ، لن أعدل عن قراري، فلا تساوميني باحترامي لكِ، أحترمكِ وأحبكِ أكثر من كل شيء في الحياة لكني أصارع الحياة وحدي، ولكي أحتفظ بقوتي يجب أن أفكر بالغد، ولكي أحافظ على باسم قويا يجب أن أفعل ما يخططه عقلي، يجب أن أحقق أهدافي ولن يوقفني أحد!

وبعد يومين ذهبنا إلى مشفى (هداسا)، استلقيت في المقعد الخلفي كعادتكِ، لكن قبل أن تغفو قلت لي، كعادتكَ أيضا مسلما بالأمر وبنبرة قوية:

- سنذهب إلى الجهاد يا أماه، سوف نجاهد من أجل حياة نقية وصافية من المرض.
- نعم سنذهب إلى الجهاد يا باسم، هيّا بنا يا بطل الأبطال!
- الجهاد من أجل مكافحة المرض يا أماه، اليوم تنتظرني حقنة مؤلمة، سوف أتحداها؟
- طبعا، ستتحداها، سنسلك طريق عين كارم حيث جمال الطبيعة الأخاذ، سأذهب إلى الهدوء، إلى الخضرة، موعدنا اليوم مع الحياة، سوف يعبئون داخل أوعيتك الدماء لكي تبقى حيّا، سنذهب إلى دكتور (أور) مجددا، سوف تستقبلنا (عاليزا) كالعادة، كم هو جميل مكتبها، وقسم زرع النخاع يشبه فندق يحمل خمسة نجوم، سنذهب في رحلتنا الأسبوعية، نم الآن لكي لا تشعر بطول الطريق ودعني أقود بمعية أغاني أحبها، سأخفض المذياع لكي لا تقلق.
- لا تخفضيه، دعيه كما تحبين أن يكون، شريطة ألا أسمعك تغنين بالنيابة، صوتكِ يقلقني!

- يا مشاكس، لماذا يقلقكَ، هل صوتي قبيح إلى هذه الدرجة، طيب، نكاية بكَ سوف أغني طوال الطريق ولن أدعكَ تنام، قم وغنّي معي، هيّا قم يا كسول.
- ماما، أرجوكِ، لا أريد أن أكون (أبو كلثوم)، كوني وحدكِ كلثوم وفيروز والساهر أيضا، سأكون (أمنيم)!
- من، أنا شخصيا لا أعرفه، من يكون (أمنيم)؟
- اعتبر (أمنيم) نفسه يتيما وذلك لأنه لم يلتق بوالده أبدا وكره والدته التي لم تقف جانبه، وقد قام بتأليف أغان كثيرة يشتمها فيها، أكيد لا تعرفينه، أنا أعرفه جيدا، لا تسأليني عنه، سأنام الآن، إلى اللقاء بعد أربع ساعات.
- بل أريد معرفة المزيد عنه، من يكون (امنيم) هذا؟
- هذا واحد مغني يكره والدته كثيرا!
- (يا ساتر يا رب، في حدا بيكره أمه)؟
- هو طبعا!
- أكيد يوجد سبب!
- السبب أنها لم تعتني به وتركته وحيدا.
- لا يوجد أمّ تترك أبناءها وحدهم، مستحيل، حتى القطة تعرف كيف تحتفظ بهم، أكيد هذا الشخص مختل عقليا!
- لكنه مشهور جدا.

- لذلك أشتهر كثيرا، لأنه استطاع أن يلبي حب الاستطلاع لدى الجمهور، لكنها لعبة بخسة لا تروق لي، هذا اسمه استغلال غير شريف لسمعة والدته لكي يرقى ويصل إلى النجومية.
- بل هي التي تركته، سأنام الآن، باي!
- إلى اللقاء، استرح يا أغلى الناس!

رحلة المشفى كانت بالنسبة لي أرحم من المشاكل التي لوثت كل شيء جميل في البيت، رؤية المرضى ورائحة الأدوية لم تسبب لي أي تكدر، وجوه بائسة ذابلة، حالات مزرية تتكشف أمام ناظري، جميع المرضى يحاربون المرض ويدركون في قرارة أنفسهم أنهم سيموتون، عيون متجمدة ووجوه متعبة لا تقدر سوى على الحزن، أرجل مبتورة ورؤوس ملقاء مالسة، ساعات الانتظار الطويلة أرحم لي من البقاء في البيت مع نقاشات حادة لا طعم لها ومماحكات تافهة لا ترضي حيّا ولا ميتا.

وبعد ساعتين استيقظت بينما هدرت بالسيارة على طريق الساحل، نظرت في مؤشر السرعة، صرخت، وقلت:

- تسيرين بسرعة ١٦٠كم، لماذا كل هذه السرعة؟
- يجب أن نصل القسم باكرا لكي نحظى بأول نمرة، إن كنا محظوظين وأتممت تلقي العلاج لكي نخرج من المشفى باكرا، هكذا نعود قبل

انتصاف الليل على الأقل لكي أراجع الدروس لأخواتكَ وأجهزهم وأجهز نفسي للغد، العمل لا ينتظر.

- لكنك تسرعين كثيرا؟
- لا تهتم، عد إلى غفوتكَ أنتَ واتكل عليّ!
- وإن انتهيتُ باكرا؟
- سنزور كنيسة القيامة، سنذهب إلى القدس الشرقية هناك نشعل شموعا ونصلي، موافق؟
- طبعا موافق، لكن إن لم تخففي من السرعة سوف أخبر والدي بالأمر، سأخبره أو تبطئين!
- سأبطئ، يعني تعتقد أن والدك يهتم بنا، (أصلا هو اليوم وتحديدا عايش في العسل مع صديقته، هيك أفضل لنا، على الأقل ما في مشاكل في البيت، أريح لنا من وجع الرأس، الله يسامحه)!
- هذا هي أنتِ، متسامحة، بل قولي، (الله لا يسامحه)...

وبعد ساعة استيقظت مجددا، صعدنا بالسيارة أعالي جبال عين كارم، من عادتي اختيار طريقا متعرجا مختصرا يعتبره كثيرون خطيرا، لكني أحببته، أمكننا وصول مشفى (هداسا) من هناك دون الاضطرار إلى دخول مدينة القدس حيث سيكون الزحام على أشده خاصة ساعات الصباح الباكر، سألتني:

- هل أصبحنا هنا؟
- نعم، ثلاث دقائق ونصبح في المشفى، احتذي حذاءك، وجهز نفسك بسرعة وتفقّد أوراقك، سوف أتركك مباشرة عند مدخل قسم التحاليل، تحصل على نمرة بينما أبحث أنا عن مصف أركن فيه السيارة، وحتى أجد مكانا قريبا تكون أنتَ قد أنجزت شيئا.
- نعم أنزليني في ذات المكان، طبعا هكذا نختصر الكثير من الوقت!
- جيد جدا يا بطل.
- ماما...
- نعم؟
- لا تبطئي السرعة.
- لن أبطيء ... نحن ذاهبون إلى الحياة، إلى الحياة ذاهبون معا.
- ماما أحبكِ.
- ابني الغالي أنتَ!
- أنت امرأة حديدية!

***

تعاقبت رحلاتنا إلى كازينوهات أخرى في (أستراليا) وخاصة في مدينتنا (بريزبن)، حيث بدا الأمر عاديا، ربما لأن الوجوه هنا تختلف والمجتمع لا ينتقد، أنتَ تقامر وأنا أجلس في الشرفة أحتسي القهوة التي تطلّ مباشرة على النهر، أتأمل وجه السماء المكشوفة وهي ترمي بابتساماتها داخله فيتلألأ نجوما، أنتظرك حتى تنتهي وأذهب بكَ إلى البيت قبل أن يحتشد المكان، المقامرون في أستراليا لا يحزنون، أكثرهم مسنون، يقامرون على بقائهم ويساومون على وجودهم، بدوت شابة بينهم جميعا، أنا أقامر بوقتي من أجلك لكي تكون سعيدا آخر أيامك، أحمل لكَ زجاجة الماء وأنتظرك في شرفة المبنى، أقرأ صحيفة أو أدون قصيدة وأراقب الناس، وأتوه مع النهر والذكريات، بهرتني (بريزبن)، تلك المدينة التي منحتنا الحب والأمان.

بحثت عن موضوعات جديدة أكتبها للصحف، وما أكثرها، وأفكر أيضا في حالك، في حالنا جميعا، جميعنا نجحنا وبدأنا حياة جديدة، هنا أُسقِطنا مجددا فولدنا من جديد، أخواتكَ ينجحن وأنتَ تذبل، نحن سعداء وأنت بدأت تشعر بالحرمان، اعتبرناك رجل الأسرة، تلك الأسرة الهاربة نحو السعادات، وأنتَ، بدأت تشيخ، شخت وما تزال في ريعان الشباب، استمددنا القوة منكَ رغم الشيخوخة التي بدأت تغتالك دون أن تدري، وأدهشتنا، وتساءلنا، كيف استطعت أن تستمد القوة مما بقي لك من روح الحياة، وماذا أضاف لك هذا المكان؟ وتختمر الأفكار في

عقلي، أتوه في عمق أعماقي، وكلما خسرتَ درهما أتألم أكثر، أعبس كثيرا وتبدو أنت أكثر سعادة، وبقيت أتساءل:

- هل باسم سعيد حقا وما الذي يسعده إلى هذه الدرجة؟

علمت أنكَ تساوم القدر على الربح، أنتَ هنا تقامر معناه أنكَ موجود، تقامر على الحياة، هي مسألة ربح وخسارة إذن، ولكي تشعر بوجودكَ يجب أن تكون ثريا لكي تستطيع أن تبقى...وبدأت النقود تنفذ!

طلبت مني نقودا، أعطيتك، تكررت الطلبات، رفضت ولم أنفذ لك رغبتكَ...

أقودك في طريق العودة إلى البيت، نعود واجمان، تجلس بجانبي واجما لأني بدأت أقول لك (كلا)!

***

(دجّانة) تمرح في المكان، لحقت بها (بيضاء) وبنظرة خاطفة منها علمت ما يجري، الأولى غلّها بقاء والدة أحد المرضى بجانبه، مكوثها بقربه يطيل المسافة التي تؤدي به إلى آخر المشوار، الأم حزينة و(دجّانة) تنتظر، أخرجت (بيضاء) الصفحات بيضاء والقلم وسألت عن اسم الفقيد، الأم تسعل و(دجّانة) تفرح، سعال جاف، و(دجانة) ترطب شفتيها بلسانها، الأم تبكي بصمت، ما أصعبه من بكاء، ريح خفيفة تحرّك الأوراق التي بين يدي (بيضاء) التي استعدت تماما لتأدية واجبها، المكان مقفل فمن أين أتت الرّيح؟

روح خفية تتوارى، ثم تعود سريعا فتلف الأجساد الصامتة، تنساب على مهل وتمر بين (دجانة) وباسم، لقد اختارت... يدا الأم ترتجفان وينزف وجهها عرقا، الدّموع تغرق وجنتيها، دموع مالحة حارقة، تجمعت الأرواح فوق رأسه، اشتملته حتى تمكنت منه، لزمته مثل الكماشة، لفّته وغادرت بسرعة، سقطت الصفحات من يدي (بيضاء) فسقطت أرضا، حاولت لملمتها لكنها لم تستطع، ثقل ما يسقط على عنقها هي أيضا، تلعن الظروف التي أدت بها أن تكون ناحبة، جمدت حركة السماء وذهلت الطيور فتحررت أسرابا، سافرت إلى البعيد في وضوح فظيع، اقتربت (دجانة)، رمقت الأم بنظرة سامة، وقبل أن ترحل قالت:

- ابنكِ رحلَ ولن يعود، لكن ما تزال روحه تحوم بيننا، ألا تشعرين بذلكَ؟

- ابني مات وروحه تحوم؟

- نعم، روحه تبحث عن مستقر، ادعِ لها بالسكينة!

- ابني أنا؟

- يجب أن تساعديه!

- أساعده، أنا لا أفهم شيئا؟

- أنتِ تعذبينه بمكوثك هنا وتعيقين روحه من الاسترسال في البحث!

- البحث عن ماذا، ابني مات، مات؟

- لقد اختاره الله الآن، روحه ما تزال هنا، ادعِ له بالسكينة!

- من تكونين؟

- أنا التي ستقوم بغسله وتطهيره قبل ملاقاته لربه، ولا يمكنني الانتظار كثيرا، وأرجو أن تحضري (المعلوم)، واعلمي أني انتظرت وقتا طويلا.

- تطهرينه ممَ، من تكونين ولماذا أنتِ هنا؟ هذا المكان لا يتسع الا لاثنين فقط، للعازفة وللذي بدأ يفارق الحياة، هيلينا تعزف أرقى الألحان الآن فالزمي الصمت، لقد انتقت أجمل الألحان التي تتماشى بانسيابية مع روحه التي بدأت تذوي، تعزف باستمرار على آلة البيانو لكي تترحل لها بهدوء وتذهب لها بسكينة، أنا لست بحاجتكِ ولا هو، إلا إن كنتِ تجيدين العزف، هل رأيت هذا المشهد قبل الآن، ساعات والعازفة لا تتوقف عن العزف، تعزف وهي سعيدة، هل ترين ابتسامتها، لماذا أنتِ عابسة؟ وهل تلاحظين بشاشة وجهها، ساعة وأنت تمدين لي كفك لا أعلم لماذا، ألا تتعبين، أنامل هيلينا لا تتعب أيضا، إنها ملاك نزلت من السماء لكي تساعد الروح بالمغادرة، هي سعيدة لكنها بدأت تذرف الدموع، لا أدري لماذا، الجسد لا يتحرك ووجهه الضئيل بدأ يودعنا منتشيا، هيلينا تعزف وتبكي، أطرافه تتراخى بسلاسة وتؤدة، إنه يغادر سعيدا... لقد توقفت هيلينا عن العزف، انكمشت على نفسها وبكت، ندفت دموعها على البيانو، لقد صمت هو أيضا.

***

نفحة ساخنة لفّت خدي الأيمن، بينما بقي خدّي الأيسر بقي باردا، تخدر نصف وجهي، نفحة أخرى تسحقني فتمر على عجل من بين عينيّ وأخرى تأتي مسرعة فتسبب لي الدوار، دارت بي الدنيا، نفحة أخرى تطؤني، دوار آخر يمسني، تنقلع روحي من مكانها، خدي الأيمن ساخن مثل النار، خبطني سعال مستمر، روحي تذوي والسّعال لا يتوقف، روحي تموت والسّعال يخنقني.

لماذا لا أثور وأملأ الدنيا صراخا، لماذا ما زلت هادئة، الهدأة التي ألمت بي تمتص غضبي، حزني عميق وبكائي مدفون داخل أضلعي، أبكي بلا بكاء، هذا النوع من البكاء لا يريحني، لست مستعدة بعد ليوم فراقك ولست موافقة عليه أبدا، ولماذا لم أستطع مساعدتك لكي تبقى حيّا، ألم أساعدك في السابق؟

وجاءوا لكي يأخذوك مني، لكي يبعدوكَ عني، حان موعد الفراق، أخرجوني عنوة إلى الخارج وقالوا لشقيقتك رورو:

- يجب أن تبعدوا الوالدة من هنا، لا يمكنها استيعاب ما يحصل، لا يمكنها تحمل هذا المشهد لأننا نرى الانكسار داخل عينيها، أخرجوها حالا.

خرجت إلى الشارع العام، هناك لحق بي (ج) صديق العائلة وسرت معه في مسرب خصص للمشاة، سرت معه ما زلت غير مؤمنة أنكَ انتهيت، سألت:

- هل مات ابني فعلا، هل مات أم أنهم أخطأوا بتقديراتهم؟
- لقد مات ويجب أن تتقبلي ذلك! أجابني (ج)
- لكن...
- هو استراح، من حقه أن يستريح!
- أريد أن ألقي نظرة أخيرة، أرجوك!
- أحبذ ألا تفعلي الآن، تعالي نبتعد قليلا!

وعندما أخرجوك محملا بالسيارة، احتضنني (ج) بلطف كأبن يحمي والدته من التعرض لمشهد مؤلم يمكنه أن يكسرها، حاول ورضخت له مستسلمة لأني ما زلت في مرحلة الإنكار، لم أصدق أنك رحلتَ، لكن حالا سرقتني النظرات إليك، سرقت المشهد وأنا بين ذراعيه وألقيت بكل عينيّ إليك، أحسستُ أنك نهضت من كبوتكَ وعبر الزجاج الخلفي للسيارة لوّحت لي بيدك مودعا، سمعتك تقول (ماما، أنا هنا، كذبوا عليكِ، لم أرحل، ما زلت حيّا..) الرؤية صعبة لكني لمحتُ ابتسامتك الرائعة تحتل وجهك النحيل، ثم سمعتكَ تقول (وداعا يا أماه)، حينها خلّصت نفسي من بين ذراعي (ج)، وأردت اللحاق بكَ، لكني توقفت،

شيء ما حثني على التوقف، غابت ضحكتك، غاب وجهكَ، ابتعدت، لقد فارقتني، تعقبتكَ بنظراتي حتى اختفت السيارة كليا، رفعت ذراعي، لوّحت لكَ وقلت بكل هدوء:

- باسم، إلى اللقاء ماما، باسم، إلى اللقاء يا ولدي...

لم أصدّق أنك فارقت الحياة وبدأت أخطط للغد كالعادة، لا شيء تغيّر بالنسبة لي، سأزورك بالغد، سنجلس وسنتحدث، ستخبرني ماذا حصل وماذا فعلت مؤخرا ومن هو آخر من التقيت بهم، ومع من تحدثت على السكايب، وماذا قلت لأصدقائك وأقاربك عني، وبماذا تفوهّت، وهل شتمت على من يحبك مجددا، لأني أعلم أنكَ تعودت على شتمنا، وستخبرني كم ربحت في اللعب، أدركت مؤخرا أنك تخليت عن الكازينو وبدأت تراهن مباشرة عن طريق الانترنيت، لقد اقتصرت أيامك الأخيرة على التواصل عبر الشبكة، فضلت الانطواء لأنك فقدت ثقتك بالناس وبالحياة تماما، ستكذب وسوف أصدقك، ستكذب لأن حياتك كلها تحولت إلى كذبة كبيرة أنتَ صدقتها، بل لكي أوهمكَ أني صدقتكَ لكي لا أجرح شعورك، لأني علمت جيدا أن حالة الكذب التي تصيبك تمنحك بعض السعادة، فليكن، اكذب لتشعر بالسعادة، اكذب، اشتم، أصرخ، افعل ما تشاء، المهم أن تبقى حيّا!

(إيل) جارنا الموسيقار الذي سكن ذات الحيّ قال لي:

- أدركت أن باسم سيفارقنا قريبا، لقد لمحت الموت بين عينيه!

- من أنتَ لكي تقرر ذلك! أجبته غاضبة

- وأنتِ ستلحقين به سريعا، لن تستطيعي تحمل المصاب فروحك معلقة بروحه، أنتما توأمان أتيتما إلى هذا العالم لتكونا معا ولن يفرق بينكما الموت!

- كيف تتحدث معي بكل هذه الثقة؟

- ألا تتوقين للقائه، ألست مشتاقة له؟

- مشتاقة له كثيرا، لكني لا أفكر بالموت الآن، لن أفعل، ثم من تكون أنت لكي تقرر بهذه المسائل؟

- أملك حاسة سادسة رهيبة ولست موسيقيا وكاتب قصة فقط!

- كاتب نعم، أدرك ذلك وقد أهديتني قصة في الماضي، وتملك خيالا خصبا أيضا، لكني أشك بأنك تعلم بالغيب!

- هكذا حدثني حدسي!

- لن تكون سوى إنسان مجنون حقود تكره الحياة وكذلك الناس وتسعد بموتهم، لا أسمح لك أن تكون امتدادا لـ(دجانة)، تنحى من طريقي الآن.

- أنا آسف، إن كنت قد أزعجتكِ!

- لا تلزمني (دجانة) أخرى، سلام.

تركته وسرت في طريقي لا ألوي على شيء سوى أن أعيد ترتيب هندام حياتي مجددا من بعد فراقك، لقد اختل توازني واختل الروتين الذي اتبعته سنينا، أو لنقل لكي أعيد ترتيب أجندتي وأبدأ التدوين من جديد.

بعد أن هدأت روحي قليلا فتحت الجهاز لكي أستمر في التدوين، ما يزال الدوار يلفني، أغلقت عينيّ متعمدة وكأني أطرده، عاد مجددا، بدأ من أذني اليسرى وامتد حتى سقف الغرفة، أغمضت عيني مجددا لكي أستعيد قوتي، لفيف من الأفكار تهبّ على عقلي والدوار يعلن عليّ عصيانه، ألم خفيف يتجمع في حلقي، عدت إلى سريري، السرير يدور ويلف بي، نتأرجح معا، تشبثت به كيلا أقع أرضا، صعب البقاء فيه، نزلت منه بحذر.

***

وجاء يوم وداعك الأخير، سعال عنيف اغتالني، غصّة مميتة غرست داخل صدري، لم أستطع التوقف عن السعال، لقد صدمتني برحيلك، لم أصدق أنك رحلت فعلا، وصلت المقبرة قبلكَ، دخلت حدائق وبقاع تعتبر في مصافي الجنات، سألتهم:

- هل أنتم واثقون أننا وصلنا المقبرة؟
- الحقيقة، تبدو شيئا مغايرا، وكأنها حديقة غنّاء، يجب أن نتأكد!

لا أذكر من أجابني ولم أستطع استيعاب ماهية المكان الجديد الذي دخلناه عبر بوابة عملاقة مفتوحة، كثرت التساؤولات داخلي فشعرت بفقدان للتركيز مثلما تفاقم شعوري بألم الصداع والكتفين والمعدة.

تدرجت من السيارة وبدأت باكتشاف المكان، وجدت مقعدا يتسع لإثنين كان قد غرس تحت شجرة وارفة الظلال، توجهت نحوه وجلست بهدوء وبدأت أتأمل المكان، منذ وفاتك وأنا أفعل كل شيء بهدوء بحجم عزيمتي التي بدأت تتلاشى رويدا رويدا، غلبني الهدوء...شاهدت أسماء مرصوصة منقوشة على ألواح حجرية سوداء، كل لوح لا يتعدى الثلاثين سنتمترا أسقطت على شكل مربع كبير حول شجرة تزهر زهرا أصفرا ومحاطة بنوع واحد من الورود الجميلة، بدت اللوحات متماسكة بحضور وجوه الميتين الضاحكة، صور حيّة لأناس دفنوا هنا، خصصت تلك المنطقة لأجساد الغائبين، علمت أني لست في المكان

الصحيح فجسدك حاضر وهذه المساحة لن تكفيك، عبأت جلّ طاقاتي وبدأت أبحث عن شاهدات لقبور، لا وجود لشاهدات في المكان، اللهم في ساحة ما بعيدة بعض الشيء ملتفة بأشجار الزينة، انطلقت ببصري نحو الأفق ومجددا بدأت أبحث عن المزيد فرأيت من الحدائق الغنّاء ما يذخر القلب بالسعادة، لكني لم أجد لكَ قبرا، أعلموني أني أقف في المكان الخطأ وطلبوا مني استقلال المركبة لكي نصل إلى القطعة التي اشتريتها لك، لكني فضّلت السير، للحظة خطر ببالي خاطر وهو أن أتصل بك وأسألك عن رأيكَ في المكان، اتصلت بكَ، سمعت صوتك في التسجيل الصوتي، طلبتَ أن نترك رسالة، وتركتُ لكَ رسالة:

- باسم، ماما حبيبي، هل تسمعني جيدا، هذا المكان الذي اخترته لكَ من أجمل الأماكن التي رأيتها في حياتي، أنا سعيدة جدا بهذه الحدائق الخضراء، هل يعجبك المكان، أعتقد أني أقف بجانب قبرك الآن، سهول خضراء واسعة وهضاب خضراء جميلة، اخترت لك مكانا مرتفعا، أخبرني إن كنت سعيدا بالمكان!

انقطع الخط وانتهت الدقائق المقررة لتسجيل الرسالة، لكني استطعت أن أكمل الحديث عندما رأيتك مقبلا باتجاهي، وضعوك داخل سيارة الموتى، سيارة فخمة جدا، حيث زينوا التابوت بباقة رائعة من الزهور، قلت لكَ:

- باسم، هل أعجبك التابوت الذي اخترته لكَ أيضا، هل تراه، كل شيء جميل، المكان والسيارة الفخمة وتابوتك المصنوع من خشب الخروب المائل للبنيّ، وباقة الورد الفخمة التي غطت سطحه، هل.
- ماما، ماما، ماذا بكِ، ماذا حصل؟ سألتني شقيقتكَ (زيزي) بنبرة خائفة.
- لا شيء، أتحدث مع ابني لأسأله رأيه، لماذا أنتِ خائفة؟
- ماما، مع من تتحدثين؟
- مع باسم، ها هو آتٍ بهذه السيارة. أشرت بيدي نحوك.
- كيف لكِ أن تدركي أنه هو، يوجد هنا سيارات غيرها وجميعها تحمل توابيتا!
- قلبي أرشدني وأخبرني أن هذه هي السيارة التي تحمل جسد ابني!
- ماما تعالي إلى هنا، انهضي من مكانكِ أرجوك تعالي معي!
- لا تخافي علي يا ابنتي، ما زلت في كامل قواي العقلية ودعيني أتصرف بما يريحني، لقد تحدثت مع أخيك وأخبرته بكل شيء وهو يسمعني أكيد!
- لكنكِ...
- لا تهتمي، والدتك لم تفقد وعيها بعد، لن أفقده، لن...

وتراءت لي ابتسامتك من بعيد، ابتسامة رضا نقشت على سطح غيمة بيضاء أمّت المكان، سطور ما نقشت حول وجهكَ، كلمات لا تشبه أي كلمات تتنقل فيما بينها تسير مع الريح... لم تبتلع الريح ابتسامتكَ!

اضطررت بعد ذلك الانتقال إلى المكان الذي أصبح من نصيبك بالمركبة، فالمساحات الشاسعة هنا شيء لا يوصف، قطعة شاسعة الأطراف تشكلت على صورة مدينة مصغرة تشطرها الشوارع المعبدة، وخصصت مواقف للسيارات، زرت كنيسة في الوسط، وقاعة صلاة كبيرة بكامل مستلزماتها، ناهيك عن نوع الطيور التي فضلت أن تقيم هنا... يا أيها الطير الذبيح

***

اشتقت لكَ بني...اشتقت لكَ يا ولدي...

وفي اليوم التالي وقبل أن أذهب إلى سريري صليت لكَ وطلبت منكَ أن تأتيني بالحلم، حتى لو زيارة خاطفة تسعدني، طلبت منك أن تظهر ولو للحظات لكي أطمئن عليك فظهرت، تحدثت معي وأخبرتني أنك مسافر وأنك تنتظر طائرة الساعة السابعة مساء، اقترحت عليكَ أن آتيك بالتذكرة من مكتب السياحة، تحججت لكَ لأني أردت أن أراك، اشتقت لك يا بني ولكي أقوم بوداعكَ قبل السفر، أسعدني أنك وافقت، فرحت جدا وبدأت أتهيأ للقاء، وعندما نظرت في تذكرة السفر قلت لكَ: (طائرتك ستقلع الساعة السابعة مساء، فكيف تقول لي الثانية، وأين ستقضي كل هذا الوقت انتظارا وأين ستمكث في سيدني)، قلت لي: (سأنتظر في القاعة حيث أنا الآن، لا تأتي إليّ، إياك الاقتراب)، لقد شاهدتك في المنام، وجدتك متعافيا مسرورا، لقد رأيتك، لقد لبيت طلبي برؤيتكَ، لو تدري كم أشتاق لك، لتسترح روحك يا بني، لتسترح!

نهضت من سريري بعد أن تركتك وعدت من الحلم إلى اليقظة، جفّ حلقي، التقطني السّعال مجددا، شهران وأنا أسعل منذ رحيلك، كم هو فايروسكَ الذي نقلته لي عنيدا، سبب لي التهاب بأذني وبحلقي، غصة الصدمة كلها تجمعت في رئتيّ، صدمني فراقك، استنشق الآن عقارا

ليساعدني على استنشاق الهواء وأقوم بترتيب حبيبات الدواء لكي ألتهمها، أريد أن أشفى سريعا، يجب أن أنجز ما بيدي، لن أهمل هذه المذكرات كما أهملتها سابقا فتراكمت الأحداث، لقد أتعبني المرض، لقد أتعبني فراقك!

..... كيف رحلت.....؟

بني، طالما راودتني فكرة تدوين رواية أتحدث فيها عن حياتنا معا، كأم وابن وحيد يعاني منذ كان في السادسة من عمره وحتى عندما أصبحت شابا وأنت تعاني من حالة نادرة، حيث ألم بك مرض آخر مختلف يعتبر من تبعات عملية زرع نخاع العظام التي فشلت، أكتب لكَ يا بني، يا من تركت داخلي الحزن الذي لا شفاء منه.

سابقا، كلما حاولت تدوين قصة حياتي وذلك قبل رحيلك كنت أغوص في بكاء مرير، لم أتحمل استذكار القسوة وكنت قد أجهضت الكثير من الذكريات المرة لكي أنسى، ذهني متعب وقلبي محب للحياة، تهربت من الكتابة لأني بدأت حياة جديدة هنا، لقد أحببتُ ما بدأناه معا هنا.

وكلما دونت حرفا نكأت الجراح من جديد، تلك الجراح التي بدأت تشفى واعتقدتها أصبحت تتخبط في زمن النسيان، كنت واهمة، انقطعت قاصدة عن الكتابة ثم عدت مجددا، وبعد عدة صفحات

تهربت من الاستمرار فيها، دونت أشياء أخرى كثيرة، أشبة بيوميات، لكني الآن وبعد وفاتك ولأني أدرك جيدا كيف أنتهز فرص الكتابة، قررت أن أبدأ من جديد، لأني إن لم أفعل وأكتب الآن بالذات ستكبر الغصة أبدا معي، فأنا التي تدوّن سير حياة الآخرين أشعر بالضعف إزاء هذه المهمة الملقاة على عاتقي الآن، ثم كيف لي التغاضي عما يسكنه قلبي، وكيف لي تجاهل الكلم الذي يخنقني ويسير داخل عروقي حتى النخاع، أحاول تجسيد آلامنا معا، فما حصل من قصص مريعة لأسرتنا الجميلة في الماضي لم تعد تعنيني أبدا، لكني الحق أقوله لكَ هو أني أتحسر على قراري بالرحيل الذي جاء متأخرا، لو رحلنا من قبل لكان أجدر لنا وللجميع، لظلت على الأقل بعض اللحظات الحلوة في البال ولاحتفظنا بها لتكون ذخيرة وكنزا نتغذى عليها معنويا في بلاد الغربة، مع أني لا أوافق على هذه التسمية، الغربة، هي عندما تكون في بيتك وتشعر فيه بالغربة، لكن هذا ما جرى، فالقرارات الصعبة عادة تأتي متأخرة، هنا وفي هذا المؤلف أريد التحدث عنك فقط لأنك شخصية فريدة، جميلة ونادرة، سأحاول ألا أتحدث كثيرا عن غيرك، أنت طلبت مني كتابة قصة حياتك وأنا فكرت في كتابة قصة لجوئنا إلى أستراليا لتكون مصدرا ووثيقة مهمة للجيل القادم، يطّلع عليها أبنائي وأحفادي لاحقا، وسوف أقوم بتأسيس شجرة لعائلتنا هنا تكون أنت حاضرا فيها وبقوة.

عندما أخبرتك أني بحاجة ماسة لجهاز كمبيوتر، فكرت قليلا وقلت:

- بالغد سيكون عندك!
- (شو يعني صاير ساحر وأنا ما بعرف)؟
- (شبيك لبيك وجهاز الكمبيوتر بكرا بيصير بين إيدكِ يا قمر، لكن يلزمني شوية وقت لكي أجعله صالحا للاستعمال).
- الأهم من كل ذلك هو اللغة العربية وأنت تدري أنه لا يوجد شيء في العربية هنا، لا مؤلفات ولا حواسيب ولا مجلات ولا صحف، ولا أي شيء أبدا، وإلا لا تتعب نفسك أبدا.
- ستكون اللغة العربية في حاسوبك خلال ثوانٍ، أما خط انترنيت فلا أعتقد إلا عندما نحصل على الإقامة ونستقر في مكان واحد.

أحضرت جهازا قديما وباشرت بتجهزه ليكون صالحا للاستعمال، فرحت بالأمر كثيرا وبدأت أطبع ما بدأته كتابيا من روايتي الثالثة (سادينا)، تلك الرواية التي دونت أول فصل منها ورقيا أثناء مكوثي في سيدني حيث أمضيت عند (أمل) ابنة خالتي التي قامت باستضافتي حتى موعد وصولكم.. في حينه انتقلنا للسكن معا أنا وأنت وشقيقتك (مرلين) في المدينة التي تدعى (بريزبن) حيث أقمنا في منتجع صغير في منطقة تدعى (هاي جيت هيل) اقترحته علينا الراهبة (دي لورد)، غرفة واحدة وتوابعها، ومن الذكريات الكثيرة التي حدثت في ذلك المكان، أذكر

أنك فقدت توازنك فجأة عندما عانيت من حالة فقدان السكر بالدم، وقبل أن تذهب في غيبوبة أسقيتك عصير التفاح المحلى... لقد استيقظت...

وعندما وصلت شقيقتك (رورو) بعد شهرين انتقلنا معا إلى شقة بتجهيزاتها الكاملة تابعة لذات المنتجع تقع في الطابق الثاني، تشرف على الشارع الرئيس وتطلّ على المسبح أيضا، أمضينا فيها أياما جميلة، قضيناها مرحا وسباحة وتجوالا خلال انتظارنا لتصاريح الإقامة الدائمة، ولن أنسى جملة لفظتها (رورو) عندما بدأنا نشعر بالقلق بسبب نفاذ السيولة، حيث قالت:

- لن نعود إلى البلاد مهما كانت الظروف، وإن خرجنا من الفندق، سننام هنا، تحت ظلّ هذه الشجرة لأنها ستكون أرحم علينا!

واقتصادا للمال خرجنا من المنتجع وأقمنا في شقة في منطقة أنيقة تدعى (يورينغ بيلي)، بكفالة الراهبة التي لولاها لما استطعنا الحصول عليها، بحثت (رورو) عن عمل، فكان ذلك درب من دروب المستحيل أن تحصل على عمل قبل الحصول على الإقامة المؤقتة، قالت:

- سأعمل بأي عمل حتى إن كان الاعتناء بالحيوانات، (بدي أعمل مثل جنيفر لوبيس في فيلمها....)

- سننتظر، أكيد ستفرج. أجبتها

ثم وصلت شقيقتك (زيزي) من الشرق مع زوجها (خضر) إلى بريزبن أولا، أمضت معنا أسبوعا قبل أن تنتقل إلى ولاية أخرى، فكتوريا لإكمال دراستها كطالبة دولية، ماجستير في موضوع علم النفس، قام زوجها بدعمها والوقوف جانبها كرجل جاد وطموح يُعتمد عليه كليا.

عندما أصبحنا عائلة كبيرة بوصول شقيقتك (سوزان)، هي آخر من وصل إلى هنا عدتم جميعا إلى حضني، رقصت ربوة قلبي وتهللت، لم تفرق بيننا المسافات، حينها استكان قلبي واستراح، قلب الأم دليلها، حدسي أخبرني أننا سوف نجتمع معا، من حينها لم أعد أخشى من المجهول ولا من المستقبل، أحسست في دخيلتي أننا سوف نحصل على الإقامة وآمنت أننا لن نصاب بخيبة أمل، ولم نصب، هاجس التفاؤل الذي غمرني دفعني أن أفعل كل شيء دون دليل واضح على بقائنا، جرأة وتمرد ومغامرة خطيرة ما قمت به، ربما هو الإيمان القاطع بأن الله سيعوضنا عما عانيناه سابقا بتواجد قلوب رحيمة تنصف المعذبين والمقهورين أمثالنا، لقد استفقنا على حقيقة أن الدنيا ما تزال بخير، فقمّة الإنسانية تكون عندما نحترم وجع الآخر ونثمّن ألمه.

انتقلنا إلى بيت آخر مستأجر مكون من طابقين في منطقة تدعى (يورينغا)، (سوزان) بدأت بدراستها للماجستير في المحاماة كطالبة دولية

أيضا، فيه دوّنت روايتي الرابعة (الحافيات)، وصدرت سنة ٢٠٠٧، في ذات الوقت التحقت بالمعهد للدراسة وذلك عندما وصلنا أجمل خبر انتظرناه في حياتنا وهو حصولنا على الإقامة الدائمة في دولة بنت شرعيتها على أسس العدالة، توفير الأمان وحماية مواطنيها وضمان حقوقهم.

نقرت ونقرت دون هوادة على أزرار الحاسوب الجديد الذي صممته لي وعندما انتهيت منها، أي الرواية، خرجت من الغرفة وأنا أترنح تعبا، رددت كلمة (انتهيت، انتهت الرواية) صادفتني في بهو الطابق الثاني للبيت وطلبت مني أن أستريح، لكني لم أسترح إلا بضعة أسابيع ومن بعدها بدأت بتدوين رواية أخرى أسميتها (دائما معا)، لا تزال تنتظر الطباعة، سألتني إن كنت أحتاج إلى شيء آخر لكي أنهيها سريعا وأبدأ بتدوين قصة حياتك، لكني انهمكت بالدراسة، ثم انهمكت بفكرة رواية أخرى ملحة، بدأت فيها، ثم غمرتني فكرة أخرى، دونتها، ثم لاحقتني فكرة أخرى اعتبرتها دين كبير عليّ حيث أمضيت سنوات وسنوات وأنا أخطط لها، وهي أن أردّ الصاع صاعين لمن أهملني ووضعني على الرّف متناسيا متجاهلا وجودي، والذي خاطبني في يوم ما قائلا (لا أريدك، ومن تكونين أنتِ، والباب بفوّت جمل، ارحلي من حياتي، يا بنت...الخ) منذ وصولي وأنا أكرر الاستماع إلى أغنية أصالة لكي لا أنسى، (لو ما ندمتش على الأيام اللي أبعدتها، لو ما دفعتش ثمن الغربة اللي أنا

عشتها، لو ما شربتش كاس المر اللي شربتها، مابقاش أنا...)، وها قد حان الوقت الآن لأحقق رغبتي بالإنتقام، بعد أن استلمت الوثائق الرسمية المدرجة على كوننا مواطنون أستراليون، أنا وأبنائي، وبعد أن استلمت إشعارا بالبقاء حينها ضمنت وطنا جديدا يغمرني بكرمه ويلفني بحمايته، يبعد عني الشدائد ويلبسني بعظمته وسخيّ بعطائه، حققت رغبتي الجامحة وهي أن أرد له الصّاع صاعين، (كلا...لا أريدك، أنا التي أقولها الآن وسأعلنها جهارة، لا أريدك) وقلتها له، ولا داعي للتفاصيل، لم يكن انتقاما عاديا ولا حقدا مكنونا، لكنه نوع من الإصرار والتحدي لاستعادة بعض من كرامتي...وقلتها له وكررتها (لا أريدك.. أنا الآن لا أريدك).

ثم انتقلنا إلى بيت آخر في منطقة أخرى تدعى (كامب هيل) هناك قررت تدوين مؤلف (ربيع المسافات) تحدثت فيه عن رحلتي إلى أستراليا، وصدر سنة ٢٠١١، دونت وترجمت فصولا كثيرة منه أثناء وجودك في العمل، لقد عملت بكد ونشاط، استعدت نشاطك وحيويتك وصحتك بعد أن منحك الأطباء دواء جديدا لم يدخل سوق الأدوية بعد والذي ساعدك كثيرا، أخبرني الطبيب عندما سألته عن كنه الدواء قائلا: (الدواء مكلف جدا، لن يوقف المرض لكن سوف يؤخر انتشاره)، وكذلك انخرطت شقيقاتك بالدراسة وأعمالهن، انخرطن جميعا في المجتمع وتأقلمن فيه بسرعة... يا لدهشتي فيهن!

وانتقلنا أخيرا إلى منطقة أخرى، أقمنا في بيت آخر في منطقة تدعى (زيلميا)، أخيرا وصلنا محطتنا الأخيرة بسلام، استقامت الأمور تماما ومنينا بالاستقرار خاصة بعد أن حصلنا جميعنا على الجنسية الأسترالية، سعادة لا توصف هي عندما تشعر أنك تنتمي إلى مكان ووطن جميل تدرك أنه لن يخذلك أبدا، بل يمنحك الأمان والحب، وحكومة محكومة بالقانون تقف جانبك أوقات الضيق والشدائد، لا وجود لزعامات أو محسوبيات، فيه بدأت تدوين رواية (قلوب لمدن قلقة)، وصدرت سنة ٢٠١١، من حينها بدأت أشعر بالعزلة تماما عندما تبدّلت أفكارك وأصبحت تصرفاتك لا ترضي لا عدو ولا حبيب، وبدأت صحتك تسوء وتوقفت عن العمل، ذبلت أمامي ببطء، انغمست أنا في الكتابة لكي أهرب من أفكاري، وأنت عزلت نفسكَ عنا جميعا وجلست ساعات في غرفتك وحيدا، تفاقمت مشكلة الوسواس القهري لديك وظهرت جليا وأصبحت قليل الصبر، وأنا بدوري هربت إلى الكتابة مما أثار حفيظتك، وحتى الآن لم أعلم ما الذي حصل!

***

قلت لي:

- أتحداكِ إن استطعتِ تدوين قصّة حياتي؟
- لماذا لا أستطيع فأنا أكثر إنسان يستطيع، أم أنك لا تثق بقدراتي الكتابية!
- أثق بكِ مع أني لا أثق بأحد، ثم، لم أقرأ لكِ سوى القليل، لا أعرفكِ سوى امرأة عادية جدا!
- أنا بالفعل امرأة عادية جدا، ماذا يجب عليّ أن أكون، لأنكَ تشاهدني وأنا أطبخ وأكنس وألملم النفايات فقط، لكني في الحقيقة المتوارية أنقلب إلى أخرى عندما أبدأ في الكتابة؟
- لذلكَ كرهك والدي؟
- هل كرهني فعلا!
- هل ما زلت تشكّين بذلك؟
- اسأله لماذا كرهني، ألست على تواصل معه، أسمعك تتحدث معه دائما عبر السكايب!
- سألته وقد أجابني!
- جيد، مهما كان جوابه فلم يعد يعنيني بشيء، لقد خرج من حياتي، لقد انتهى نهائيا!
- نعم خرج، لكن، ألن يعود مجددا؟

- طبعا لن يعود، أبدا، ثم، هو مرتبط الآن بأخرى، هل بدأت تهذي، دعنا من هذا الموضوع الآن، دعنا نقلب الصفحة؟
- كنت أتمنى لو أنكِ اخترتِ مهنة أخرى غير الكتابة، الكتابة لا تزيد من رصيدك المادي، فكري بأمور أخرى تدر عليكِ بالربح الوفير.
- المال لا يهمني، ما يحمله هذا الرأس (أشرت إلى رأسي) ثمين جدا لا يمكنه أن يقدّر بأي ثمن حتى لو كانت ملايين، حتى أنتَ أقرب الناس لي لن تفهم ما يدور هنا، لا عليكَ، تعال نبحث في موضوع آخر نتحدث فيه، على كل حال، لم يكن هذا رأيكَ سابقا، ما الذي تبدّل، ألم تكن أنتَ أول المشجعين لي، هل تذكر عندما رأيتني أتسرق الكتابة وكيف ساعدتني باخفاء القصائد والنصوص من عيني والدك، ثم من الذي جهز لي أول حاسوب وآخر حاسوب لكي أكتب وأنا مرتاحة وسهّل علي الأمور، ألست أنت؟
- نعم، أذكر جيدا عندما سقطت منكِ مادة فقرأتها، يا إلهي كم أعجبت بها حينها وأتذكر جيدا أين خبأت النصوص وكيف سرقتِ اللحظات لكي تكتبي دون أن يدري، لكن الأمر تبدّل الآن!
- ما الذي تبدّل الآن، لقد حان الوقت لكي أعود إلى الكتابة بعد أن انقطعت من ممارستها مدة طويلة، لقد ولدت وهذه المَلَكة ولدت معي، لا مجال لتوقيفها أو تمويتها، لن تموت ولن أوافق على تموتيها مجددا لكي أرضي أحدا بعد الآن، ثم لقد نذرت نفسي لكَ وللكتابة!

- هل ستقولين الحقيقة عني إن فعلتِ، هل سوف تفشين جميع أسراري؟
- إن طلبتَ مني ذلك فالقلم سيفعل!
- أحكي كل شيء عني، أخبريهم أني...
- إنكَ ماذا، لماذا توقفت عن الكلام!
- أعتقد أنه يجب أن نجلس معا ونتحدث في أمور خفية، هنالك أشياء كثيرة لا تعرفينها عني أريدها أن تدوّن!
- بل أعرف عنك كل شيء ألست والدتك؟
- لأنكِ والدتي لا تعرفين عني سوى الذي تريدين معرفته!

غفلت من معرفة جميع أسرارك، لكل شخصية أسرارها، لكني أدركت أخيرا أني أواجه شابا غامضا، بل لنقل عجوزا غاضبا، لقد تحوّلت إلى رجل عجوز فجأة، شكلك وصورتكَ، ذبول بشرتكَ، عيناك الغائرتان ووجومك المستمر، كبرتَ كثيرا، كم اشتهيت صورتك الطفل، اشتقت لبراءتك وحيويتك، وبدأت أكتشف أشياء خفية، هل قلب الأمومة ضرير أمام عيوب الأبناء؟ تساءلت في أعماقي عندما وجهت لي الكلام قائلا أثناء وقوفك أمام المرآة:

- لم أعد أشبه نفسي لقد أصبحتُ مسنا!
- .....

تركتَ المرآة والتفتَ نحوي وخاطبتني:

- لماذا لم تفعلي؟
- أفعل ماذا؟
- لماذا تركتِ المرآة معلقة على الجدار، هل مللتِ مني، هل أصابكِ الملل (وصرختَ)!
- لا أفهم شيئا، ماذا حصلَ وماذا بها المرآة؟
- عندما كنت طفلا، عندما استدركتني مظاهر المرض الذي ألّم بي، وعندما بدأ شعري يتساقط ووجهي الذي اكتسى شحوبا والذي لم يسترد عافيته أبدا بعد ذلك نزعتِ المرايا المعلقة في بيتنا من مكانها وخبئتها في المرفأ، هل تذكرين ذلك، لقد خبأتِ المرايا لكي لا أرى نفسي...
- هل فعلا فعلتُ ذلكَ؟
- هل نسيتِ أم أنكِ تتظاهرين بالنسيان؟
- صدقني، لقد نسيتُ، أنا أجهض الكثير من الذكريات قاصدة، لو أردت تذكر كل شيء لمَ استطعت الاستمرار في الحياة.
- بل أنتِ ممن لا ينسون!
- أنا، بل العكس تماما، من قال لكَ؟
- هل يمكنكِ نسيان ابنكِ إن رحل، ماذا ستفعلين إن حصل وغادرتكِ؟

- .....
- وتصمتين مجددا، نعم، تتهربين دائما من الإجابات، لماذا لم تزيلي المرايا يا أماه، هل أصبحتِ تتعجلين موتي، هل بدأتِ تتمنين التخلص مني؟
- جميعم يتلذذون بظلمي، حتى أنت تظلمني يا بني!
- .....
- لا تظلمني .... لماذا تظلمونني...جميعكم ظلمتموني...تعرفون أنفسكم.

***

لا مجال من التهرب من هذه المهمة الصعبة، فمهمة أن أدوّن مصائبي لنفسي تعد فاجعة بحدّ ذاتها، أخشى من يوم يأتي ومن قرار خطير ربما اتخذه وهو أن أقرر نشر ما أكتبه حالا، أو أن أمزق كل ما كتبته حالا، أردت الاحتفاظ بالنص في مكتبتي حتى يحين الوقت، أشعر ببعض الغبن لذلك ترددت بنشره، لكن إن حصل وفارقت الحياة قبل نشره سأكون جبانة فعلا لأني لم أدافع عن نفسي حتى بعدة صفحات ربما تصل أيديكم وربما لن تصل أبدا، ولماذا لا أطالب باسترداد كرامتنا جميعا عبر هذه الصفحات بعد أن سلبت منا حقوقنا، ليكن هذا المؤلف ردا لكرامتنا.

إن حصل وخرج هذا المؤلف إلى النور آمل أن يستفيد منه الآخرون وأن تكون سيرة حياتي عبرة يتعلم منها من يريد أن يعتبر، بهذا المؤلف سأدوّن قصة حياتي مضمنة بعض مراحلها المؤلمة فقط، ليس انتقاما ولا لتصفية حسابات، أبدا، لا أفكر بهذه الطريقة، بل، لأنه آن لي الأوان أن أغتسل من الذكريات البائسة وأن أمحو ذكريات مؤلمة وحكايات حزينة حصلت لي في مراحل كثيرة من حياتي، مراحل أكرهها ولأني نسيت فصولا كثيرة من الحكاية قاصدة ذلك أم لا، ولأن حكاية عمري طويلة جدا لذلك أختصرت، وحسب ما قاله ابن بلدي الشاعر الكبير محمود درويش (هذا هو النسيان، أن تتذكر الماضي ولا تتذكر الحكاية)، ولأني أطالب لنفسي بالحياة مجددا كتعويض عن السنوات

التي ضاعت مني سأكتب، لعل الكتابة تنتشلني من قهر الذاكرة فأنسى، الكتابة بالنسبة لي تطهير للنفس وأداة مساعدة بها أزيل إنفعالاتي الحسية، وتنقي ذهنيتي المصابة بالحزن، سأنتحر بالكتابة وسوف أشفي غليلي فاستحضاري لشخوص من الماضي ما هو إلا انتحار، الآن أركب موجة الرواية مجددا، وسأنحي جانبا رواية سابقة لم تكتمل بعد لكي أبدأ من جديد بهذه.

أدرك تماما أنه لن يفلت منها شخص كان قريبا في يوم ما وأصبح فيما بعد بعيد جدا، أنا لا أتقصد إيذاءه، بل لأنه لا يمكن لهذا العمل أن يكتمل بتجاهل وجوده، سأحاول قدر الإمكان عدم التعمق كثيرا في التفاصيل، ليس ارتيابا، بل احتراما لأيام مضت كنا فيها عائلة نموذجية، بل كنا من أجمل العوائل التي يحتذى بها، وأجمل ما صنعته مع هذا الرجل، المنسيّ تماما الآن، هو تكويني لعائلة نموذجية وبنات أفتخر بهن، لم يتبق لي سواهن الآن بعد وفاتك يا بني، وربي عوضني عن غيابك بحفيدة أثمّنها بروحي، (أنجلينا) الطفلة التي أضافت إلى حياتي حياة، ابنة الثلاث سنوات تقريبا هي أول من سيعتني بغرز شروش المستقبل التي زرعتها هنا في أستراليا، البلاد الذي يعتبرها الآخرون غربة، هم مخطئون، هي بالنسبة لنا وطن تشرق منه شمس قلوبنا جميعا.

أضع هذا المؤلف بين أيدي القراء، وأتمنى أن يطالبوا هم بالعدالة المنسية نيابة عني، تلك العدالة التي لم أستطع الفوز بها.

*

الزّمان، نهاية سنة ٢٠١٠، المكان، مدينة (بريزبن) في أستراليا، الوقت، بعد منتصف الليل بقليل. استفقتُ على حالة اختناق، شهقة عميقة وشخير لا ينقطع، حثني قلبي على النهوض ورأسي الثقيل يمتنع، خضتني لحظة الموت ثم أعادتني إلى الحياة مجددا، هكذا أحسست، لم أكن واهمة، جلست في سريري وأنا أحاول استعادة أنفاسي من خطف الموت، أعلم أن قلبي سليم، لكني شعرت بعزرائيل ينتظرني في الباب، وتساءلت، (لماذا الآن)، (وهل انتهت حياتي فعلا)، (حتى هنا يتوقف العمر)؟ (كم هي قصيرة الحياة)، (لا أريد الذهاب الآن)! إن كان هو مصيري المغادرة الآن بالذات فلماذا أعادني الله إلى الحياة إذن، أخافني شعور المغادرة كثيرا، قاومت النعاس وقررت عدم العودة إلى النوم خشية من أن يغافلني الموت الأكيد حقا.

الحيوانات الليلية في حديقتي تتنازع وتتصارع، أسمعها فتزيدني من حالة الحزن التي ألمت بي، من خلال النافذة حاولت الاطلاع على ما يجري خارجا، لم أتمكن من الرؤية لأن السحب الثقيلة كانت قد غيبت نصف القمر الذي لاذ خلفها غاضبا حاقدا على السماء المكفهرة، أعتم

الكون تماما وبكى القمر وبكيت معه، لقد ترك لي نصف دمعه وتركت له باقي الأنصاف، مسحت دمعي بيدي المرتجفة، لم يسمعني أحد، لا القمر ولا أنتَ فتعودت بعد ذلك على ذرف أدمعي الحارة التي سلقت قلبي المحموم وحرقت صدري الثقيل بالخفاء!

اعتدت إطفاء المصابيح في الحديقة لكي لا أقلقك، أعلم جيدا أنك بالكاد تستطيع الاسترسال بنوم عميق بسبب الأوجاع القاتلة التي تصيبك، تلك الأوجاع المبرحة التي حولتك إلى ابن ضال، ولكي لا تسألني عن الخطب فأنا بنظرك أم تعودت على البكاء، وبكاء النساء عادة يكون أشبه ببكاء التماسيح، هذا ما لقنوك إياه، ولكي لا تتهمني بالجنون إن أخبرتكَ أني عدت من الموت، أو لنقل، جنحت من حياة أخرى إلى الحياة، لا أعلم ماذا حصل تحديدا، المهم هو أني احتفظت بهذا السرّ لنفسي، ولأني جنحت إلى الكتابة الجريئة كملاذ يقيني من شرور كثيرة كتبت بلا قيود، لكن ليلتها لم يخرج مني حرفا أكتبه.

وبدأت تساومني على ابتساماتي، من لقنك القسوة، من هو أو هم، أعرفه أو أعرفهم، هل يستغلون ضعفك الآن لكي يبثوا نيرانهم في بيتي الآمن، سأتحدث عنه، هذا الذي شحذ سكينه الباردة ووضعها على عنقي وعنقك.

بدأت تسخر من نجاحاتي، ما الذي نفذ إلى عقلك المتعب فغلظت أحاسيسك، أذعنت له حتى نسيت لوهلة أني والدتك ولي عليك حقوق، هزأت مني معقبا:

- (أنا مش عارف لمين عم تكتبي)؟

- أكتب لنفسي!

- كل هذا الجهد الذي تبذلينه...لنفسكِ!

- نعم لنفسي، وإن أحب أحد مشاركتي بما أكتب أكون سعيدة جدا!

- صحيح إنكَ مـ..

- إن أردت تجاهل ما قلته سأكمل عنك الكلمة، (مجنونة) وربما قصدت القول (موهوبة)، قلها، لماذا تسكت، أم قصدت شيئا آخر مغاير!

- والله أبي معاه حق!

هو والدك الذي بدأت تخضع له إذن، كم من المرات تساءلت فيها عن أسباب تقلبات تصرفاتك وعمن يقف في الكواليس يلقنك الدروس، هو إذن، ولكي يبرر سبب أخطائه الكثيرة للآخرين، ولكي يضعني أنا موضع

الشك والتحفظ، وكما تمنى لي أن أصاب بالجنون فأفقد مهارة الكتابة والذي حاول مرارا أن يحولني إلى امرأة (مجنونة) فاقدة لعقلها، أتى دورك الآن لكي يبث لكَ من بعض سمومه، أعتقد أن والدك قد نجح باستمالتك إليه لكي ينتقم مني، ما زالت كلماته تطنّ في أذني عندما توعدني قائلا: (ما راح يكسرك إلا باسم، ما في شيء بالدنيا راح يكسرك إلا هو وأنا راح أعرف كيف أخليه يكسرك)!

أذكر جيدا عندما شكا لأصدقائه قائلا:

- أنا مرتبط بامرأة مجنونة، تستيقظ في منتصف الليل لكي تكتب، أنا زوج مخلوقة مجنونة، المرأة يجب أن تكون ملكا لبيتها فقط، المرأة الكاتبة ما هو إلا خطأ تاريخي لا يغتفر، ستنسى زوجها وأبناءها وكل من يحيط بها، خطأ كبير إن أصبحت كاتبة، لست موافقا!

أجبته بتعال:

- لكني أصبحت وها هي الصحف مليئة بمقالاتي وصوري أيضا!
- أخبرتك مرارا أني غير موافق، ستصيبك الكتابة بالعجز، ثم، من سيقوم بكل هذه المهام الملقاة عليكِ؟
- ولماذا يجب أن تبقى جميع هذه المهام ملقاة عليّ أنا وحدي وأين هو دورك؟

- أنا أخيركَ، أو أنا أو الكتابة!
- لماذا تخيّرني، أطلب منك الوقوف بجانبي وأن تشجعني، أنا بحاجة ماسة إليك الآن وما بداخلي لا يمكنه الانتظار، سأختنق إن توقفت عن الكتابة، دعني أفعل شيئا من أجل نفسي هذه المرة!
- لكنكِ تهمليني تماما عندما تبدئين الكتابة!
- امنحني شهرين لكي أنجز ما بدأته، شهرين فقط وأكون معك!
- بل لن أمنحك ساعتين، هيا جهزي لنا العشاء، ثم لا تنسي أن تجهزي نفسكِ بعد العشاء سنذهب إلى الأصدقاء لكي نسهر معهم!
- السهر ما هو إلا مضيعة للوقت!
- كيف تريدين لنا أن نتسلى، بمن نتونس يعني؟
- اذهب لوحدك، هذه الساعات الضائعة التي أشاركك فيها لا تؤدي ولا تجيب وتسبب لي خسارة فادحة، هي خسارة، أنا لا أملك الوقت الكافي لكي أضيعه، ينتظرني الكثير لإنجازه، أحبذ القراءة أو الكتابة وأفضلها عن تلك السهرات المملة المكررة.
- الآن أصبحت سهراتنا مملة؟
- لو كانت سهراتنا مفيدة لمَ تمنعت؟
- ستأتين معي ولن تتفوهي بأي كلمة، لا تلزمنا آراؤك ولا تشاركي بالحديث لأننا لسنا بحاجة لها!
- لست بكماء!

- يجب أن تكوني بكماء، آراؤك تزعجني كثيرا!
- لماذا تزعجك، لأنك لا تملك ما أملكه!
- ماذا تملكين أكثر مني يا بنت ألـ.....
- سيأتي هذا اليوم.
- أي يوم؟
- يوم الندم، بل أيام الندم، ستأتي وأعدك بذلك!

سئمت تلك السهرات والبقاء مثل البكماء طوال الوقت... وقد اخترت القلم، هذا القلم الذي هو أوفى منك ومنهم!

لقد اخترت...

هل تشعر بالندم؟

***

أعود أو لا أعود إلى سريري، هذا ما كنت أتساءل عنه، إن عدت ومن كثرة الإرهاق سوف أنام ولن استيقظ إلا صباحا بعد أن أحصل على قسط وافر من النوم، أو ربما لن أستفيق أبدا، هاجس الموت بدأ يؤرقني، لا مجال للتردد، التعب ينال مني وألم كتفيّ بدأ ينهال علي مثل بلطة كاسحة، هذا الألم الذي لم يجد له الأطباء تفسيرا حتى الآن، جميعهم أجمعوا على أن سبب الألم بسبب التوتر والغضب الهادئ الذي يتجمع داخلي، قررت بعد مشاورة طويلة مع نفسي أن أعود إلى سريري.

ذهبت في نوم عميق بينما صوت معركة حيوان البوسوم مع قطة الجارة يصل إلى مسامعي، دائما يتعاركان على السور الفاصل بين حديقتي وحديقة جارتي التي لا أعرف اسمها حتى الآن، ومنذ انتقالنا إلى هذا البيت قبل سنتين من الآن، امرأة في الأربعين من عمرها، مقعدة، تعاني من شلل الأطفال، ولدت نمت وكبرت معه، جميلة الملامح، بدينة بعض الشيء، بيضاء، بشرتها باهتة، شعرها منثور دائما، صوتها جهوري، يوقظني ندائها كل صباح عندما تنادي قطتها، أو عندما تستقبل مكالمتها الهاتفية في موعدها دائما، لو تعلم كم تمضي قطتها المسكينة في عراك طاحن مع الحيوان الجرابي الذي يتصدى لها كل ليلة!

الهاتف عند الجارة والتي سوف أدعوها (سارة) يرن باستمرار، الأخيرة تتأخر في الرد، ربما تكون بعيده عنه، وحتى تتحرك بكرسيها المتحرك فتقترب منه يكون قد توقف عن الرنين، أو ربما تكون في الحمام، أو ربما تكون قد ماتت فجأة، أو... لقد التقطت السماعة أخيرا، استقبلت مكالمتها بصدر رحب، ضحكت، تحدثت بصوت عال، إنها على موعد اليوم، سوف تقضي يوما جميلا بصحبة بعض الأصدقاء الذين يتناوبون على اصطحابها إلى الأماكن العامة أو إلى السوق التجاري الكبير وتشاركهم رحلات الشواء على الشاطيء أيضا، وحتى في الملاهي الليلية تبقى جالسة في مقعدها وهم يتراقصون ويتقافزون حولها، تعلم (سارة) كيف تعيش يومها، تمنيت لو تتعلم يا بني بعض دروس في الحياة من هذه المقعدة التي لا تستطيع حتى أن تمشي أكثر من خطوة واحدة، تلك المرأة التي تعيش جميع تفاصيل الحياة مثل امرأة عادية جدا، تمنيت لو تخرج إلى الحياة مثلها!

قالوا في نشرة الأخبار أن الجو سيكون ماطرا اليوم وستكون الحرارة فوق معدلها السنوي، هذا هو صيف (بريزبن) الأسترالية، جلست في مقعدي الثابت أمام الصندوق المتحرك أتابع الأخبار العالمية، لا شيء آخر أستطيع أن أفعله سوى المكوث بهدوء، حرصا على عدم إصدار أي ضجة أو حركة تقلقك، وإن حصل وصدرت أي حركة يرتفع صوتكَ وتبدأ بالصراخ، يا لك من شاب يتصرف بصبيانية محيّرة...

الحارة الهادئة مكونة من عشرة بيوت فقط تزدحم فجأة، سيارة شحن كبيرة تضل طريقها فتسلك مسلكا مغلقا، لقد تورط السائق فعلا بالدخول، لم يقرأ الإشارة في الفتحة قبل أن ينحرف، لا مجال للإستدارة، الشارع ضيق والرصيف يحاذي المعاشب الخضراء، إن اعتلاه فستغرس العجلات في التربة المشبعة بالماء، صدرت شتيمة منك، (شيت) اللعنة، ثم شتيمة معترف بها، (فاك) ... شتيمة أخرى معترف بها أيضا. أصبحت الشتائم لغتكَ:

- تبا تبا تبا، شتيمة باللغة العربية الفصحى، (غير معترف بها هنا) من هذا الغبي الذي دخل الحارة، الضجة تملأ المكان، لقد سبب لي الأرق ودعاني أستفيق من النوم، سوف أخرج لكي ألعن أبوه وأبو أبوه الكلب ال...."، (شتيمة عربية سوقية، غير معترف بها أيضا)!

فتحت باب غرفتك بحزم وقسوة لم أعهدها من ذي قبل، خرجت منها وأنتَ تتوعد وتهدد السائق الذي ضل الطريق وتابعت:

- هذا الغبي الحيوان لا يفهم أنه ممنوع من دخول هذه الحارة، لقد أقلقني، كيف لي العودة إلى النوم الآن، سوف أتصل بالشرطة، أين هو الهاتف؟

- لا تفعل يا بني، اصبر قليلا.

- أتمنى ألا تكوني قد استعملته قبلا لأني لن أستعمله من بعدكِ، لن أضطر إلى غسل يديّ وتعقيمهما الآن أيضا مثل كل مرة، سوف أتصل بالشرطة من الخليوي خاصتي، هل تعرفين رقم قسم الشرطة؟

- نعم أعرفه، ثلاثة أصفار (...)!

ثلاثة أصفار، رقم يذكرني بشيء ما، هذا الرقم يوحي لي بشيء، هو دليل قاطع على أنه يوجد شيء ما داخل الذاكرة، هذا الرقم محفور في عقلي، إنه رقم غال علي كثيرا يا بني، لو تدرك ما الذي أفكر به الآن بالذات، هذه الأصفار أعادتني إلى الممرضة (يوخي) عندما أشارت بأصابعها الثلاث من بعيد على رقم ثلاثة وصرخت من أعماقي ناديتك قائلة:

- هل تذكر هذا الرقم؟

- لا أجد الموبايل خاصتي، سأضطر إلى استعمال الهاتف وأمري لله! أجبتني محتدا.

- لم ألوثه بالخراء يا بني، ثم اصبر على الرجل، لقد ضلّ طريقه، هذا كل ذنبه المسكين. هل تعتقد أنه راضٍ، سوف يخرج من الحارة سريعا، هل تذكر هذا الرقم!

- هذا الرقم لا يعنيني بشيء، لماذا تكررين علي ذات السؤال هل أصبت بالخرف؟

بدأت ألاحظ بعض الطباع غير الإنسانية وتصرفاتك المسيئة للمحيطين بك حيث بدأت تحتقر الآخرين، وبدأت تميل إلى طباع عدائية وتقلل من قيمة الآخر، تظهر ضعفهم وتعتقد أنك متفوقا على الجميع، محب للسيطرة، معتز بنفسك بشكل مفرط مما يدع الآخرين التحفظ منك والابتعاد عنك.

ومؤخرا أصبحت مشكلة الوسواس القهري تتفاقم، قمت بتعقيم كل شيء يمكن أن يلمس، سماعة الهاتف، أيدي الأبواب، يد البراد، أزرار الفرن أو الغاز، حنفية المغسلة في الحمام، حتى أنك خصصت لنفسك قطعة صابون وحظرت عليّ من استخدامها، لم تعد تتقاسم معي لقمة الخبز كما كنا في السابق فأصبح لي رغيفي ولك رغيفك، ولكي تكون واثقا أشرت بالقلم العريض على مغلفات الأشياء التي اقتنيتها من السوق ولكي ترضي إحساسك بالهوس، خاصة بما يتعلق بكل شيء يؤكل وممكن أن يدخل إلى معدتك مباشرة، أقلقك خوفك الدائم من انتقال الجراثيم إليك، أو الغبار إلى طعامك، كل ذلك بدأ يزيد الفجوة ما بينك وبين المحيطين بك مما أضاف إلى رصيد مرضك أعراضا سلبية أخرى، امتنعت من الخروج من البيت وإن حصل وخرجت تتعمد

الابتعاد من الآخرين، اخترت الجلوس في أماكن آمنة مبتعدا من الجميع معللا ذلك بأن جميع الأماكن مليئة بالجراثيم، ناهيك عن أنك بدأت تخشى الموت، هذه الفكرة التي بدأت تستحوذ على تفكيرك وتحاصره بشدّة.

سألتني مرّة:

- هل تخافين من الموت؟
- لا أفكر به!
- إذن أنت تخافينه!
- لا تتحدث عنه، على الأقل ليس الآن!
- إذن أنتِ تتهربين منهُ! قلتَ
- لأني أملك الشجاعة!
- الشجاعة بمواجهته وليس التهرب منه وتغييب الفكرة!
- كيف تريدني مواجهته؟
- فكري به مثلي!
- .....
- لماذا تصمتين؟ سألتني حازما
- ولأني أفتقر تفسيرا للموت أحبذ عدم التحدث عنه! أجبتك

التحفت بالصمت المقيت، وجوم قبيح ألّم بنا، كل واحد فينا التحف بصمت ذاته، بحثت عن كلمة تزيح عنا الصمت الكثيف الذي اغتشينا به، أنا من تصنع الكلمات تصاب بالعجز أمام الصمت الرهيب، بحثت عن كلمة واحدة تكسر هذا الصمت اللعين لكني لم أجدها، حينها بدأت أشعر بشيء مخيف، أحسست أنك بدأت تنكّس علم وجودك، خشيتُ من أن تسدل الستارة على حياتك، خشيتُ من النهاية، دائما خشيت من اقتراب النهاية.

***

من خلف الستارة أرسلت نظراتي إلى الخارج، السكون المميت يلف الحارة تماما، النافذة معرقة والأشجار تبكي، العشب الأخضر مشبع بمياه المطر فازداد اخضرارا، الملعب في الطرف الآخر محاط بسور خشبي، الهضبة العالية أمام الدار فارغة من الناس كالعادة، والمياه تأخذ مجراها حتى محاذاة الرصيف، بالكاد يستوعب المجرى مياه الأمطار المتدفقة التي انسابت وبدأت تتدافع حتى المسرب، شجرة الصنوبر في الحديقة فارغة من الطيور بسبب الأمطار الغزيرة التي هطلت على مدار أيام، تزودت جميع الكائنات بالقوة والإرادة لمواجهة العاصفة القادمة، جميع الكائنات تعتمد على نفسها في البحث لها عن ملاذ في أماكن مجهولة أكثر أمنا لا يدركها إلا هم، كيس أسود ممتلئ بالعشب المجزوز مطروحا على الأرض كان قد نسيه العامل عندما جز المعشب قبل أيام، سأبقى في البيت إذن، وحيدة تماما حتى لو كنت تشاركني ذات الدار، أنت تعتكف وحيدا في غرفتك طوال الوقت، إما نائما أو تتابع الفضائيات عبر النت مغلقا على نفسك الباب ... لقد نسيتني تماما.

سوف آنس بنافذة غرفة حمام (سارة) المضاء، جارتي سارة تستحم إذن وفي هذه الساعة بالذات، ترى كيف تستطيع التدبر وحدها، تساءلت، كم آنستني نوافذ الآخرين وكم ساهمت في ارتياد محافل الذكرى، خاصة غرف الحمامات التي تستوعب دائما زواحف أرضية وأخرى

متشبثة، مكروهة الكُنى وقرينة القبح، عادة تتخذ الأماكن الرطبة حصنا منيعا لها ... لا أهذي!

نؤت بذاكرتي نحو البعيد وتوقفت عند عتبة سنة ١٩٩١، المكان، ضيعتنا في فلسطين، الزمان، أثناء حرب الخليج، عندما غرقت البلاد بالسواد وبدأت تترقب الهجمات الصاروخية الآتية من العراق، تسع وثلاثون صاروخا استطاعت أن تخترق السماء الخائفة والتي سببت هلعا وخوفا في صفوف الناس العاديين وغير العاديين فتحصنوا داخل بيوتهم بعد أن قاموا بلصق مواد عازلة تحجب الهواء وتمنعه من التسرب عبر النوافذ أو الأماكن المفتوحة، الحرب هذه المرة مغايرة فلن نحتاج فيها إلى ملاجيء أرضية بل فوقية بما أن الغازات السامة تجد لها المناطق المنخفضة مستقرا، بدأ السكان في فلسطين يفعلون المستحيل لكي لا يضطرون إلى استنشاق المواد السامة التي ستطلقها الصواريخ المحملة بها.

أُلزمنا بارتداء الأقنعة الواقية، ارتديناها فتحولت وجوهنا إلى وجوه أشبه بالخنازير، لا أحد أفضل من أحد وقت الشدائد، في الحروب جميعنا نتحول إلى خنازير، لا خاسر ولا ربحان، الحرب هي الحرب وحيوان الخنزير يبقى خنزيرا، ويتحول الإنسان وقت الحروب إلى أكبر وحش.

أما الأطفال المولودون حديثا فقد خصصت لهم مهادا صغيرة مزودة بعازل تمنع من تسرب السموم، الهلع من هجوم محتمل أدى إلى خلو الشوارع من الناس الذين اعتكفوا داخل بيوتهم بعد أن انهمكوا بتحضير المؤن واللوازم والكثير من الحاجيات استعدادا لحرب مدمرة شكلها مختلف، ربما تطول وأنفع مئونة لهذا الوقت العصيب هي المعلبات بجميع أشكالها التي لا يمكن أن تتسرب إليها الغازات السامة.

راقبتُ الأحداث عن قرب وتمنيت وصليت كثيرا ألا تحدث، ولو استطعت أن أغير شيئا لفعلت، لكن العالم قد أشاح وجهه عني وأنا أقيم في تلك الضيعة البعيدة، النائية والقريبة نسبيا من الحدود في شمال فلسطين، ومن هناك انطلقت حربي الأولى مع القدر، الأولى قصة ارتباطي الفاشل برجل متغطرس، والثانية ترقبي لحرب مدمرة فعشت حربين داميتين لكن بأسلحة مختلفة.

هاتف تأنيب يصلني من المستشفى قبل الحرب بيوم واحد:

- لماذا لم تأت بطفلك إلى المستشفى، القسم بطاقمه بانتظاره؟

- لكن، الحرب، الـ...

- الحروب كثيرة عزيزتي، إن كانت هذه الحرب سوف تدعنا نؤجل مرضانا فسنواجه كارثة أخرى، على باسم أن يصل القسم غدا، سريره

جاهز والطاقم مستعد لاستقباله وأيضا يجب أن تحضري معك الطفلة (زيزي) التي سوف تتبرع له بزرع نخاع العظام لكي نؤهلها للعملية أيضا، لا تنسي أيضا المستندات اللازمة سنحتاج لها حتما.

- سنكون عندكم صباحا.

فكرت كثيرا بكل شيء، بك وبأخواتكَ، سآخذ معي (زيزي) إلى المستشفى وسيأتي والدك معنا، ستبقى ثلاثتهن وحدهن في البيت والحرب كانت قد دارت رحاها، أصغرهن كانت في الرابعة من عمرها، كيف سأتركهن وحدهن في هذه الأجواء المخيفة وإن فضلت البقاء معهن فكيف أستطيع أن أتركك وحدك في المشفى أثناء العلاج الطويل، كيف يمكنني شطر نفسي إلى شطرين؟ اتفقت مع والدك أن نتقاسم فترة العلاج معا، لكنه آثر أن يبقى معك أثناء المرحلة الأولى مدّة أسبوعين حتى يحين موعد عملية الزرع، ومن ثم أكمل أنا المسيرة حتى نهاية الرحلة وهكذا حصل، هو حضر وصحب معه (زيز) شقيقتك أثناء عملية استئصال النخاع وأنا بقيت معك ذات اليوم في قسم آخر بذات المشفى حتى وصول النخاع بعد أن أخضعوه إلى مسح بالأشعة قبل أن يزرعه الطبيب (أور) داخل وريدك.

عندما بدأ الهجوم صبيحة اليوم السابع عشر من كانون الثاني ١٩٩١، أطلق الصاروخ (سكود) الأول نحو فلسطين بينما كانت القوات

العراقية منهمكة في حرب ثانية على الجانب الآخر من حدودها، ركضت نحوك وجمعتكم، حصرتكم في الغرفة العازلة وأغلقت عليكم الباب، أمرتكم بارتداء الأقنعة الواقية، حاولتَ ارتداءه فسقطت خصلات من شعرك على كتفيك، مشهد لن أستطيع نسيانه ما دمت حيّة، لم أشعرك بالعجز بل شجعتك على تكملة المهمة، فكنت أول من وضع القناع وبدأت تشجع أخواتك على ارتدائه، جميعهن انصعن ما عدا (سوزان) التي اعترضت بشدّة فجهزت لها القطن ومسحوق النشاء بديلا.

لقد أحببت الحياة كثيرا وقاومت الموت بكل قوة رغم المرض الفتاك الذي أصبت به، لقد تصرفتَ دائما بتلقائية متناهية أدهشتنا جميعا، بل وكنت أنت الداعم لي إن حصل واستسلمت للقنوط، لم يكن سهلا عليك اجتياز مراحل العلاج الطويل، أنت طفل أعزل تكافح سرطان الدم الذي هاجمك بجموحه، وحدك، لكني لم أتركك تشعر بالوحدة اطلاقا، مشكلة ارتفاع مستوى الحديد في الدماء واستخدامك لأنواع كثيرة من العلاج الكيمياوي هما السبب بتساقط شعرك تماما، بعد أيام اقترحت عليك أن تحلق شعرك بالكامل وذلك بعد أن بدأت في لملمة خصلات شعرك التي تناثرت في كل مكان، سكنت خصلات شقراء على وسادتك وحطت على سريرك وعلى وسادتي وفي سريري، سقطت على الأرض وانتشرت في كل مكان... كانت خصلات غالية جدا.

وعندما غادرت البيت مجددا ماضيا في طريق العلاج، توالت عليك مراحل قاسية وطويلة، هذه المرة بدأ الأمر ليكون جادا، فتحتم عليك اجتياز عملية زرع نخاع العظم، لا بديل آخر يمكن أن يشفيك من مرضك بعد أن خضعت لأكثر من عامين كاملين لعلاج كيميائي مكثف في مشفى (بيلنسون) بيتح تكفا أو (ملبّس) المهجرة، وحتى بلوغك مرحلة اختفاء المرض من جسدك، تسمى مرحلة (ريميسيا) احتفلنا بها سعداء عندما كنا عائلة محبة.

وبدأنا أنا ووالدك نعيد حساباتنا في تنظيم حياتنا من جديد بعد أن اختل توازننا، ربما يكون مرضك سبب تشتتنا وربما تكون أسباب أخرى، وربما هي الظروف القاسية التي بدأت تؤدي إلى انشقاق ظاهر أدى إلى تصدّع العلاقة ما بيني وبينه، اقتربت قصة الحب التي ربطت بيننا إلى النهاية، أول رجل في حياتي بدأ يطير خارج السرب يحمل أحلاما مختلفة، وحده، ويعمل على تحقيقها بعيدا عني، يتركني وحيدة مطوقة بجدران من الصمت.

مرضك أسرنا، كبّلنا، حطّمنا، عانينا جميعا مثلما عانيت، أنا عانيت بهدوء وتظاهرت بالسعادة وكأن شيئا لم يحصل لأني علمت في دواخلي إن حصل وفقدت البسمة التي احتفظت بها مثل قناع يخفي الحقيقة المرة التي نهشت دواخلي سينهار كل شيء من حولي، التهمنا حزننا جميعا

كأفراد أسرة مجروحة عندما عاودك الخبيث مجددا وبصورة أصعب بعد سنتين كاملتين من الشفاء الحقيقي، سنتين عادت الحياة إليك وإلينا، استمررنا معا نحو المستقبل، نخطط، ونعمل ونحيا حياة عادية مثل سائر البشر، لكن، لقد كان الشفاء منه مؤقتا لأن الأطباء أخفقوا بشيء ما، ربما لأنك لم تتعرض للمسح بالأشعة واكتفوا حينها بمنحك العلاج الكيماوي، بعودة المرض أصبحت احتمالات الموت مؤكدة، فنصح الأطباء بإجراء عملية الزرع تلك التي لم يكن نجاحها مضمونا أيضا.

تناوبت الليل بطوله على راحة البنات ولكي لا يغافلني النوم فينطلق صاروخ سام دون أن أشعر به يودي بنا ابتدعت حيلة جميلة تزيح النعاس عن جفنيّ، بدأت أطلي أظافر قدميّ بالطلاء، أظفر تلو الآخر، وعندما كنت أنتهي من عملي آتي بالمزيل لكي أزيل الطلاء عنها وبحركات بطيئة جدا، تباطؤ متعمد لصرف الوقت، وعندما انتهيت منها بدأت بطلائها مجددا، ثم عكفت على ازالته مجددا وهكذا دواليك حتى تنسحب ساعات الليل الطويل ويبزغ الفجر، حينها أوقظ شقيقتك الكبيرة (سوزان) لكي تقوم بالحراسة نيابة، أو بالأصح لكي تنتظر انطلاق صفارة الإنذار فتقوم بتنبيهنا، ألقيت مسؤولية كبيرة عليها لكي تحمينا من شرور الحرب الدائرة والتي استمرت تقريبا شهرا كاملا، هكذا حظيت ببعض الراحة لكي أستعد لليلة اضافية من الانتظار

والسهر على سلامتكم، وكلما شعرت بالخوف الأكيد ليلا، نظرت إلى نافذة بيت جارتي في فلسطين، اسمها (الهام)، عملت ممرضة ألهمتني الصبر وشجعتني على التحمل، فقد كانت تربطنا صداقة متينة، لقد تركت نافذة الحمام مضاءة ليلا، من تلك النافذة شعرت بالطمأنينة، هي طاقة الفرج منها كنت أستمد الشجاعة، منها استمددت القوة، من ذلك الضوء المتسرب من حجرة الحمّام.

واستبدلت والدك في المرحلة الثانية من عملية زرع النخاع والحرب مستمرة.

كبرتَ وكبرت معك شقيقاتك وهن يحملن لك أجمل وأرق مشاعر الأخوة الصادقة، إن كنت تشعر بأعراض المرض كن يمرضن معك، وإن شاهدنك وأنت تسترجع يسترجعن معكَ، إن صعدت الحرارة بجسدك تصعد عندهن أيضا، وكلما تركتهن وذهبت بك إلى المشفى من أجل العلاج يحزن حزنا شديدا، تماسكن ورضين وتمنين لك التوفيق، اشتقن لك، وانتظرن عودتك سالما، وتحمّلن المسؤولية وهن صغيرات.

***

وإن أردت العودة إلى الزمان الذي خضعت فيه لعملية زراعة النخاع، عندما حانت لحظة الحسم، وهي لحظة سكب الخلايا الجذعية التي انتزعوها من ظهر شقيقتك (زيزي) داخلك، فقد تمّ سحب الخلايا الجذعية منها عن طريق نخاع العظم، من عظمة الورك الخلفية بالذات وهي تحت تأثير التخدير التام، فكمية النصل المطلوبة تعتمد على مقدار وزنك بعد أن وصلت مرحلة بدأ يتضاءل فيها المرض أو يختفي من جسدك المريض، لم أكن في تلك اللحظات الصعبة وحيدة، فكان معي الخالات (ل)، (و)، (ه)، (ج) اللواتي حضرن من مدينة الرملة دائما لكي يقفن معي، لم تكن عملية جراحية وتمّت بطريقة مشابهة لعملية نقل الدماء ولكن مع احتمال كبير لحدوث مضاعفات، وقد تكون خطيرة أحيانا وذلك بعد أن توقف النخاع العظمي خاصتك من تأدية وظائفه العادية وتكوين النسيج الموجود داخل العظم المسمى بالخلايا الجذعية، تلك الخلايا التي تقوم بتقسيم نفسها وتكوين خلايا الدم المهمة، ومنها خلايا الدم الحمراء والبيضاء والصفائح الدموية والتي تلعب دوراً هاماً في الحفاظ علي صحة الجسم وسلامته، فالخلايا البيضاء مهمتها مكافحة الالتهابات وتقوية مناعة الجسم، ومهمة الصفائح الدموية في أنها تساعد في تخثر الدم والكريات الحمراء تمد الجسم بالأكسجين.

وعندما جيء بعينة الخلايا الجذعية كنت قد تحضرت لأكون الحاضرة الأولى، حيث قال لي الطبيب حينها:

- ستكون المهمة سهلة جدا، لا تقلقي، تنفسي الصعداء قليلا لكن لا تبتعدي وابقِي هنا فنحن وابنك بحاجة لكِ.

- أنتم بحاجتي أنا؟

- نعم ابنك بحاجة لوجهكِ المبتسم!

- وجهي أنا!

تذكرت أني لم أر وجهي منذ مدة طويلة، لقد نسيته تماما كما نسيت نفسي حقا، لم تهمني نفسي ولا روحي ولا أي شيء في الحياة.

وبدأت عملية الحقن، الطبيب ثابت في مقعده صامت، وأنت تراقب ما يجري بدون حراك، لا تفوت على نفسك حتى الحد الأدنى من التفصيلات مهما كانت دقيقة، بعد ساعة ونصف حصل ما لم أتوقعه أبدا، انتفض جسدك من مكانه بينما انهمك الطبيب في عمله يحاول الإنتهاء من المهمة بأقصى سرعة ممكنة غير مبال للتطورات التي حدثت فجأة، حيث بدأت تتوزع الخلايا في الجسم وتنتقل إلى النخاع، من

هناك من المفترض أن تبدأ الخلايا الجذعية بتكوين خلايا جديدة سليمة لتنتشر بعد ذلك في جميع أنحاء الجسم.

ارتجفت بكلك وبدأ جسدك يرتفع عن السرير وكأنك فوق فوهة بركان، رميت بجسدي عليك ورمت خالاتي أجسادهن عليك أيضا نحاول تثبيتك على السرير حتى ينهي الطبيب من الإجراءات الأخيرة، اضطربتَ وقفزت إلى فوق ونحن نحاول إعادتك إلى مكانكِ، ربما تكون قد دخلت غيبوبة قصيرة لأني لا أذكر أني سمعت صوتك تستنجد أو ربما استنجدت ولم يخرج صوتكَ، خرج جسدك عن طوره حتى خيّل لي في لحظات أنك اقتربت حتى سقف الغرفة، أمسكنا بكَ مجددا واستطعنا إعادتكَ إلى السرير، انتفضت وارتعدت ونحن نشد بكل قوتنا وبليونة بينما أطرافك ترتجف والطبيب يحفزنا على الاستمرار في تهدئتك حتى ينتهي من مهمته، أحسست بالتعب ثم ارتخيت تماما، هدأت ورحت في سبات عميق، سمعت الطبيب يوجه الكلام لنفسه:

- إنها حرب، لقد انتهيت، أتمنى له الشفاء السريع!

- هل تقصد حرب الخليج؟ سألته

- بل أتحدث عن حرب أخرى. أجابني

- حرب أخرى، لم أفهم، إننا في حرب فعلا، نحن نصارع على البقاء.

- بل هو من يصارع على البقاء لكي يبقى حيّا، سوف يحتاجكِ كثيرا، تحلّي بالصبر.

- ماذا بعد ذلك يا دكتور؟

- بعد نقل الخلايا الجذعية لن يكون جسم المريض قادراً علي إنتاج خلايا الدم مباشرة، قد تحتاج الخلايا الجديدة إلى مدة تستغرق ما بين أربعة عشر يوما إلى عشرين يوما حتى تنمو داخل الجسد، سننتظرها.

خلال هذه الفترة والتي تسمى انعدام الخلايا (aplasia) شعرتَ بالتعب والوهن، وكنت عرضة للالتهابات، شكيت من جفاف مقيت في حلقك، وصفته لي:

- مسامير، المسامير عم تغرز في حلقي!

- اهدأ يا باسم، اهدأ يا بطل وعد إلى النوم، استرح يا بنيّ.

وتم يومياُ سحب كمية من الدماء لفحص ولادة عدد الخلايا في الدم، جميعها تؤشر على الصفر، انتظرت (يوخي) الممرضة المسؤولة عنك وعلى مدار عشرة أيام أسألها بصمت عن مجريات الأمور، تنظر إلى نظرة حنان، تغمزني وكأنها تداعبني، أفهم أن الكريات لم تستجد بعد، وفي اليوم الحادي عشر رأيتها من بعيد وهي آتية من آخر الهو بينما تلوّح لي

بيدها تطمئني أنه تحرّك ما قد حصل، قفزت من مكاني وركضت نحوها وطلبت منها أن أرى النتيجة، كم هي إشارة الثلاث أصفار جميلة (٠٠٠)، رأيتها بأم عيني ثم سألتها لكي أتأكد من النتيجة، قالت:

- لقد بدأت الكريات بالتحرك، غدا سترين المزيد من الأصفار!

- أنا لا أحب الأصفار وباسم أيضا!

- بعد الأصفار تأتي الأرقام!

- متى تأتي الأرقام؟ سألتها

- بعد الأصفار، ابتسمي وحافظي عليها.

ودخلت الغرفة أتفقد إن كنت نائما، سألتني:

- هل (يوخي) أتت بالنتائج؟

- طبعا، (يوخي) هنا والنتائج بيدها.

بدأت تعود إليك الحياة مجددا، وفي اليوم التالي كثرت الأصفار وكذلك في اليوم الذي أتى من بعده، وفي اليوم الخامس حصلت غارة حيث أطلقت صفارات الانذار، جميع الممرضات ركضن في الرواق واستعجلن

دخول غرفة الوقاية وطلبن مني اتباعهن، رفضت ذلك رفضا باتا، توالت الطرقات على الباب ينادين علي:

- دينا اخرجي من عندك حالا وتعالي معنا إلى غرفة الوقاية المغلقة.

- كيف لي ترك ابني معلق بجميع هذه الدريلات وأذهب لكي أختبئ، هو لن يستطيع النهوض لذلك سأبقى معه، لن أتركه.

طلبت مني أن أذهب بمعيتهم بل رجوتني أن أفعل لكني رفضت وقلت لكَ، إما أن نحيا معا أو نموت معا، وألقيت بجسدي عليك لكي أحميك من الموت، بقينا على ذات الوضعية نحو نصف ساعة ونحن ننتظر تسرب الغازات، انتظرنا لا حول ولا قوة لنا، وسألتني إن كانت النافذة مغلقة، أجبتك بنعم، وسألتني إن كان الغاز سيتسرب من الشق الموجود تحت الباب، قلت لك ممكن، لكننا لا نخشى الغازات؛ لأننا أقوياء، وفي اليوم التالي طلبت أن أزودك بصفحات بيضاء فرسمت صاروخا كتبت على فوهته (أنا أحب الحياة... السلام)!

لم يهمني الأمر بل العكس تماما أحسست أن ما تمرّ فيه البلاد من حساسية في الأوضاع الأمنية لا يتعدى ذرة واحدة من الهموم التي تراكمت على قلبي، كانت المرة الوحيدة التي يصل فيها صاروخا من

العراق إلى ضواحي القدس ولم أعرف تحديدا أين سقط ولم يهمني الأمر... تبا للحروب ومرحا للحياة!

بعد شهرين كاملين من السجن الاحترازي الذي وفروه لنا معا في المشفى، السجن عبارة عن حجرة كبيرة وغرفة حمام زرعت داخلها، بقيت أنت في سريرك معلقا بأنواع شتى من الأنابيب والدريلات، وأنا تكورت داخل المقعد بجانبك، وإن حصل وشعرت ببعض الملل خرجت إلى الهو حيث النافذة لكي أطل منها إلى البعيد أتفقد العالم إن كان بعده موجودا لأن عالمي حينها انحسر فقط بنا، انتشرت أشجار السرو في المنطقة وأحاطت بالمشفى الذي تأسس على أحد مرتفعات عين كارم، كم أحب ألوان الخضرة!

ألزموني بارتداء كمّامة على فمي لكي لا تصلك أنفاسي بما أن نسبة المناعة في جسدك أصبحت منخفضة جدا، أصيبت عيني اليسرى بالتهاب حاد فأمرني الأطباء العودة إلى بيتي حتى تتعافى عيني، رفضت طلبهم رفضا باتا، لكنهم أرغموني على تركك، بكيت لهم وتوسلتهم أن يقوموا هم بالمهمة هنا وشرحت لهم أني لا أقوى على تركك، رفضوا منحي دواء لأنهم تعمدوا أبعادي عنكَ، وبعد نقاشات حادة حصلت ما بيني وبينهم، قررت السفر إلى الضيعة لكي أقوم بمعالجة عيني وتفقد

أخواتك أيضا، وقد قامت ابنة خالتي (أنجيل) بالسهر على راحتك عوضا عني، بما أنها درست مهنة الصيدلة في ذات المشفى.

نزلت من المبنى حائرة وحزينة، كم أمقت لحظات الفراق، أستشعرها وداعا أبديا، خشيت منك في دواخلي، خشيت أن تفعلها وتذهب إلى عالمك الآخر دون أن أكون بجانبك، وكأن وجودي معك يمنحك الاستمرار في الحياة، وجودي معك يدعني إلى الارتياح، نظرت إلى حجرتكَ من بعيد، ستائر النوافذ مفتوحة لكنك لا تقوى على الخروج من السرير إلا بمساعدة أحد، وهذا الأحد هو أنا، وأنا غير موجودة، و (أنجيل) لم تصل بعد، ترددت بالذهاب، جاء الطبيب وطلب مني المغادرة، وعندما نزلت في المصعد، نظرت إلى حجرتك مجددا التي كانت في الطابق الرابع، خطوت نحو موقف الحافلة التي ستقلني إلى المحطة المركزية في القدس، من هناك أسافر إلى مدينة تل أبيب، ثم أستقل حافلة أخرى إلى مدينة حيفا، ومن هناك أستقل حافلة أخرى إلى مدينة عكا، ثم من عكا أستقل حافلة أخرى إلى الضيعة. وترددت، وما أصعب التردد! لا أعلم إن كان الطبيب قد تتبعني أم كان في طريقه نحو قسم آخر، رآني باكية فاقترب مني قائلا:

- هوني عليكِ، لن نتركه، اذهبي أنتِ فقط وكوني مطمئنة، عليك الاهتمام بصحتكِ، عينك بحاجة ماسة لمرهم خاص، اذهبي يا أختاه!

- سوف أذهب دكتور، سوف أذهب، أشكرك على كل هذه العناية التي تقدمونها لابني.

استقللت الحافلة المتجهة نحو القدس وقلبي معلّق بكَ، وعندما وصلنا مشارف المدينة المقدسة توقفت الحافلة بسبب زحام كبير، حصل خطب ما أدى إلى ازدحام دفقات قلبي أيضا، سيارات الشرطة أحاطت المكان وبدأت الحافلات تعود من حيث أتت بأمر عام من شرطة الطريق وذلك بسبب اكتشاف قنبلة مؤقتة وضعت على رصيف محطة الحافلات المتجهة نحو تل-أبيب، أخبرنا السائق بالأمر وطلب منا الجلوس وتقبل الوضع لأنه قرر إعادتنا من حيث أتى بنا حتى يتمكنوا من تفكيكها دون حدوث أي أضرار بشرية، فرحت وتهللت لأني سأعود إليكَ، لقد وجدت سببا مقنعا لكي أعود أدراجي رتبته لي الظروف، وعندما عدت أطمئن قلبي واستراح ونسيت أني لو وصلت المحطة لكنت ربما في عداد القتلى إن حدث وانفجرت القنبلة.

ولم نفترق ..

***

أصبت بداء مهاجمة الجسم للخلايا (Graft versus host disease) بعد ثلاث أشهر مباشرة، كنا قد أعددنا العدة لكي نفرح، هو أحد المضاعفات التي تحدث عند إجراء زراعة نخاع العظم من متبرع، ينتج هذا الداء بسبب مهاجمة النخاع المزروع حديثا لأعضاء المريض ويهاجم الأنسجة بحيث يضعف القدرة على العمل ويزيد من قابلية المريض للإصابة بالالتهابات على اختلاف أنواعها .

بداية أصبت بطفح جلدي ظهر على اليدين والقدمين، ثم امتد الطفح إلى أجزاء أخرى من جسدك، بدأنا نكتشف مناطق جديدة مصابة غير ظاهرة، وتطورت حالة الاحمرار بسرعة وأصبحت تشبه الحروق التي تسببها أشعة الشمس، ناهيك عن التقلصات التي أصيبت بها معدتك والشعور المستمر بالغثيان وأشياء كثيرة أخرى حتى بات واضحا أن مرض مهاجمة الطعم المزروع دليلا حقيقيا على فشل الزراعة، وتفاقمت الظواهر فيما بعد وبدأت تظهر آثار إصابة بعض أعضاء الجسد بالمرض كالكبد وتبوّل الدماء ومشاكل في الجلد على الوجه تضمنت طفحاً جلديا غير عادي يصاحبه الجفاف والحكة، يوم بعد يوم وشهر بعد شهر وبدأت تتفاقم الحكاية وتكبر حتى غابت ملامحك الحقيقية كليا ولم تعد تشبه نفسك!

سأذكرك بشيء ولا تدعي أنكَ نسيت!

عندما صعدت شقيقتك (رورو) إلى غرفتك في الطابق العلوي، كانت في الخامسة من عمرها حيث بدأ لون بشرة وجهك يتغير، حيث حصرت نفسك داخل سريرك في غرفتك الخاصة بكَ وامتنعت من رؤية أحد، غطيت وجهك بغطاء السرير عندما دخلت بصورة مفاجئة، لكنها استطاعت أن تتسرق النظر وسألتك ببراءة الأطفال:

- (في شوكولا سودة وبيضة على وجهكَ)؟

- (أنتِ بتحبي الشوكولا)؟ سألتَها وحاولت إظهار وجهك أمامها بصورة فجّة، أجابتك:

- (أه بحبها كثير، بقدر ألحس شوي منكَ)؟

- (بدك تلحسي وجهي)؟

- (آه بدي)!

وسمحت لها بأن تلحس خدك، وفعلت، ثم انهالت عليك وقبلتك على خدك قبلة احتفظت بها في ذاكرتكَ، تلك القبلة التي شجعتك على تقبل وجهك أولا وعلى مواجهة الناس ثانيا وعدم الاعتكاف في غرفتك وحيدا، من يومها بدأت تشاركنا الطعام في غرفة الطعام الواقعة في

الطابق الأول من البيت الكبير الذي أقمنا فيه سابقا قبل رحيلنا من الوطن.

هل تذكر حادثة الهرب، أسميتها حكاية الهروب الكبير، عندما هربتم من البيت لكي تلتحقوا بي عندما مكثت في المشفى بعد ولادتي لشقيقتك (رورو) بساعات، سافر والدك بعدها مباشرة إلى مصر، قبلني قبلة فارغة من أي حنان ثم ألقى نظرة سريعة إلى الطفلة المولودة حالا وغادر، غاب كليا، أدى مهامه دائما بأقصى سرعة ممكنة لكي يتخلص من واجبات الأبوة حتى لو كانت بسيطة وبقيتم وحدكم، اعتنت بكم جدتكم، لكنكم قررتم الهرب منها والالتحاق بي، أخذت على عاتقك وتحملت مسؤولية الطفلتان، (سوزان) و (زيزي)، وحملت لهما زجاجة ماء إذ كان الطقس حارا في حينه، وسارت بكم الطريق والتهمتكم المسافات، تعثرت خطواتكم ولم تصلوا إلى الهدف المنشود، تأخرتم كثيرا لأنكم ضللتم الطريق، لكنكم وصلتم أخيرا إلي، مسحت دموعكم الغالية التي ذرفتموها على غيابي، لو تدرون كم هي غالية على قلبي هذه الدموع الثمينة، وسألتني:

- هل هذه أختنا الجديدة؟
- نعم هي أختك الجديدة اقترب لكي تراها، اقتربوا!
- بأي اسم سوف ندعوها؟ سألت

- سأدعوها (رورو).
- (منيح اللي ما اجت ولد)! قلتَ

***

لم نفترق منذ ولادتك إلا ثلاث مرات، عندما وصلت قبلك وتركتك في البلاد تنتظر فيزا الدخول إلى أستراليا، وفي المرة الثانية عندما خرجت من بيتي دون علمي حيث اتخذت لنفسك بيتا خاصا بكَ، والمرة الثالثة عندما ذهبت إلى عالمك وإلى الأبد، شعور خفيّ أقلقني طوال حياتي وهو خشيتي من لحظة الفراق، أنا هي التي أنجبتكَ ولي عليك حقوق، آمرك بعدم الرحيل، لن ترحل دون أن تخبرني أنك راحل وأشترط عليكَ ألا تذهب دون أن تودعني، لقد أخافتني لحظات الوداع كثيرا!

صبيحة ذلك اليوم، هيّأت لك الطعام وقبل أن أخرج من البيت، دار هذا الحوار الروتيني بيننا:

- ماما حبيبي، طعام الغداء جاهز، سأخرج الآن، هل تريد شيئا؟
- لماذا كلفتِ نفسك، كم مرة أخبرتكِ أني أريد تحضير الطعام لنفسي! أجبتني
- لقد جهزته وانتهى الأمر، بالغد جهز ما تريده لنفسكَ، هل تريد شيئا؟
- لا شيء أبدا.
- (شو اللي غيّرك يا باسم)؟ سألتك محتدة
- (بدي أنتقم منكم)! أجبتني بكل قسوة
- ممَن تريد الانتقام؟

- .....
- لماذا تنتقم منا ومن تقصد بـ (منكم)؟
- .....
- لماذا كل هذا الحقد ولمن وكيف حصل هذا العداء، لا تلتزم الصمت، أنا أسألك ويجب أن تجيبني، تكلم.
- .....

لو تدري ماذا أصابني عندما عدتُ إلى البيت ولم أجدك فيه، عندما اقتربت من فتحة الدار سقط نظري على بالون كنت قد قمت بربطه على منشر الغسيل المتواجد في واجهة البيت محتفلا بيوم الانفصال وتركت لي رسالة قصيرة على الطاولة، كم كنت قاسيا، أخبرتني فيها أنك خططت للرحيل ولن تعلمني بذلك قاصدا متقصدا، وقفت مكاني حائرة، لم أصدق ما خطّه قلمك، كم هي قاسية رسالتك، أسرعت إلى غرفتك ولم أجدك فيها ولم أجد حاجياتك أيضا، فرغت الغرفة من كل شيء يدل على وجودك، لا سرير، لا طاولة، لا حاسوب، لا ستائر، لا شيء أبدا، لم تترك لي شيئا سوى شالك الأصفر المصنوع من الصوف، وما زلت أتساءل لماذا تركته، هل سقط منك أم قصدت تركه؟ تيقنت حينها أنك غادرت فعلا وأن رسالتك ما هي إلا حقيقة واردة وبرهان يؤكد على غيابك، لقد غبت، ذهبت، خرجت... لقد افترقنا...

تألمت بهدوء، يحزنني هذا الهدوء المستتب داخلي حتى في لحظات الألم، وقعت فريسة الخوف عندما استسلمت لفكرة تراودني دائما وأخافتني كثيرا وهي أن أستفيق يوما ولن أجدك معي، استفاق داخلي الذعر القديم وهو أني سأفقدك، انتفض هذا الثعبان المتعسف داخلي فأكلني، تسارعت نبضات قلبي وارتجفت أوصالي وكردة فعل من الصدمة بدأت أزيح قطع الأثاث من مكانها وأضعتها خلف الباب غير مكترثة بحجمها أو ثقلها، كنبة، كرسي، منضدة، مكنسة، كتاب، أي شيء، لا أدري سبب هذا التصرف الذي اعتبره شاذا ولا أريد أن أعرف، لكني فعلتها.

أخبروني فيما بعد أني أصبت بصدمة عصبية كادت تؤدي بي إلى الجنون.

وتمر ليلة أخرى وأنا وحيدة فتعودني نوبة الهلع مجددا، يقتلني الإحساس بالرهبة غير المبررة، توتر وأفكار مختلطة تتسارع إلى عقلي وعندما تتسع رقعتها يستبد بي الأرق ويتجدد، أرتجفت وتسارعت دقات قلبي، ينقضي يوم آخر وحالي بقي على ذات الحال.

أربعة وثلاثون عاما وأنا ملتصقة بك ومنذ كنت جنينا داخل رحمي تنتهي الآن وعلى هذا النحو المؤسف، لقد أطلقت أثقل عيار ناري على فؤادي، لقد قتلتني، غادرت واختفيت نهائيا وأغلقت الموبايل، هل

مارست علي نوعا من العقاب المرتب، لماذا تعاقبني بهذا الأسلوب الحقير وكيف طاوعك قلبك أن تنتقل إلى بيت آخر دون أن تقول لي وداعا؟

أصبت بسعال عميق واجتاحتني حمى غريبة، تملكني قلق حاد ومرضت حواسي وغاص الألم في جسدي المرهق واشتغل على عقلي المتعب، اكتنز صدري كل انفعال خارجي وبدأت أسترق السمع إلى أتفه الأصوات الصادرة وأجزم أن دبيب أبسط الزواحف وصل إلى مسامعي ولم أستطع النوم إلا عندما بزغ أول النور، ارتجفت بردا طوال الليل ولم أستطع النهوض من السرير لكي أدفيء جسدي لكني وعند الفجر قمت ورميت على جسدي قطعا كثيرة وأبقيت رأسي مكشوفا لكي استنشق بعض الهواء، علني أتدفأ...خشيت من الإختناق... ولم يتدفأ قلبي.

أمضيت شهرا كاملا عند (زيزي) في ولاية أخرى، ابتعدت عن البيت لأني خشيت أن أكرهه، وإن حصل وكرهته لا ملجأ آخر آوي إليه، وربما هي محاولة واضحة للهروب من المكان، أنا أهرب الآن ولم أتعود على الهروب سابقا بل واجهت المشاكل بكل عزيمة وحدية.

رؤيتي لحجرتك فارغة والأماكن التي تذكرني بك في البيت تصيبني بهذا القلق الدفين الذي دفنته داخل أعماقي لسنوات طويلة، تؤلمني الأماكن الفارغة منكَ وتثير داخلي خيبات الأمل، ابتعدت لكي لا أدع الخوف

يسيطر على مشاعري ويتحكم بها ولكي لا أبقى سجينة أفكار وذكريات كثيرة حزينة.

لم أنم منذ أسبوع وأكثر، أمضيت الأيام مستيقظة ومتيقظة، أصبت بحالة الهلع غير المبرر، لقد خشيت من كل شيء، أرهقتني حالة الحذر الشديد التي ألمت بي ومن أتفه الأشياء، أغلقت بوابة المرآب بقفل مجنزر وكذلك فعلت لباب المدخل المؤدي إلى الحديقة، ودعّمت الأبواب الداخلية بدعامات من الداخل، أرخيت الستائر وضبطت حوافها بملاقط الغسيل، تمنيت أن أهرب من نفسي، وإن أردت الهروب فلم أجد طريقا للهروب إلا للخوف نفسه الذي شدني من شعري ليحط بي حيث عقلي الذي بدأ يأخذني إلى أوهام لم أتوقعها، جذبني الخوف وحط بي إلى شطآن الأرق، ينتزعني من موجة خوف ليلقي بي في متاهة خوف آخر، وعندما بزغ النهار هربت من البيت إلى الشارع وأمضيت جلّ نهاراتي وأنا أتجول بين الناس، وعند حلول الليل يصيبني القلق مجددا.

حلّ علي الصمت وأنا في ملبورن، صمت مخيف اختلط بغضب كنكن داخلي واستتر، لم أستطع البكاء، فالبكاء دائما كان مصدر راحتي، طرت في مسافات الكون أكثر من ٢٣٠٠ كم لكي أحصل على قسط وافر من النوم، هربت لكي أبحث عن النوم، أريد أن أرقد داخل سرير

ما بدون أن أخشى شيئا، أي سرير بعيد عن سريري كنت سأرتمي به، ووجدته في بيت (زيزي).

عوضت ما فاتني من النوم واستثقلت فيه، نمت ونامت السماء بمعيتي، اختفى القلق، غفلتني زواحف عقلي وطافت في المعمورة كما يحلو لها دون قيود حتى حلّ عليّ البكاء وانسكب، بعد شهر بالتمام انهمرت في البكاء، بكيت وحدي، شهقت، كان البكاء شفيعي فشفيت من صدمة كادت تودي بعقلي، وعندما شعرت بالاسترخاء قررت العودة إلى بيتي، وذلك عندما شعرت بالاشتياق له، عدت وكلي أمل الاستمرار في حياتي كالمعتاد، ما أريده فقط هو الاستمرار في الحياة بصحبة عقلي المتعب، وعدت...

***

أتوحّد مع ذكرياتي الآن، أنا هنا في أستراليا وبعد أكثر من خمسة وعشرين عاما على هذه الأحداث، أحاول أن أتذكر بهدوء وأن أتحرك بروية إن أردت أكتشاف معالم النهار بيومياته، ما عليّ سوى أن أخطو خطواتي السبعة نحو النافذة المطلة على واجهة ما ومن خلال إحدى النوافذ الرئيسية يتكشف الشارع المقابل وبعض بيوت الجيران، بدون إصدار أي صوت يقلق باسم الذي عوّدني، وبطلباته الكثيرة والجريئة أحيانا، أن أكون هادئة، بل أن أحيا هدوء الميتين، أمليت خاضعة جميع طلباته الأنانية دون اعتراض إشفاقا على حالته.

وأعود إلى أول يوم نحس في حياتي، وذلك قبل ثمانية وعشرين سنة من الآن، وتحديدا سنة ١٩٨٥ ياه، كم الزمان يفر سريعا من بين أصابعي، هذا الطفل الذي عاد في يوم ما من تمارين رياضة الجودو منهكا متعبا، بالكاد استطاع صعود السلالم حتى مدخل البيت وامتنع من تناول الطعام وكأن معدته أصيبت بتقلص مفاجئ، مما أدى بي، أنا الأم الشابة، أن أشك بأن شيئا خطيرا سوف يحدث له بعد أن قرأت في كتاب طبي عن أعراض المرض الذي ربما يكون مصابا به، فوجدت أن الظواهر التي يعاني منها، جميعها تؤشر على مرض اسمه (لوكيميا)، حينها حملته إلى الطبيب لكي يكشف عليه:

- ابني يعاني من مرض خبيث يا دكتور!

- أنت تهذين، ابنك صحته جيدة، هذه الانتفاخات بسبب (أبو دغيم) (النكاف) الذي صاحبه التهاب في الحلق، اسقه ذات الدواء وعودي الآن إلى بيتك وانسي الموضوع.

- لكن يا دكتور، لقد أنهى زجاجتين من هذا الدواء ولم يشفَ، أرجوك ساعدني.

- لا يوجد شيء خطير، هيا، أنت تضيعين وقتي.

عدت بكَ إلى البيت بعد أن قام الطبيب بطردي من عيادته لكني سرعان أن عدت إليه مجددا وطالبته بأن يمنحني رسالة توصية للمختبر من أجل إجراء فحوصات دم مخبرية، وهكذا بدأت الرحلة الصعبة، عندما اكتشف الأطباء بأنك فعلا مصابا بداء سرطان الدم.

سألني الطبيب مستهجنا:

- كيف علمتِ بنوع المرض الذي ألم بصغيركِ؟

- إحساس خبيث، كم تمنيت أن يكون حدسي خاطئا!

- سوف يدخل إلى المستشفى حالا لكي نتأكد من نوعية المرض، ولكي...

لم ينه الطبيب كلمته..لفتني الدنيا بدوار أشبه بدوار عبر الأزمنة والعصور، هذا الدوار الذي أقعدني في السرير منهارة أطالب بحقي في الموت، أقعدتني الصدمة في الفراش مدة طويلة وطفلتاي تدوران وتلفان حولي، أراهما تدوران حولي ولا أستطع العودة إليهما، مكثت تحت أريكة الغيبوبة أياما مستنكرة الحقيقة، لا أذكر كم يوما، ولا أريد للحقيقة الظهور، كذلك لم أستوعب قبلاتهما وأنا ممددة على السرير أمامهما مثل جثة ألهث لهاث النفس الأخير حيث دخلت في غيبوبة طويلة لأني أردت التهرب من الخبر المؤلم.

تجمع أفراد العائلة حولي الذين تقبلوا خبر المصاب بألم شديد، لا شيء يخفى في تلك الضيعة التي تغذت على أخبار الآخرين المفرحة والمحزنة منها، جميعهم حاولوا المساعدة، ما أجمل قلوبهم النقية التي تتألم مع المتألم وتحزن مع الحزانى، هذه القلوب قادرة على الفرح أيضا وتشارك المسرورين فرحهم، عاطفيون إلى أقصى الحدود ودائما قاموا بواجباتهم الاجتماعية على أكمل وجه بعطائهم السخي ويتصفون بالنخوة والكرم، التف الأقارب حولي، شعرت بعيونهم الحزينة وأحسست برأفة قلوبهم، وعلى مدار عدة أيام طرقوا الباب ودخلوا واستقبلهم من كان في البيت، أسمع وقع خطواتهم وأنا ممدة على السرير مثل الميتة، جاءوا لكي يتضامنوا معي ومع أهل البيت والعائلة جميعا، لكنهم لم يستطيعوا أن

يرمموا قلب أم تنهار أمامهم، لم يستطيعوا أن يعيدوا البسمة إلى ثغرها، وأن يزيلوا الحزن من مقلتيها، ليس ذنبهم.

تسربت إلى مسامعي ما قالته إحدى القريبات، (أم يوسف) امرأة محترمة محبوبة، أتت لكي تتحرى الخبر وأيضا لكي تتآلف مع المحزونين، كان التجمع أشبه بأن يكون تجمع عزاء، سقطت جملتها في أذني:

- ربنا بعث وربنا سيأخذ ما من معصية عليه، آمين!

حينها انتفضت من سريري، وكأن هذه الكلمات كانت كفيلة بأن تعيدني إلى الحياة، ركضت نحوها ووقفت عند فتحة الباب حيث تجمهر الجميع، لكني التقطتها من بين الجمع ولأني لم أستطع كبت مشاعري صرخت في وجهها وقلت:

- ربنا بعثه إلى الحياة وهو المتكفل به لكي يشفيه وربنا سوف يشفيه، ابني لن يموت، لن يموت، سوف يشفى، هل تسمعون ما أقوله لكم، ابني سوف يشفى!

- نعم، سوف يشفى يا حبيبتي (ما تعمليش بحالك هيك)! أجابتني (أم يوسف)، وبكى الحاضرون على حالي، على حالنا، على حال العائلة جميعها، كنا عائلة في يوم ما، كانوا عائلتي في يوم ما، أحبوني وأحببتهم، أخلصت لهم جميعا، (نديم) وزوجته (لولو) فتحوا باب دارهم أمام

المتطوعين الذين انهمروا جميعا يريدون التبرع بوجبات من الدماء، قام بعمله كمخبري على أتمّ وجه، هؤلاء نعم الأقارب الذي يعتمد عليهم أوقات الشدائد، ارتج الجميع من خبر مرضك لكن، فيما بعد، عندما احتجت لهذه العزوة لم أجد أحدا معي، تنكروا لي تماما بعد ذلك، بعد مشوار طويل من العذاب وجدت نفسي بلا عائلة تدعمني، أصبحت وحيدة تماما، كنتَ أنت معي، باسم، كنت أنتَ القوي الذي دافع عنّي، هل تذكر؟

سأعود...إلى ذاتي، تركت السرير بعد أن هزمتَ الصدمة ووقفت على قدميّ أحاول استرجاع بعضا من قوتي.

ركضت نحوي جدتي الجميلة، احتضنتني وبكل حنان بينما كانت تستأزر القوة هي أيضا، قالت لي:

- قومي يا دينا، انهضِي يا حبيبتي من كبوتكِ، لا أحد هنا يستطيع أن يملأ هذا الفراغ عوضا عنكِ، فأنت الأم، قومي من أجل ابنتيك، إن حصل لك شيئا سوف تتوهان وتضيعان منكِ، ابنتاكِ بحاجة ماسة إليك وكذلك هذا الطفل المسكين المريض، أنتِ وحدكِ فقط تستطيعين أن تساعديه على الشفاء، لا يوجد غيركَ يستطيع، هذه الرحلة أعدت لكِ، ضعيني مثالا حيّا أمامك واستمدي القوة من حكايتي.

- هل تعتقدين أني قوية كفاية لكي أقوم بكل هذا يا جدتي؟ سألتها

- طبعا قوية، وقوية جدا، حبيبة قلبي يا تيتا، ستكونين قوية، انهضي فبانتظارك مهمة صعبة!

- سأنهض وسأفعل كل شيء لكي يحيا، أريده أن يبقى، أريده أن يحيا، سأدعه يتغلب على المرض، نعم، سأكون قوية، منذ الآن أنا دينا جديدة!

نهضت من كبوتي وحضنت طفليّ وبكيت على رأسيهما وقررت أن نبدأ رحلة العلاج معا، لكني لم أكن راضية عن وضع المشفى الذي قام بالفحوص المخبرية اللازمة وقررت تحويلك إلى مكان آخر متخصص لهذه الأمراض، قسم خصص للأطفال وحتى لو طالت المسافة بين الضيعة والمكان الذي في أواسط البلاد، لكن رئيس القسم تمنع من كتابة رسالة تحرير واعترض جدا، فاضطررت أن أسرقك من المشفى دون علم الأطباء، كانت المهمة أشبه بعملية انتحارية.

تفحصت الرواق الذي توسط الحجرات أثناء الليل وحتى حلول الصباح الباكر، بينما حانت فترة التناوب، انهمكن الممرضات بمعالجة بعض المرضى فتجمعن في زاوية أخرى من القسم، اتفقت معك على

الهرب، استعددنا للحظة الحاسمة بهدوء ودون أن يدري بنا أحد، قلت لكَ وبحزم:

- باسم.
- نعم.
- (بدك تعيش)؟
- أيوة. أجبتني ببطولة
- هل أنت مستعد لدخول البركان، رحلة العلاج تشبه بركانا ثائرا سأدخله معكَ ولن أتركك وحدك أبدا، إن كنا أقوياء كفاية سندخله ونخرج منه متعافيان، وإن استسلمنا، لن نخرج منه أبدا فأي قرار ستختار؟
- سأختار أن ندخل البركان ونخرج منه ونحن منتصران، لكن عندي شرط؟
- ما هو؟
- ألا أراكِ باكية أبدا وأن تكوني قوية مثلي.
- قوية مثلكَ؟
- نعم، سأدربكِ كيف تكونين قوية، ماما، أنا أحبكِ كثيرا.

*

هل تذكر عندما انسحبنا مثل اللصوص معا بهدوء بعد أن تفحصت المدخل، وعندما وجدته فارغا هربنا واتجهنا نحو السيارة التي قادها أحد الأشخاص الموثوق بهم، لأني لم أكن قد تدربت على القيادة بعد، وطارت بنا السيارة إلى مدينة (بيتح تكفا) القريبة من (تل أبيب) بحذر شديد لأنك افتقدت للمناعة بسبب قسوة المرض، خشينا عليك من نزيف محتمل، فأي عارض كان من الممكن أن يؤدي بك إلى الخطر.

ولأنك لم تخرج من المشفى بطريقة رسمية تعذر عليّ نقلك بسيارة إسعاف، لم أفكر بأي شيء سوى كيف أنجو بكَ وأدخلك مشفى أفضل وكيف أنجو من الوقت الذي بدأ يمضي بسرعة فالمرض الخبيث لا ينتظر، اخترقت القانون قاصدة لكي تتلقى علاجك في مكان متخصص لهذا النوع من الأمراض حتى لو بعدت المسافات عن الضيعة التي أقمنا فيها.

اكتملت فترة العلاج التي استمرت سنتين تقريبا واستجبت للعلاج بطريقة بارعة، مظاهر المرض أرهقتك فعانيت من حمى عالية، ثم ظهر اصفرار واضح في العينين وشحوب دائم، هزال وتعب، عدم تخثر الدماء بسرعة مما أدى ذلك إلى نزيف من الأنف، كدمات سوداء ونزيف تحت الجلد، صداع وقيء، عانيت كثيرا لكنك كنت سعيدا بأنك وجدت من يعتني بك، لأنك أودعت بيد البروفسور (زايتسوف)، رئيسة

القسم، انحسر جلّ اهتمامي بك وفقط بك، فلازمتك في جميع مراحل العلاج، لم أتركك ولا لحظة ولم أهمل أخواتك أيضا، وكذلك الطفل الذي بدأ يكبر في رحمي.

ساعدتني كثيرا وسهلت عليّ المهمة الصعبة ولم تعترض، بل خشيت أحيانا من تراجعي واستسلامي، تماسكنا، معا سرنا في الدّروب الصعبة ودارت من حولنا السنين، كبرنا معا، نشأت طفلا بين أحضان أم شابة تحبك وتحب الحياة، كبرتَ كثيرا، أرهقك المرض، كبرت بسرعة حتى أصبحت أواخر أيامك كهلا يحمل قلب حمامة، هيكل عظمي متحرك فقط اختطف منك القلب الرؤوم، هذا الكهل الذي هو أنتَ... لماذا فقدت قلبك الحنون، هل المرض سلب منك عقلك حتى فقدت القدرة على التمييز؟ وكبرتُ أنا معك وأصبحت فجأة الأم الطفلة التي لم تعش فترة الشباب إلا لماما، أنت تعرف جيدا أني لا أحب الاستسلام يا صغيري المغامر بل وقويتني، نحن قادران على الصبر والمثابرة، ربما لأننا ولدنا بذات الفترة وسيّرتنا ذات البروج، هي التي جمعتنا، ولكن الذي فرقنا أخيرا أقوى بكثير من تلك البروج.

لقد عدوت كثيرا لكي تلحق بنا، لكن سبقك السّرب وبقيت في الخلف!

***

لم أحتمل أبدا فكرة أن أكون نهارا في المشفى مهزومة نفسيا، مذلولة ومحطمة كليا، ضعيفة وواهنة، تظاهرت أمامك بالقوة فتدربت عليها، صابرة بدون حدود، هادئة ومتحملة، أدربك على كل ذلك بينما أنا أوهن الناس وأقلهم حظا.

في لحظة ما هربت إلى مخدعكَ، حين وجدتكَ نائما عدت أدراجي خائبة مستسلمة لنزوات رجل لا يشبع، أتحجج بأمر ما لكي أفلت من العقاب، أبدأ في تعقيم الغرفة بمادة السبيرتو مفاداة لفايروسات محتملة تعلق في المكان أو أقوم بحقن الدريل الذي زرع تحت الجلد بمادة (الهيبارين) لكي أحافظ على عدم انسداده فنضطر مجددا لاجراء عملية أخرى فيها يزرع لك دريلا جديدا.

أذكر أني نسيت حقن الدريل فاستيقظت بعد منتصف الليل لكي أفعل، كنت مرهقة ونصفي نائم فبدل أن أقص طرفه قصصته حتى نصفه فاضطررنا للسفر حالا إلى المشفى لكي يعاد زرعه، لكني استطعتُ أن أقرأ ما كتبته عن نفسكَ، لقد أحببتَ الكتابة عندما كنت صغيرا، هل تذكر قصيدة الشعر التي ألقيتها أمام الطلبة في مرحلة الاعدادية في احتفال أقيم بمناسبة عيد الأم؟ لا تقل أنكَ نسيتَ لأني أحتفظ بصورة من الاحتفال، لكن الكثير من الأشياء قد تغيرت

فيما بعد، لقد كرهت كل شيء مكتوب عندما كبرتَ، هل تذكر ما الذي كتبته؟

كتبتَ:

كان عمري ست سنوات ونصف عندما داهمني هذا المرض الخبيث، كنت في الفصل الثاني من الصف الأول الابتدائي، أذكر اسم مُدرستي تماما، (معزز) فقد كانت زميلة والدتي أيضا وعملا في ذات المدرسة التي درست بها، أحبتني معلمتي كثيرا ورددت دائما أمام الآخرين أني أتمتع بذكاء خارق.

بداية، كنت شرها في طعامي، آكل عدة مرات في اليوم ولا أكف عن الطعام مهما كانت الظروف لكني وفجأة لم أعد أتذوق طعم الأكل أبدا وبدأت أشعر بشيء غريب يسري في جسدي، أقسم أن ذاكرتي قوية جدا لكني لم أكن لأشتكي، كان الفصل شتاء وبدأت أشعر بالبرودة تخترق عظامي فتأتي والدتي فتضع على جسدي بطانية من الصوف لكي أتدفأ، وعندما حلّ عيد أحد الشعانين في أواخر شهر آذار، ذهبنا جميعا لكي نقضي أوقاتا ممتعة بصحبة عائلة والدتي، جدتي وجدي (رحمه الله)، وجدة والدتي (رحمها الله)، خالاتها جميعا وأبناء خالاتها، وآخرون، قضينا يوما رائعا بين أشجار التين والزيتون ورائحة شواء اللحم تنتشر في مكان اسمه (دير القطرون) يقع على طريق مدينة

القدس حيث امتلأت الطاولة الخشبية العملاقة، التي كانت مصنوعة من خشب الزيتون بأشهى اللحوم المشوية، لم أستطع تناول أي قطعة، وكلما سحبتني والدتي إلى الطاولة لكي أتناول الطعام كنت أهرب منها، فتسحبني مجددا وأهرب، حتى أني لم أشعر بأن زوايا الطاولة قد غرزت داخل لحم بطني فتركت آثارا سوداء وصفراء تحت الجلد اكتشفتها والدتي عندما شرعت تغسل جسدي في الحمام عندما عدنا إلى بيتنا بعد يومين من الرحلة.

كانت ردة فعلها غريبة وصعقت لمرأى عينيها وحاولت أن تعرف السبب، سألتني:

- ما هذه العلامات الزرقاء التي على بطنك يا باسم؟

- أي علامات، لا أعرف!

- من ضربك على بطنك، قل لا تخف؟

- لا أحد ضربني، صدقيني!

- هل وقعت من مكان ما؟

- كلا لم أقع!

بدأت أسعل ليلا وارتفعت درجة حرارتي، لأول مرة ترتفع درجة حرارتي ومن يومها بدأت أستعمل هذا الشيء الذي يسمونه ميزان الحرارة، أذكر الأيام الأولى الصعبة التي لم أتعود على تناول أقراص الدواء التي كان لا بد من تناولها وكيف بدأت والدتي تكسرها لي وتمزجها أحيانا ببعض العصير لكي أوافق على تناولها حتى جاء والدي وطلب مني زاجرا أن أتناولها بدون دلع معللا:

- (راح تكون القصة طويلة ومش كل مرة بدنا نكسر لك الأقراص، لازم تتعود على بلعها كاملة).

وفعلت كما أمرني والدي ومن بعدها تناولت الأقراص، بل العشرات منها دون أن أكسرها.

أذكر جيدا عندما كنت مع والدتي في مستشفى (بيلنسون)، سنة ١٩٨٦ التقيت بوجوه بيضاء حليقة الشعر، وجوها لا تشبهنا وتحدثوا لغة أخرى، وضعوهم في معزل عنا، أناس غرباء أتوا من أوكرانيا وروسيا لكي يتلقوا العلاج في ذات المشفى بإشراف البروفيسور (زايتسوف)، وبعد ذلك علمنا أنهم بعض ضحايا انفجار مفاعل تشرنوبل.

أحببت هذه الطبيبة جدا، مسنة بل عجوز، قصيرة وممتلئة، أتذكرها جيدا، العالم أجمع سوف يخسرها إن حصل وغادرته، ابتسمت لي وهدأت من روع والدتي وقالت لوالديّ:

- سوف نمنحه ثلاث وجبات من الدم على ثلاث مراحل لذلك سوف يبقى معنا هنا عدة أيام، أمامنا الكثير لإنجازه.

- لكن هل يمكن أن نعود بالغد؟ سألها والدي

- لماذا الغد، لقد طلبنا حالا الوجبة، بدأ ابنك يعاني من مشكلة فقر الدم ولن نتأخر!

- فقر الدم وأشياء أخرى أيضا، أعتقد أنهم أخبروكم في مشفى (ملبين) مما يعانيه باسم، هو يعاني من سرطان الدم فئة (ALL) دعونا ننجز ما تبقى من تحاليل، وعندما تظهر النتائج سوف نجلس معا مجددا لكي أشرح لكما بعض الأمور المهمة، أرجو الالتزام بالوقت! أسلفت الطبيبة

هي المرة الأولى التي يعبأ بها جسدي بالدماء وتعددت المرات.

امتلأ القسم بالأطفال الذين عانوا مثلي، بكوا وتمرغوا في الأرض، خصصوا لنا غرفة واسعة جدا، ووضعوا فيها ألعابا مختلفة، أذكر

الحائط الذي اكتظ بالكتب المصورة والملونة وأدوات الرسم، أوراق ودفاتر، كنا نقضي فيها أوقات الانتظار، أول شيء فعلناه أثناء حضورنا إلى المشفى هو الخضوع إلى فحص دم مخبري يؤخذ من الشريان.

أحببت الذهاب إلى المشفى بسبب تلك الغرفة الجميلة التي اكتست أرضيتها بالسجاد بني اللون، أحببت لعبة الفرسان واشترك باللعب معي أحد المرضى بمرض أسمه (تلاسيميا)، أتى من منطقة المثلث، له أخت وأخ مصابان بذات المرض أيضا، لكنهم قضوا نحبهم بعد ذلك، أذكر أني سألته سؤالا عن الموت:

- ماذا يعني أنهم ماتوا؟
- (ماتوا يعني ماتوا وخلص).
- (شو يعني)؟
- (أنتَ ما بتفهم، ماتوا يعني ماتوا وخلص).
- (بس أنا ما بحب أموت)! أجبته
- (كلهم بموتوا وشو نعمل يعني)!
- (بس أنا مش راح أموت)!

- (مين قال لك)؟

- (ماما قالت لي أني مش راح أموت وأنا راح أشفى وأعيش).

طلبت منهم أن يزرعوا النصل في يدي اليسرى لكي أتمكن من الكتابة بيدي اليمنى، فحرصت والدتي على تعليمي وتلقيني للدروس بينما كنت أحصل على العلاج، ساعات طويلة نقضيها معا، هي تقوم بتدريسي جميع المواضيع الدراسية وكأني موجود في المدرسة بينما تتبدل أكياس العلاج مع تبدل كل درس، وكلما سألت كم كيسا يلزمني اليوم تقول لي والدتي:

- أين تحب أن تكون الآن؟

- في المدرسة ثم في البيت!

- إن حصل وسألت كثيرا وفكرت بعدد الأكياس التي سوف تحقن بها سوف يطول الوقت، ولكي لا نشعر به تعال نكمل دراستنا، سوف تنتهي من العلاج وتعود بسرعة إلى المدرسة ولكي لا تفوتك المواد ولكي تحافظ على تفوقك يجب أن تعوض الأيام التي مكثت فيها هنا، هل توافق أن نبدأ بدرس الرياضيات قبل أن يبدأ شعورك بالغثيان ثم ندرس اللغات؟

- موافق!

- إذن هيا بنا يا بطل سنبدأ بورقة العمل هذه.

صحبت والدتي معها كتبي وأوراق عمل شتى، لم تكتف بالمواد الموجودة في الكتب، بل طالبتني دائما بالمزيد، أحببت طريقتها بالتدريس، في دواخلي حسدت طلابها.

علمت جيدا، أني وبعد الوجبة الثانية يتغير حالي، أي بعد ثلاث ساعات تقريبا تكون قد لقنتني جميع الدروس قبل أن يتفاقم شعوري بالقيء، عندما تكثر آلام الرأس أبدأ بالتعرق ويخفق قلبي سريعا، أتعب كثيرا فتتركني لكي أنام، ربما بالنوم أستطيع الهرب من كل هذه الظواهر اللعينة التي أصابتني، لكني، ورغم كل المعيقات استطعت أن اجتاز امتحانات آخر السنة بنجاح باهر واستطاعت والدتي تحمل جميع المصاعب الملقاة على ظهرها.

***

ربما كان الله يختفي من وجهنا أحيانا، لكني استطعت استحضاره كلما طلبته، لا أهذي، لكنها هذه هي الحقيقة، سأقص ما حدث في بيتي وذلك نهار اليوم الأول من السنة الجديدة، لا أذكر السنة تحديدا لكن ما حصل ما هو إلا مؤشر حقيقي على أن الله معنا وقد أرسل لي إشارة أخبرني فيها أنكَ ستشفى، أرسلها لنا نحن الإثنان، هي إشارة حظ، أنت لم ترها، لكني رأيتها أنا واطلعت عليها الآخرين أيضا.

كما في كل ليلة وقبل أن أسكن في نوم عميق أبدأ بتلو بعض الصلوات طالبة من الله شفاء المرضى وشفاءكَ، وطلبت من العذراء مريم أن ترفق بنا.

نفذت إلى أنفي رائحة طيبة فاحت من حيث لا أدري، لم أستشعرها أبدا في السابق، وعندما استيقظت صباحا انبعثت ذات الرائحة في البيت بل توهجت فعلمت أني لم أكن أحلم، خرج جميع من كان في البيت وبقينا أنا وأنت فقط، جلست وحيدا في مكان مكشوف ووقفت أنا بعيدة عنك بعض الأمتار، لكني كنت قريبة من الرؤية حيث حطت على رأسك سحابة مكونة من البخور تشكلت على هيئة خطين متوازيين، سألتكَ:

- ما هذا الذي فوق رأسك؟

نظرت إلى فوق لم ترَ شيئا وأجبتني:

- لا يوجد أي شيء فوق رأسي!
- بل يوجد ألا ترى ما أراه!
- لا أرى شيئا!

أجبتني وخرجت من البيت بسرعة، وقفت مكاني أتأمل المشهد، لقد تناثر البخور حال اختفائك وانتشر في الأجواء بعد خروجك من البيت، دققت النظر جيدا بما يجري، أعتقدت البخور دخانا يتسرب من مدفأة الحطب، صعدت إلى الطابق العلوي حيث المدفأة وبدأت أتفحص الوضع هناك، المدفأة مطفأة والبخور بدأ ينسحب إلى الطابق العلوي ويتجمع داخل غرفتك والرائحة الذكية التي زكمت أنفي أضمرت واختفت تماما.

وعندما عدنا ليلا إلى البيت كان البخور قد استقر داخل غرفتك.

وفي ليلة ما بينما كنت أحلم، حصل مؤشر مهم، هداني الحلم نحو نجمة سداسية كبيرة الحجم مكونة من الدماء حطت على عضو الطفل التناسلي، حمراء متماسكة، علامة على أن المرض قد عاد، استفقت من حلمي مفزوعة وعندما كشفت عن انتفاخ في منطقة الغدد الليمفية الموجودة في المنطقة الاربية في أسفل البطن بجانب كيس

الخصية، صرخت في أعماقي لكي لا أخيف الطفل، كتمت صرختي عندما علمت بالخطب، فقد حلّ ظهور جديد مفاجيء للمرض، يعود هذا الخبيث مجددا بعد فترة شفاء مؤقتة، كم كانت الرؤيا مجدية، فهي علامة على كشف المخبأ قبل أن ينتشر المرض في جميع أنحاء الجسد خاصة منطقة الصدر أو الكبد، سجنت نفسي داخل غرفتي وبالصلاة طلبت القوة، صرخت وتضرعت، شهقت وانتحبت، استسلمت لانهيار جديد أقعدني داخل سريري عدة أيام صامتة أفكر مليا بالعواقب وبالنتائج... وبالفقدان، دائما خشيت من لحظة الفقدان، لا أريد فقدانه وإن حصل وعاد إليه المرض مجددا فسيكون أكثر قسوة وتعسفا، ربما سأفقده فعلا وحتما سوف أفقد زوجي الذي أحببته أيضا، الذي لم يتقبل فجيعة المرض من بدايته فكيف له تقبل فجيعة الخبر السيء مجددا، لكني لم أستطع التكتم على الخبر.

بعد دقائق نفضت الحزن عني ونهضت من رقدتي، ركضت نحوه لكي أتفقده، بكيت أمامه كالذليلة، أذلني القدر مجددا، الطفل لم يفهم معنى هذا البكاء المباشر، ربما لا يريد أن يعرف، مسحت دموعي وحوّلت بكائي إلى ابتسامة مفتعلة أغطي من خلالها وجهي المسلوب، وبعد أن درّبت نفسي على الابتسام، ناولته ميزان الحرارة كالعادة وطلبت منه أن يضعه في فمه لكنه امتنع وقال:

- أنا شفيت خلص لا أريد!

- (علشاني لا تعاند، لازم أطمئن)!

- أنا لا أشعر بشيء، أنا بخير ولست مريضا!

- طبعا أنت بخير، لكنا يجب أن نكون أكثر ذكاء من هذا الخبيث، سوف نقضي عليه قبل أن يأتي ويقضي علينا، هل توافق بأن نقضي عليه؟

- طبعا موافق وسوف نقضي عليه، هاتي الميزان!

- (شاطر وبطل)!

سجلت في المدونة المعلقة على باب حجرتك درجة الحرارة والتوقيت، كانت مرتفعة، ثمان وثلاثين وأربع درجات، بلعت ريقي بصعوبة، هذا برهان أكيد على عودة المرض، المرض يعلن عن نفسه قائلا: (ها أنا عدت ولن تفلت مني، أنا أقوى منك، هههه، لن تفلت منّي)، شعرت بتقلص في عضلاتي، تغضن وجهي وتكسرت ملامحي... اختبأ الحزن في عيني.

قبل عودة والدك بقليل وضعت المساحيق على وجهي لكي أخفي بها بعض ندوب الحزن، تبرجت وارتديت أجمل ملابس البيت وغرزت قرطا

جميلا في أذني كبير الحجم أحمر اللون، وكأني بذلك أردت إخفاء معالم وجهي لكي لا يفتضح أمري واستعددت لاستقباله مبتسمة في فتحة الدار، انتظرت منه قبلة تهوّن علي مصائب الحياة، إلى لمسة حنان أشتهيها منه لكنه صرخ في وجهي، علمت حالا أن الشقاء أصبح يتربصني، أدار وجهه عني وبعنف ظاهر ألقى بيدهِ عليّ، أصاب ذقني، تألمت لكني لم أتفوه بأي كلمة، صرخ في وجهي الذي اهتز انكسارا وقال:

- مجنونة أنتِ، لماذا كل هذا التبرج وطفلنا يموت مجددا، لا شعور بالرأفة عندكِ، أين إحساسكِ، ما كل هذه القسوة، أزيلي عنكِ حالا كل هذه المساحيق، صحيح لا قلب لديكِ...

- إن كنت تتحدث عن التبرج فأنا أتبرج من أجلك ثم، ها هو يومي الأخير ينقضي سريعا، أردت أن أشعر ببعض السعادة فيما قبل الحزن الآتي غدا حيث سأصحبه مجددا إلى المشفى لنبدأ العلاج من جديد، يجب أن أكون قوية كفاية لكي أواجه معه مراحل العلاج الصعب.

- وتكونين قوية بهذا التبرج وهذا الرداء الأحمر الذي ترتدينه بالكاد أفهمكِ!

- الأحمر أصبح لوني المفضل!

- بل هو لون الدماء!

- عرفت ما الذي ستقوله، بالنسبة لي هو لون الحياة، لون الحب، هو السعادة، هو البقاء، هو التجدد، هو الشفاء، ابني سوف يشفى وسوف تتجدد حياته.

- تتحدثين بثقة، لماذا لا تقولين أن لون الدم هو الموت الأكيد!

- لأني واثقة من شفائه!

- تضحكيني كثيرا وجدا!

- سنضحك جميعنا عندما يشفى!

- امرأة تافهة!

- بل قل متفائلة!

- (نيالِك يا بختك على هالروح)!

- أنتَ قل إن شاء الله!

- أقترح أن نقوم بتحويله إلى مشفى آخر، إلى (رامبام) في حيفا فهو أقرب علينا من تل أبيب.

- لكن لا يوجد قسم مخصص للأطفال هناك فلماذا نفعل؟

- هكذا يكون الأمر أسهل علينا.

- لا أريد!

- لماذا؟

- لقد اعتدنا على (بيلنسون) وباسم سعيد هناك والطاقم يدركون بحالته، وملفه موجود هناك، ثم لا أريد انتزاع هذه السعادة منه!

- أنتِ اخترتِ، كما تريدين، أردت أن أسهل عليكِ المشوار!

- لنذهب إلى القسم المخصص للأمراض السرطانية أولا ونأخذ فكرة عن القسم عن قرب، ثم بعد ذلك نأتي بالقرار، سوف نصحب باسم معنا فالقرار يعود له أولا وأخيرا.

- أفهم من هذا أنه لا قرار لنا!

- هو المريض الذي يعاني هل نسيت ذلك؟

- ونحن نعاني مثله أيضا لا تنسي ذلك أيضا!

***

وكتب باسم:

ذهبنا ثلاثتنا إلى مستشفى (رامبام) بحيفا، يبتعد عن ضيعتنا ساعة سفر فقط، كنت قد أصبحت في الحادية عشر من عمري، أمضيت منها أربع سنوات بين أروقة المشافي واستطعت أن أقاوم المرض سنتين كاملتين، لكنه ها هو يعود مجددا وبأكثر حدة، ابيضاض الدم الليمفاوي سبب إلى تكاثر غير طبيعي للخلايا الأرومية اللمفاوية في نخاع العظم وقرر الأطباء أن أخوض تجربة زرع نخاع عظام، لكن قبلا يجب أن أدخل مرحلة (الريميسيا)، بدءا ذي بدء بتهدئة المرض بواسطة علاجات متنوعة ثم محاربتها كيماويا حتى اختفائها تدريجيا إلى الحد الأدنى، أذكر جيدا بعض أسماء الأدوية التي علقت أمامي على عمود السرير الأبيض، أكياس من عدة ألوان تشرئب في جسدي فتمتصها شراييني مثل (البردنيسلون)، (فريكلنستين)، (ميثوتركسيت) وغيرها كثيرة كنت أتناولها عن طريق المصل وأخبروني بأن مرحلة الزرع ستأتي بعد أن أقطع شوطا جديدا ومكثفا في العلاج، ناهيك عن الأشعة التي كانت تهز كياني، ولكي أصل إلى المرحلة الحاسمة، أي مرحلة المجازفة كما كانوا يدعونها أمامي، وهي عملية زرع نخاع العظام، لكن أولا يتحتم علي أن أنهي الدورات العلاجية في وقت قصير وبشكل مكثف.

لمحت نظرات والدتي المنكسرة الحزينة، حتى مهما فعلت لن تستطيع أن تخفيها، هذه الأم الشابة تجابه مصير طفلها وحيدة حتى لو كان يصحبنا والدي أحيانا إلى المشفى بسيارته، كان معنا وليس معنا، حاضر وغير موجود، رأيت والدتي كيف كانت تتحمل معاناة السفر وحدها، تنهي جميع ترتيبات البيت قبل الخروج منه، تهيء أغراضنا، اهتمت بأن أقبل على العلاج أيام الآحاد أو أيام الجمعة، أثناء أيام عطلتها الرسمية حيث عملت مدرسة في إحدى مدارس الضيعة، استطاعت أن توفق بين عملها والمواظبة على علاجي وأيضا لكي تضمن اصطحاب أخواتي الثلاث معنا، لم تتركهن في البيت وحيدات، وبعد مشادات عنيفة ومشاجرات لا لزوم لها بينها وبين والدي في الطريق أكثرها لأسباب تافهة، حيث عرف كيف يشعلها وكأنه بهذا يرسل لها رسالة مشفرة بأن تعمل هي على إعفائه من مهام الأب في هذه المرحلة الحاسمة وأن تتجاهل وجوده فتتحمل هي وحدها أعباءنا جميعا، لكن والدتي لم تستطع أن تفهم والدي إلا متأخر جدا... تغيظني براءتها!

نصل جميعا باحة واسعة محاطة بمعشب أخضر وبعض الأزهار الجميلة، ينزلنا والدي في المشفى ثم يستمر في طريقه مصاحبا أخواتي إلى بيت جدي في مدينة الرملة لكي تعتني بهن جدتي وينتظر هناك مرتاحا، لم أعلم كيف كان يقضي وقته، أكيد تناول طعام جدتي

الشهي وراح في غفوة ريثما ينتهي النهار، أحسست دائما بأنانيته، لم تشعر بها والدتي لأنها كانت مغرمة به جدا.

يوما عصيبا يمر علينا نحن الاثنان ويحل الليل، انتهى العلاج اليومي بنجاح، اتصلت به والدتي لكي يعود بأخواتي فيأخذنا من المشفى ونعود أدراجنا إلى ضيعتنا التي تبعد حوالي الثلاث ساعات سفر، أذكر جيدا المرات القليلة التي كان يلازمني فيها والدي، دائما كانت والدتي حاضرة، حيث يطلب الأطباء منه المساعدة، يمسكني كذبيحة ويخشى علي من التحرك حتى يغرزون إبرة طويلة في عمودي الفقري لكي يحصلوا على خزعة من نخاع العظام فيتم فحصه نسيجيا، هذا الفحص أشبه بجحيم وجب علي تقبله، والدي لم يستطع تحمل المنظر لكن والدتي استطاعت أن تقويني وتتحدث معي وتشجعني لكي تلهيني ريثما ينتهون من أخذ العينة، هي امرأة قوية جدا، تصلني عبارات والدي عندما يخرج من غرفة الفحص، بينما يقول متهكما لوالدتي:

- أنا لا أستطيع، أنا إنسان ولا أستطيع أن أتحمل أكثر!..

- (خلص ولا يهمك أنا سأبقى معه، لن أدعهم يطلبون منك أن تساعدهم، لا عليك، اهدأ فقط، لا تنسى أننا في المستشفى، اخفض صوتك)!

- إذن، أتمنى أن تأخذي على عاتقك هذه المهام أيضا، أنا لا أستطيع التحمل أكثر، لن أرافقكم!

أعلم جيدا أن والدي يبالغ بالشكوى، أكشفه دائما، يكذب ويمثل دور المحب، لكنا لم نشعر أبدا بمحبته لنا لأنه أحب نفسه أكثر، جسدي المريض كان ضعيفا لكن ذاكرتي قوية، لم تفتني التفاصيل الصغيرة أيضا وسألت نفسي دائما، لماذا والدتي لا ترى ما أراه، هل لأنها أحبته كثيرا في يوم ما أم لأنها ساذجة أم ماذا... أحيانا تغيظني هذه المرأة!

قمنا بزيارة المشفى الجديد عندما أراد والدي أن يقوم بتغيير المكان، طلب مني الانتقال إلى (حيفا)، شعرت بانقباض شديد حينها لكننا ذهبنا، كرهت المكان، كل شيء مختلف وحتى الجدران لم تشبه مشفى (بيلنسون)، الأطباء والممرضات وحتى المرضى مختلفون وجميع الأجواء غريبة علي، شعرت بغربة ووحشة، الاكتظاظ هنا شديد، حدسي يقول لي أن نهايتي ستكون هنا وأنا أحببت الحياة، لم أرد أن أخسر معاملة الممرضات والأطباء الطيبة هناك حيث خصص القسم للأطفال فقط وأنا ما زلت طفلا.

والدتي تمنعت بداية لكنه بعد أن نهرها والدي ترددت وتلعثمت، كانت ضعيفة أمامه حينها تدخلت وبدأت أتوسله:

- أرجوك لا أريد أن أبقى هنا، لقد تعودت على (بيلنسون)، هناك أفضل من هنا، أريد أن أبقى هناك!

- العلاج سيبدأ من جديد والمسافة طويلة وأنا لا أستطيع تحمّل أعباء السفر، سوف تتعود، العلاجات في جميع المستشفيات متشابهة!

- لكني...

- ماذا أنا قلت هنا يعني هنا!

قاطعني بحزم بينما نظرت إليّ والدتي مشفقة علي وعيناها مغرورقتان بالدموع ثم قالت له:

- سيبقى ابننا حيث يشعر بالأمان هناك ولن نطلب منك أن تأتي معنا، لا ضرورة لذلك، الآن أنا أملك إجازة قيادة وسوف أتولى الأمر وحدي، لا عليك أنتَ!

هذا ما أراده بالضبط أن يعفي نفسه من المسؤولية ومن كل شيء، حينها تدخلت قائلا:

- سأذهب وحدي، أعرف الطريق جيدا، سوف أسافر في أول حافلة التي تغادر فجرا من الضيعة إلى مدينة عكا، من هناك سوف أستقل الحافلة رقم ١٠٠ التي تذهب مباشرة إلى تل أبيب، سوف أنزل

من الحافلة في (بيتح تكفا) حيث المشفى، أعرف تماما أين أنزل، سوف أذهب وحدي وأعود وحدي، وإن تأخرت عن موعد الحافلة العائدة سوف أعود بالسيارة التي يخصصها المشفى للمرضى المقيمين في شمال البلاد، سوف أصل البيت لا تقلقوا عليّ.

قلت بحماسة وتمنيت من صميم قلبي أن يوافق والدي وألا يعارض لكنه قاطعني قائلا:

- سوف أوافق على اقتراح والدتكَ لأنك ما تزال صغيرا على خوض مثل هذه الرحلة وحدك، ثم بعد أن تنتهي من العلاج يلزمك من يساندك، سوف تأخذك في سيارتها، تستطيع أن تتحمل عبء السفر فهي معتادة عليه كما تستطيع تلبية احتياجات البيت قبل أن تغيب عنه، هذه حساباتها لأني سوف أكون منهمكا في عملي، وخاصة تجهيز الطعام وتأمين الصغيرات.

وكانت لهذه الحادثة ذكرى عميقة في نفسي لأني استطعت أن أكتشف مدى أنانية هذا الرجل الذي استطاع أن يوهم الآخرين بأنه رجل رحيم، وبدأت والدتي تستسلم لجميع مطالب والدي بعد ذلك، حيث علم جدا أنها امرأة سهلة الخضوع وتتقبل كل شيء بصدر رحب، لقد فهم أحاسيسها وما يختلج دواخلها بصورة خاطئة، لم يستطع أن يكتشف المروءة التي تتمتع بها هذه المرأة الحساسة، الشفافة،

المخلصة، النقية الطاهرة، أرادت أن تفدي نفسها من أجلي وتحملت أعباء كثيرة لكي تبقى معي، احتجتها في كل لحظة، لكن وللأسف الشديد وهذا اعتراف صريح مني وهو، لم يكن والدي وحده من عرف كيف يستغل كل هذه الصفات لمصلحته وأنا أيضا فعلت عندما كبرت وكثرت نزواتي... ألست ابن أبي!

***

كانت لك أحلامك وتطلعاتك للمستقبل، تخطط بدقة لما تريد أن تحققه فيما بين برنامج العلاج الذي خصص لكَ، أحدهم قال لي عندما رآني ألقنك دروسك بكل جدية، من أقربائكَ:

- (يا عمي أتركيه ولا تحملّيه أكثر من طاقته، خلّيه يعيش وبعدين يدرس)!

- لأني واثقه أنه سيحيا سوف ألقنه دروسه أوّلا بأوّل، لأنه سوف ينجح وسيدخل الجامعة! أجبته

- (بعدو صغير أتركيه). قال

- لأنه بعدو صغير يجب أن يدرس وسيتلقى العلاج أيضا وسوف يستوعب لأنه ذكي جدا!

وسألتكَ، ماذا تحب أن تكون عندما تكبر، ابتسمت وقلت:

- لا أريد أن أصبح!

وعندما أصبحت شابا رأيت دواخلك تتسم بمقومات الذكاء الذي يحلم بها كل شاب في جيلك، نظرت إليك وتأملتك كثيرا ورأيتُ كم كنت قويا وطموحا، أسئلة كثيرة دارت في خلدي حينها، كنت شبه متعافيا من

المرض، على الأقل استطعت أن تكون ما كنت تصبو إليه ففاجأتني بالسؤال:

- تذكرين عندما سألتني عندما كنت صغيرا ماذا أحب أن أكون؟

- نعم سألتكَ ولم أكرر عليك السؤال مجددا!

- لماذا لم تكرري السؤال ألأنكِ خشيت من ألا أبقى على قيد الحياة؟

- .....

- وتصمتين عندما لا تجدين الجواب، على الأقل عندما لا تجدين جوابا يروق للآخر لكي لا يشعر بالحزن أو بالإهانة أو الاستفزاز!

- وكأنك تخطط لشيء لا أعرفه! أجبتكَ

- نعم يا أماه حان الوقت لكي نفترق!

صرخة طائشة صدرت من أعماقي، نزف الألم من داخلي، ثم ضحكت، لم أفهم كنه تلك الضحكة الطائشة التي صدرت مني ثم منك أنت

أيضا، لكنكَ أخبرتني باعتداد وبفخر أنكَ قررت السفر إلى الولايات المتحدة، قلت:

- سوف أهربكِ من أنيابه، أنا فقط أستطيع أن أفعل ذلك ولن أتركِكِ تتعذبين أكثر هنا، سوف أقوم بتعبيد الطريق لنا لكي نسافر ونستقر هناك وسوف نترك الضيعة!

- هل حقا تستطيع أن تفعل، أنا لا أصدق نفسي، لكنك ستبتعد كثيرا وأنا لا أقوى على بعادكَ، ستفعلها، أعرف أنكَ ستفعلها وستغيب!

- نعم، يجب أن أفعل شيئا، يكفي كل هذا الاستهتار، يكفيك كل هذا العذاب، يكفي، أنا مللت!

وذهبنا جميعنا إلى شاطئ عكا، شربت البيرة التي أحببتها وأنا جلست على الشاطئ أتأمل البحر، كم أحببتكَ يا وطني الساحلي، يا أرض النعم والجمال، يا لأناقة قامتك، جبلا سهلا وبحرا، لكن لا بدّ من الفراق.

مرحت أخواتكَ في المكان، تعودنا على هدير البحر وكلما ضاقت بنا الدنيا لذنا إليه، عكا بالنسبة لنا طموح كبير، كلما مررنا من جانب (تل نابليون) حدثتكم عنه ورويت لكم قصة الأسوار وتحدثت عن شخصية

(نابليون)، ذكرت أمامكم مقولته (رحلة الألف ميل تبدأ بميل وأنه لا شيء مستحيل)، وخططت دواخلي أن أفعل كما آمن (نابليون) وأن أجتاز الأميال بعيدا، أردت اجتياز الأميال بكم ومعكم... أدركت كيف أذلل المستحيل.

- بماذا تفكر يا باسم، لماذا كل هذا الاستغراق في التفكير يا ولدي، هون على نفسكَ!

- لن أقبل البقاء هنا، هذا العالم لا يتناسب وطموحاتي، أملك القدرة على النجاح والتفوق في أماكن كثيرة أخرى، هنا لا يمكنني أن أكون، وكما دربتني أنتِ على هذا المبدأ: (تكون أو لا تكون)!

- نحن في رحاب التاريخ وتتذمر! رفعتُ يديّ إلى السماء حينها، ودرت عدة دورات، بل طرت مع هواء الساحل العليل، ثم عدت إليكَ وأنا أشير إلى البناء القديم، وقلت:

- التاريخ والحضارة خلفنا ونتركها!

- سوف نسافر ونترك التاريخ خلفنا، ما نفع التاريخ الآن ونحن نعاني!

- إنه الوطن يا بني!

- عندما نجد أنفسنا غرباء بين ناسنا لا يكون وطنا، هذا ليس وطنا وسنغادره! قلت

- كيف لي ترك كل هذه الذكريات؟

- تتحدثين عن الذكريات يا أماه، وهل كانت جميلة كفاية؟

- .....

- لا تصمتي وأجيبيني دون تردد، هل أنت سعيدة هنا؟

- أنا سعيدة لأنك ما زلت على قيد الحياة، وأنك شفيت!

- لا تتحدثي عن الشفاء!

الوطن عندما تجد المرأة من يحميها من أنياب الآخرين، الوطن حضن أمان ومستقبل مضمون، الوطن أن نحيا اللحظة بوضوح، الوطن هو عدم شعورنا بالغربة، الوطن ليس سوطا ولا كرباجا يجلدنا حتى عمق أرواحنا وقلوبنا ونحن ساكتون، الوطن لا ينحسر برجل واحد لا يعرف سوى التسيّد.

سافرتَ، وذهبت كذلك شقيقتك (سوزان) إلى تل أبيب لدراسة المحاماة، وسافرت (زيزي) أيضا لدراسة موضوع علم النفس أيضا، أبنائي الكبار الذين دافعوا عني ووقفوا بجانبي، والذين تحدوا قسوة والدهم يتركوني ويبتعدون، شعرت بوحدة قاتلة، وحدة مخيفة وبالضعف، لكني تظاهرتُ بالقوة لكي أقف أمامه متحدية وأحاول الدفاع عن نفسي وحدي، لكنه استطاع أن ينكّل بي وأطعمني أشدّ عذابات الدنيا من قهر وتجاهل، تعنيف نفسي وجسدي وإهانات مستمرة، أحوال لا توصف، لم تجف لي دمعة منذ رحيلك رغم أنك تواصلتَ معي كل يوم عبر الهاتف ولم أخبركَ بما يجري.

اشتقت لك كثيرا وأنتَ بعيد عني، اشتقتُ لضحكتكَ الجميلة ولتشجيعك لي، تمنيت أن تأتي إلى سريري قبل خلودك للنوم لكي تقبّل قدميّ كما كنت تفعل، قبلتهما من فوق الغطاء وأنا تمنعت تماما، لم ترف لك عين حتى تفعلها، توسلتكَ على أن توافق بأن أقبلكَ على

خدكَ أو أن تطبع قبلة على خدّي عوضا من قدميّ كما فعلت أخواتكَ، كنت تخجل من أن تفعلها زاعما:

- أنا ولد وهن بنات!

- شو يعني الولد لازم يخفي محبته لوالدته؟

- أيوه هيك بصير ولد!

أمضيت سنة كاملة في الولايات المتحدة، تلك هي أجمل السنوات التي عشتها، عرفت هناك شكل السعادة، انطلقت وساهمت وعملت ونجحت، فعلت كل شيء لكي ترضي غرورك، تاقت نفسك للحياة والاستمرارية فيها وأصبحت هذه الرحلة فيما بعد وفي زمان الحزن والضعف من أهم أسباب البقاء بالنسبة لك، لكنك عدت خائبا ولم تستطع تكملة المشوار هناك، أخفقت وبدأت تجر ذيول الخيبة خلفك، عدت مرغما ودخلت في حالة ذهول وحزن عميقين، اغتالتك الكآبة وتجمعت داخلك الحسرات، وتوقفت طموحاتنا جميعا... لم نعد نحلم بالمغادرة!

لم تمر سوى أيام معدودات وبدأت تشعر بالوهن مجددا، خيوط حمراء بدأت تتجلى وتظهر فيما يخرج من جسدك، تحوّل لون البول إلى أحمر، اختفت فترة ثم عادت بعد أيام لكي تدق ناقوس الخطر، هذا

الناقوس الذي أدى بك في رحلة العودة إلى المضيق الضيق الذي حاولت التهرب منه كثيرا، المرض يعود مجددا فارشا أجنحته بشكل مغاير هذه المرة وفي أماكن مغايرة كثيرة، أخبرني الطبيب أن جسدك لا يحتمل النصل الغريب الذي زرع داخلك فاستمر بالرفض بشكل حاد وتنبيهي، ناقوس الخطر يشير لنا باستمرار على أن عملية الزرع قد باءت بالفشل حقا!

أن تحيا بعد العملية بنسبة نجاح ٢٠% إنه لأمر مستحيل لكن رغم التبعيات المقلقة التي لحقت بصحتك بعد ذلك استطعت أن تحيا، لقد خيرنا الأطباء قبل أن نجري لك عملية زرع النخاع من أن نواصل العلاج أو أن نتوقف حالا، أخبرونا بنسبة النجاح القليلة مقابل نسبة الفشل الكبير وفقا للمخاطر الجمة التي يقابلها الفشل الذريع، أودعوا القرار الصعب بين أيدينا، أطلقوا النار علينا ورموا بنا في مستنقع من الحيرة مما أذلنا، الحيرة مذلّة قاتلة وموجعة، لو تدري كم شعرنا أنا ووالدك بالإذلال حينها، وتركوا لنا الخيار، قررنا الاستمرار بالعلاج رغم المخاطر ولم نتركك تموت دون أن تخوض تجربة الزّرع، هي منازلة حقيقية لمستقبل مجهول وطريق مبهم يؤدي إلى نتائج مبهمة وغموض مخيف، إنها لعبة المصير!

***

أتمنى أنها استوعبتك وأخذتك في حضنها، هناك، حيث تتحد الأرواح، أكثر إنسان أحببته في الكون، وأقولها بملئ الفم، تلك القديسة التي أطعمتك بيدها، وأفرجت عن روحك الغمّ والنكد ومصائب كثيرة أخرى، وهي السبب الرئيس لبقائكَ وبقائنا هنا جميعا، لولاها هي لم تكن لنا هنا حياة جميعا، وكنا عدنا من حيث أتينا خائبين ننتظر نقر جلودنا وصلب جلدنا.

تلك التي فرشت قلبك بالرحمة ودهنته بالرأفة والمحبة، والتي دعتك إلى محفل المحبة، السيستر (دي لورد)، الراهبة التي مكثت بجانبك أياما طويلة، تطعمك وتسقيك، وتهوّن عليك الحياة، تنتظر معك حتى أعود من دراستي لكي أستلم مهامي من بعدها، عدت طفلا مدللا بحاجة لرعاية تامة، وعندما أعود إليك أكمل أنا ما بدأته هي من مهام، وذلك عندما دخلت المستشفى هنا لأول مرة بعد وصولك من البلاد مباشرة، عندما بشرونا بأنهم يستطيعون استيعابك أولا بما أنك لم تملك تصريح الإقامة بعد، والخبر الثاني هو أنهم استدلوا على نوع عقار يمكنه مساعدتك، عقار أنتج هنا ولم يسمح باستعماله بعد في مستشفيات العالم، وقد أجريت لك ثلاث عمليات في يوم واحد، منها بدأت رحلة العلاج الجديد بعد أن أعلن الأطباء في البلاد استسلامهم.

أحبتنا كثيرا، وأصبحنا أسرتها، ودبرت لك ثمن الدواء، عشرة آلاف دولار، واتخذتك ابنا تفتخر به أمام زملائها في العمل والراهبات في الدير التي أقامت فيه، لم تكن حكاية لقائنا بها حكاية عادية مما فيها من غرائبية، وكأنها أسطورة، بل هي حقيقة لن يصدقها أحد، لكننا نحن جميعا نصدّقها، لقد لعبت بنا الأقدار، أرجحتنا ونقلتنا ووضعتنا في أجمل العوالم ثابتين، لقد غادرت قبلك بسنة ونصف تقريبا، حزنت عليها كثيرا، وقلت لي حينها:

- نيالها السيستر دي لورد!
- مسكينة فارقتنا سريعا وتركت فراغا كبيرا! أجبتك باكية
- هي لم تفارقنا، هي لدى الملائكة الآن، انتقلت إلى هناك، إنها محظوظة جدا لكنها حاضرة بكل قوتها معنا، تحمينا وتحرسنا، الحياة الحقيقية هناك وليس هنا، أنا أكيد أنها حظيت بالجنة، أتمنى أن أحظى مثلها بالجنة أيضا!
- ستحظى بها يا بني، بعد عمر طويل، لا تفكر بالموضوع الآن!
- أنا أكيد من أنني سأكون معها في الجنة فكل هذا العذاب ما هو إلا تمهيد لحياة أفضل، أنا لا أخاف الموت بل أتمناه، أنتظره، وأريده، لأني سأكون في مكان سيصل إليه قليلون!
- .....

- وتصمتين مجددا، لكني وبكل قواي أطلب منكِ طلبا يا أماه!
- ما هو هذا الطلب، أطلب عيناي يا كبدي؟
- أن تؤمني بشيء اسمه الجنة والنار، أعرف أنكِ لا تؤمنين بها، لكن أرجوك أن تراجعي نفسكِ، أنتِ أيضا يجب أن تدخلي الجنة، فما نلته من حصص العذاب يفوق التصورات، أنتِ موجوعة جدا وفقط الرب يمكنه مساعدتكِ.
- .....
- ماما، لا تصمتي، أخبريني؟
- بماذا أخبركَ؟
- هل يوجد جنة ونار؟

كم آرقتك هذه المسألة وكم أتعبك البحث، لكنك رغم كل شيء آمنت بوجود الجنة وكنت قريبا من الله، ولكي أجعلكَ سعيدا بإيمانكَ مطمئنا ولكي أبعد عنك الشكوك أجبتكَ:

- طبعا يوجد، أكيد يوجد!
- لكني لا أذهب إلى الصلاة، عندما كنت في أمريكا ذهبت إلى الصلاة، أحببت أسلوبهم وتعلقت بهم لذلك ما زلت أتابع الحلقات التلفزيونية، وإن كتب لي الله عمرا جديدا سأزور أمريكا مجددا، لكن لنحصل على الإقامة الثابتة أولا... يجب أن نبقى هنا، هنا الحياة!

- نعم سنبقى هنا لأني أعتقد أننا فعلا في الجنة، الجنة هنا، أستراليا جنة، و(بريزبن) جنة الجنائن، وأنا سعيدة لأنك سعيدا وراضيا، ولأننا معا استطعنا أن ننجز جميع ما يلزم من وثائق ضرورية تدعم بقاءنا هنا.
- صلي بخشوع أماه لكي نبقى هنا، أخشى من العودة خائبين إلى هناك، إن عدنا تدركين جيدا ماذا ينتظرنا!
- سأصلي ومنذ وصولي وأنا أصلي، وأعلم أن الله موجود هنا لأنه بدأ يحقق لنا رغباتنا ولن يتخلى عنا أبدا، سنبقى يا بني، وسريعا سيعلمونا بحصولنا على الإقامة!
- تتحدثين بثقة، هل تشعرين بذلك فعلا؟
- احساس جميل ينتابني، أشعر أننا سنبقى هنا، شعور أكيد سيتحقق.
- أصدّق هذا الشعور.

***

وعندما اشتعلتُ حياة من مجردِ كلمةٍ حُلوةٍ تُقال، انفتحت ردهة القلب وأزهرت، كلمة مبروك، كانت كفيلة لإعادتي إلى الحياة، ولادة جديدة أعادتني إلى نفسي مجددا، الحصول على الجنسية الأسترالية حدث لا يثمّن، ما أجملنا ونحن نرقص فرحا، لقد عدنا من الموت الأكيد إلى الحياة من مجرد كلمة واحدة، (مبروك).

كأني أستمع إلى أصوات طائرات تهدر بالجو، سماء أستراليا نظيفة تماما من الطيران الحربي لأنها دولة مسالمة، إنها تملك كغيرها من الدول الكبيرة طائرات حربية لكنها لا تستخدمها، أجزع كثيرا من هذا الأزيز الذي يحملني مباشرة إلى المكان الذي أتيت منه، حيث الحروب لا تهدأ ولا تصمت، وأزيز الطائرات التي وإن لم تذهب إلى الجبهة تحوم للاكتشاف أو للتجربة أو للمناورات التدريبية، الصوت يقترب يصاحبه هذه المرة ضوء، هو أزيز الرعد وضوء البرق إذن، العاصفة تسرع نحو سماء احتشدت بالغيوم، أظلمت الدنيا، ارتجف قلبي، كم أخشى العواصف!

أحدهم يطرق باب داري، لا أعرف أحدا هنا، من يكون الطارق يا ترى، استغربت من هذه الطرقات التي أخافتني، لا يزال الخوف مزروعا داخلي، الدقات تتوالى كما يتوالى صفير الريح وهزيم الرعد، وعندما فتحت الباب ظهر رجل أملد بالكاد تعرفت عليه، جاري، بيته يحاذي

بيتي من الجهة اليسرى، مهمل الملبس، حافي القدمين، ملامحه جامدة، تعابير وجهه غير واضحة، غير مبتسم، يبدو منزعجا، أعرفه من صوته فقط لأني أسمعه أحيانا وهو يتشاجر مع زوجه، صوته مرتجف لكنه مألوف، أنزعج منه عندما يبدأ بالسعال، سعاله مقرف، أتقزز وتتقلص قسمات وجهي كلما أسمعه يبصق، استنشق سجائره في الخارج، يخرج من داره، يشعل سيجارة، يسحب نفسا ثم يبصق، وعندما ينتهي منها يعود إلى الداخل وبعد عشر دقائق بالتمام يخرج مجددا لكي يحرق لفافة أخرى، ثم يبصق ويدخل داره مجددا، وهكذا دواليه.

- هاللو يا جارتنا! قال

- هاللو، أهلا وسهلا!

- آسف جدا إن كنت قد أزعجتكِ، أعلم أنكِ بالكاد تعرفينني لأنك جديدة في الحيّ، لكني لم أستطع عدم التفكير بكم.

- التفكير بنا، عفوا أنا بالكاد أفهمكَ!

- ألا تتقنين الانجليزية؟

- وكيف أتبادل الحديث معك إذن إن كنت لا أتقنها، من فضلك فسّر كلامك.

- أنا آسف، أشعر أني أزعجتكِ حقا، لم أقصد، فقط جئت لكي أمنحك هذه الشمعة وهذا المذياع الترانزيستور، تابعي أخبار المدينة على الموجة الموجهة، أخبرونا أن العاصفة سوف تحدث بعد ساعة، وربما يحدث انقطاع في شبكة الكهرباء لذلك جئتكِ بهذه الشمعة، أرجوكِ تابعي الأخبار، من خلالها سوف يبثون أرقام الطوارىء، إن احتجت أي شيء فأرجوكِ لا ترددي بالسؤال.

- عاصفة، أنا لا أخشى شيئا وقد اعتدت عليها تماما، سوف ألزم الشمعة فقط وسأعيد لك المذياع لأني أملك آخر مثله.

- أشكرك لأنك قبلتِ هديتي، لك سلام خاص من زوجتي، إلى اللقاء الآن.

أشعر أني أقف على أرض غير أرضي، في أرض لم تعرفها خطواتي بعد، تراكمت عشرات الأسئلة داخلي، كم أضافت لي هذه الحادثة من احساس بالأمان، أحببت كيف تصرّف هذا الرجل الذي كرهته سابقا قبل أن ألتقي به، قلت (الدنيا ما زال فيها خير)!

لم يتسن لي معرفة اسمه ولا حتى اسم زوجه التي تحاول أن ترسم اللوحات، تمضي أوقاتا طويلة بين الريشة والأصباغ، لكنها لم تتمتع بأي حس من الإبداع، ترسم نقلا عن لوحات أخرى، في يوم ما رسمت

لوحة أثارت حفيظتي جدا، لذلك لم أغفر لها خطأها الفاحش عندما رسمت جملا ضخما أمام أهرامات الجيزة الثلاث، ظهر الجمل أضخم من الاهرامات العظيمة.

سألتها في حينه:

- هل تسنى لكِ زيارة أهرامات مصر؟

- لا طبعا، أتمنى ذلكَ!

- هل قرأتِ عن هذه الأهرامات التي هي من عجائب الدنيا السبع، عن أحجامها مثلا.

- كلا لم أقرأ!

- هرم خوفو أكبرهم، هذا الذي في اللوحة (أشرت لها بإصبعي) هل تعلمين أن ارتفاعه يبلغ ١٤٨ مترا، ومساحة قاعدته ١٣ فدانا.

- ياه، كم كنت غبية، أظن أني يجب علي إتلاف هذه اللوحة حالا!

- أوافقك يا جارتي وإلا فسوف تزوّرين التاريخ، أرجوكِ افعلي!

يعاني زوجها، وسوف أطلق عليه اسم (جون) من حالة انفصام بالشخصية، أتابع تحركاته جيدا من بعيد، فعين الروائي تعشق التفاصيل، أسمعه عندما يجلس في المرآب ساعات طويلة يستمع إلى المذياع بينما تمضي هي ساعات طويلة في العمل، يتحدث مع نفسه أحيانا، لم يحدث وشارك بالغناء أبدا، مستمع هادئ يفضل العزلة، لا يفرح عندما تزوره حفيدته التي تتعبه بأسئلتها كثيرا، لكنه يبدو ودودا ومحبا للآخرين، لا يتفق أبدا مع زوجته التي بدأت تسأم من حالته الصحية، يصل صوت شجارهما أحيانا إلى مسامعي:

آن: لا يعجبني ما فعلته من طعام اليوم، ألف مرة نبهتك ألا تقترب من المطبخ، يوجد طعام في الثلاجة، لقد أفسدت كل شيء.

جون: (شات آب) بما معنى اسكتي أو اخرسي!

آن: أنتَ (شات آب)!

جون: بل لك أنتِ، لقد قلتها قبلكِ!

آن: بل أنا قلتها قبلكَ.

وينتهي الشجار (بشات آب)، (آن) تدخل البيت وتتركه فترة وجيزة، يبقى وحيدا حيث هو لا يبارح مكانه وبعد نصف ساعة تختلف الأحوال كليا:

آن: (هاني) يا عسل، لقد أعددت لنا وجبة فاخرة، تعال.

جون: (جود) جيد.

آن: هلا تناولناها معا في الداخل، (يو نو) هل تعلم، أنا فخورة بنفسي أني أتحمل وأصبر على الجوع، (يو نو) هذا الطبق أسرع شيء أمكنني صنعه، (يو نو) لو لم تتلف الخضار قبلا لكنا...

جون: (جود)، جيد.

آن: ألا تأتي، (يو نو) أنا أفضّل أن... (يو نو)... أنه اليوم وفي الصباح...(يو نو) ألم أقل لك أنك أتلفت قبلا...(يو نو) ... لو...

جون: (جود) (جود)، جيد، جيد.

وينتهي الشجار، أعتبره شجارا مثاليا، لم أعهد مثل هذه الشجارات سابقا، لو نتعلم دروسا من الشجارات!

***

الساعة الواحدة والنصف بعد منتصف الليل، أكافح النعاس لأني أريد الاستمرار في الكتابة، القطة تموء في الخارج، أعتقد أني أسمع صوتها، صوتي، عندما بكيت مثل قطة تموء، هو صوتي، بل صوتها، بل صوتنا نحن الإثنتين.

لا شيء يضاهي عذاب امرأة، لا أصعب من جرح الكبرياء، خائن هو الصمت ومسكين العنفوان عندما ينكسر، لا شيء يساوي لحظة حياة تأتي بعد لحظات الموت، لا شيء يعوض عن الموت سوى العذاب المستمر، العذاب هو الموت البطيء، والبكاء يكون أحيانا سلوى الروح وراحة القلب، لكنه في أحيان كثيرة يكون البكاء هدرا لسنين العمر، بعد البكاء يأتي الشعور بالإرهاق، ارهاق مستمر وتعب حائر، من بعده يأتي إحساس النوم هروبا، ربما لن تستفيق الروح، وإن استفاقت، فستستفيق مخدوشة ومشطورة.

لا أستطيع في هذه الليلة بالذات نسيان أيام العذاب، الوحدة، القسوة والألم عندما بكيت مثل هذه القطة التي تموء في الخارج، وحدي، كنت متأكدة أن أحدهم كان يسمعني ويسكت، (السكوت على الخطأ جريمة كبيرة)، أو كان يسمعني ويتردد التدخل، أو كان يسمعني ويتألم مثلي، وربما كان يسمعني أموء ويضحك سعيدا!

ماءت روحي ولأول مرة عندما سمعت بخبر مرض ابني، وتتالت المواءات، وعندما رأيت بأم عيني زوجي الذي أحببته يستقبل حبيبته على مرأى عينّي، وأيضا عندما توسلته ليلة كاملة بأن يعد إليّ ولم يستجب، بل ضحك متباهيا بفعلته، تركني أموء طوال الوقت وهو بدوره يبتسم متفاخرا، ابتسم كثيرا ولم يتراجع، اعتقد أني سوف أقبل بما هو مستحيل وأرضى بالوضع الشاذ حيث طلب مني أن أرضى وأسكت، على أن يحتفظ بنا نحن الاثنتان، مؤتُ فابتسم وفرح، مؤت فصمت، مؤت لم يبالي، مؤت ولم يحزن أبدا، مؤت وأحس بنشوة الرجولة والفحولة!

وها هي القطة في الخارج تموء نيابة عني الآن، لكن مواءها يختلف، هي تضاجع قطا في ساحة بيتي، صعب التمييز بين الموائين، مواء الألم ومواء العشق، كما هو صعب التفريق بين مئوء لحظات اللذة ومئوء لحظات الإنجاب، القطة الأم تتعدد الموءات في حياتها، مواء الفرح عندما تصرخ آخر صرخة ساعة الإنجاب، ومواء العذاب وهي تبكي بصوت عالٍ عندما تكون وحيدة، الآن أموء بصمت لئلا يسمعني باسم لأنه يجاورني في الحجرة، يفصل بيننا جدار واحد فقط، هو يعزل نفسه عني وأنا أنطوي بنفسي عن العالم، ما أصعب أن ترى الأم بأم عينها ابنها يذبل أمامها، باسم يذبل أمامي، فكيف لا أموء حزنا وكمدا؟ باسم يسعل سعالا مخيفا يضيق بصدري أنا أيضا، أسعل معه

وترتفع درجة حرارتي معه، أشعر بالصداع معه وأفقد صوتي تضامنا معه.

شاهدنا معا برنامجا تلفزيونيا دينيا، من عادته متابعة هذه البرامج فهي تريحه كثيرا، يحب الوحدة التي يعيش فيها الآن، ولكي أحترم خصوصياته تركته وحده عدّة أيام وذهبت لدى أخواته لكي أقضي أياما معهن أيضا، استعدت لهذه المناسبة جيدا فقمت بتنظيف البيت وتحضير الطعام لأيام له، حتى أنه أمرني وبلغة شديدة الوطأة على غسل الأطباق قبل المغادرة، بدأ يتعمد مضايقتي لأتفه الأسباب، يناقشني بصوته العالي لأنه يدرك تماما أني لا أقوى على النقاش، أحسست بالاختناق... لقد تعب صوتي أخيرا.

أقمنا الصلاة من خلال القناة التلفزيونية، صلينا مع الكاهن وقد طلب أن نرش بعض الماء على وجوهنا أثناء الصلاة، واستجبنا، باسم فعل أيضا وصلى بخشوع، بكى حتى فقد صوته نهائيا، وبدأ يعاني من سعال مخيف، سعال أدى به أحيانا إلى الاختناق، وخشيت كما في كل مرة يشعر بالمرض فيها أن يكون السرطان قد زحف إلى رئتيه، هو ذات المرض، المسمى (ج ب أتش) قد بدأ يزحف إلى رئتيه، ألا يكفيه الزحف إلى العظام، لقد حطّم المرض عظامه ورئتيه!

***

البيت بعد رحيلك أصبح صامتا كئيبا، أشعر بالإرهاق والتعب، أهرب إلى الجهاز وأستمر في الكتابة، الكلام لا ينتهي وأناملي لا تكف عن التحرك، وعندما أنتهي أنهض من مقعدي بعد ساعات طويلة من العمل أترنح تعبا مصابة بالحزن، وجع السنين يصيبني بالترنح، هههه مضحك أن أترنح سكرى بسبب وجع السنين، ها، ليكن، أهلا به، لمزيد من هذا الترنح، سأكتب لكي أنهي ما بدأته، يجب أن تنتهي هذه الرواية سريعا وليعذرني القاريء على بساطة اللغة، أريد أن أهرب من الأحداث المؤلمة بسرعة ولن أستطيع العودة ومراجعة ما كتبته لكي لا أتردد وأمحي كل كلمة دونتها، ولأن الذكريات أتعبتني أريد التهرب منها، أريد أن أنهي هذه الصفحات، أن أنتهي منها...لكن...ولن تطوى!

غدا ستكون ذكرى الأربعون لغيابك، أردت أن أنتهي من الكتابة قبل أن يأتي الغد، لكن هذا شبه مستحيل، سوف نزورك جميعا بعد قداس الذكرى، كم تمنى أبونا حنا التعرف عليكَ قبل ذلك وكم توسلني لكي يلتقي بكَ ويتعرف عليك لكنك تمنّعت، ماذا سأقول لكَ بالغد، هل سأقول لك أني قرأت وصيتك التي تركتها لنا، تلك الوصية التي طالب فيها والدك بعد أن علم بخبر وفاتك بساعتين فقط، لقد فرحت كثيرا لأني قرأتها الآن وسأبوح لكَ بسرّ ويجب أن تتقبله مني، أخبرك وهو عندما فارقتنا، اتصلت شقيقتك (مرلين) بوالدك باكية وأخبرته:

- بابا عندي خبر سيء جدا، باسم مات، باسم مات...
- باسم مات كلو الحق عليّ، الحق عليّ أنا!
- بابا ماذا جرى؟
- لا شيء، الله يرحمه، جاء وقته الآن، أخبريني بشأن الوصية، ماذا حصل بالوصية؟
- عن أي وصية تتحدث؟ سألته (مرلين) مستغربة
- باسم ترك لي وصية يجب أن أعلم ماذا يوجد بالوصية؟

كيف أستطيع التعامل مع الكلمات والآن بالذات، ألا ترأف بي ومن هو الذي رأف بي من قبلكَ، والدكَ؟ لا أحد سواكما أطعمني الحزن والذلّ والآهة لكن ما بمقدور أم مثلي أن تفعل الآن، فقط الهرب إلى الكتابة من أجل البقاء، القلم صراع بقائي بعد أن نفذت مني جميع القوى.

من أين أبدأ، من حيث أردتَ أن ترحل من بيتي وأنت غاضب على شيء لم أقترفه، نظرت في المرآة، عادة اتبعتها منذ كنت صغيرة وذلك كوسيلة مواجهة مع نفسي، ماذا أقول للمرآة الآن، انتظريني حتى أكمل زينتي أم أقول لها ابني وحيدي قد رحل وتركني، هل أتركك ترحل من بيتي وأنت غاضب ومريض، أنت ترحل بعد ثلاثة وثلاثين عاما أمضيتها معي، معا نأكل ونشرب، نتحادث ونتضاحك ونمسح دموع بعضنا، أنتَ ترحل الآن إلى سجنك الأخير وتتركني في سجني وحيدة، أنتَ ترحل وتترك لي الغصة لا الفرحة، لماذا لم ترحل من قبل، لماذا بقيت حتى الآن، لماذا تركتني سجينة العدم حتى الآن، أنتَ تموت وأنا أشيخ، أنتَ تذبل أمامي وأنا أذبل معك، أنت تأخذ من صحتي يا ولدي، وأنت... بدأت تصبغك ملامح الشيخوخة المبكرة بسبب المرض الذي لا يهادن.

سبعة وعشرون عاما من المرض والضياع، هذا السرطان اللعين وحتى بعد أن أجريت لك عملية زرع نخاع لم تشفَ فعشت معتلا عليلا فنخر جسدك وحتى عظامك وفي الأخير نخر عقلك فبدأت تكرهني، كنتُ في

العشرين من عمري عندما أنجبتك وفي السادسة والعشرين داهمك المرض فتحسرت، ركبتني الشيخوخة من حيث بدأ الصراع على الحياة ضد الموت، فقدت شبابي وبهاء عمري وبالتالي فقدت أنت طفولتك، معا كبرنا في المشافي ومعا حوصرنا داخل أسرّة الخوف ومعا أغلق علينا داخل الزمان المبهم نحارب اللا شيء، وطال عمرك وبقينا معا حتى داهمتك وساوس ووشوات الشيطان، حيث قال لك:

- أمك ما تزال شابة وأنت تشيخ، أمك هي قناعك في الحياة والتي تذكرك بالموت وبالحياة أيضا، أمكَ لم تلدك من رحمها فقط بل من عينيها الحزينتين دائما والقوية دوما، أمكَ تريد أن تحيا وأنت تموت، إذن هي تتركك في منتصف الطريق، بل في آخره وتتخلى عنكَ، إن تخلت هي عنكَ فمن عمر من سوف تأخذ، من أين سوف تستمد الروح، لقد أصبحت روحها معلقة بالحياة أكثر منك.

ومن يكون هذا الشيطان الذي استطاع بهدوء أن يوشوش لكَ؟ وهل قال لكَ أيضا:

لقد قفزت عن الخمسين لكنها ما زالت تتجمل، قوية تركض وتمشي وتضحك وتكتب وتصادق الأمل، وأنت تقفز قفزاتك الأخيرة نحو موت أكيد، في الرابعة والخمسين ترتدي أشهى الثياب فيكثر المعجبون من حولها، في الرابعة والخمسين تعود لتمارس حياتها كالشابات، ترتدي

معطفها الأحمر القصير وتحتذي حذاءها الجميل، أحمر اللون مسماره رفيع، عال، ترتدي شرابات النايلون بلون جلدها الناعم، قدماها مصقولتان وأظافرها مصبوغة بالأحمر وحتى شعرها المصبوغ يغيظك، لكن تبقى عيناها دامعتين دائما، فرحت لهذه الدموع لأنك في أعماقك بدأت تكرهها، هي تعود شابة وأنت تسرع نحو الشيخوخة، وأنت، ماذا أنتَ، عزلت نفسكَ كليا عن العالم الخارجي واعتكفت في غرفتكَ وحيدا، تتناول أدويتك المعتادة وتنتظر.

قال لنا الأطباء، سنة أو سنتين وستغادر، يا للوعتي، أصبحت مثل أحدب نوتردام دون أن تدري، ظهرك المقوس وقدماك النحيفتان لم تستطيعا حمل أثقال عقلك المتعب، عيناك المجورتان لم تريا الحقيقة وأنفك المخسوف، رأسك الذي أصبح كرأس طير يحمل عقلا مريضا، عقلك يدربك على كره الجميع من حولكَ، على كره الناس والآخرين، حتى الطيور في حارتك خشيت منك وغادرت إلى البعيد، ارأف بنفسكَ أيها المسكين وبوالدتكَ التي بدأت تذبل حسرة عندما بدأت تراك هكذا.

وكم تتمنى أن تتبدل الأدوار، بت حقودا، غيورا وتعيسا، من الذي دربك لكي تكون مجرما وبماذا وشوش لكَ الشيطان أيضا؟ هل قال لك:

أدخل غرفتها وقم بحركات تخيفها، احرق لها الستائر مثلا أثناء غيابها، لماذا تنظر في مرآتها، لماذا تقف هكذا، ماذا ترى هناك غير نفسك التي

أصبحت شريرة، لن يتبدل شيء لأن الذي انكسر بينكما ربما لن يعود، هذه المرأة التي آوتك في رحمها والتي نذرت نفسها من أجلك منذ بداية مرضك وحتى الآن، هذا السرطان اللعين لم يُبقِ فيك شيئا سوى عقلك المريض به تخطط كيف تنتقم، ومن مَن، من أوفى الناس؟

جميعهن تركنك، لقد نجحت بإبعادهن وجاء وقت الحسم عندما خيّرتها من أن تختار ما بينك وبين أخواتك فاختارتك أنتَ المسكينة لأنها وهبت عمرها من أجلكَ، لكنها لم تستغنِ عن طفلتها، شقيقتك الصغيرة، طفلة الأُسرة، عشنا أسوأ الأيام معا، ثلاثتنا، يا للتعاسة!

وبعد فترة غير قصيرة من المنازلة، فرحت كثيرا عندما قررت شقيقتك الانسحاب وترك بيت والدتها، بل وساهمت أنت بذلك، لماذا ضربتها، هل لأنها أجمل منك طلعة وبهية، لماذا سلبتها حريتها، قيدتها وحاكمتها وسألتها عن اللقمة التي خافت أن تتناولها في بيتك، أيام طويلة لم تطأ قدماها المطبخ خشية منك، لقد جاعت في بيتك يا أخ، ماذا أدعوك، أي اسم تحب أن أدعوك به، ورأفة عليك سأدعوك غضبان هل يعجبك هذا الاسم؟ وعندما بدأت أتذمر، أجبتني:

- كفِ عني أنا لستُ (غضبان) بل أنا...

- أنت ماذا، قل لي لكي أتذكر، ذكرني، لماذا تقف ساكتا أمامي بلا حراك، لقد نسيتَ اسمك الحقيقي إذن.

- أنا باسم...أنا باسم...

- ماذا تريد مني...ماذا تريد؟

أجبتك وأنا أذرف الدموع وعندما تأخرت في الجواب وبدأت أختنق أمامك، طلبت منك المزيد من الهواء، أصمت، أنا لا أستطيع التفوه، أختنق وأنتَ صامت، وبختني، لقد صرخت في وجهي، وعندما رأيتني أنهار أمامك ارتسمت على شفتيك ابتسامة شماتة، صدمتي فيك أقعدتني السرير أياما، ابتسمت مجددا ابتسامة شماتة لضعفي وانكساري، تذكرت حالا الأيام الكئيبة الماضية، أيام البؤس والعذاب، لقد قررت تكملة ما أخفق والدك في تكملته، وبكيت:

- لا تكتبها علي يا ربي الحنون! قلت في سرّي

- ماذا؟ سألتني

- أن أرى وحيدي بكل هذه القسوة، ارحمني!

- تحبين

تمتمت الريح ، هل أتبرأ من القدر!

تركت لأذنيّ وقع الريح وخرجت، زلزل كياني فسقط من أذني القرط، سقطت ساعة الحائط فوقع صداها في زند عقلي، صرختُ:

- ويحك يا بني، لا تغادر... لكنك تركتني وغادرت... لم تقل لي كل عيد وأنت بخير يا ماما بمناسبة عيد الأمهات.

عشت حلما متواضعا طوال حياتي لم يتحقق، سخّرت دعواتي للقدر والآلهة، طلبت أن يشفى وليدي من الكرب الذي أصابه، الظاهر أن إيماني ضعيف!

أذكر أني يوم زينت شجرة عيد الميلاد وحدي، غيبتها من صدر البيت ونصبتها داخل غرفته، تكتمت على هذا السرّ العظيم ولم أعلن عن وجودها في بيتي لئلا تتخذ جدته مني موقفا سلبيا فأنعت بصفات لا تليق بمقامي، كان ذلك عندما توفي أحد الشبان المقربين لها، رفضت (أن أقطع العادة)، كما يدّعون، فشجرة الميلاد دلالة على استمرارية الحياة، وخوفا من العواقب زينتها وأنا أرتجف متمنية ألا يفتضح أمري، فأمنع من إنهاء مهمتي فأفقد ابني المريض في يوم ما، لقد آمنت بحكم القدر فلا تلوموني!

الريح تزمجر، لم يهدأ المطر في الخارج، ساعة موبايلي تؤشر إلى الثالثة صباحا، قلبي ينقبض، أتحدث إلى نفسي، لم يتعاطف أحد مع دموعي... ولم يعد!

أذكر تماما عندما عاد العيد مجددا، كنت قد جهزت الكعك المحشو بالتمر دوائر، أعلنت نتائج التحاليل، رائحة الموستكا تنتشر في البيت، طفلي يتألم، النتائج سلبية، تحولت الدوائر إلى عيون حادة لشياطين تطبع لعنتها في بيتي، وبقى الكعك على حاله لم يلتهمه أحد!

هل أتبرأ من القدر؟

وجلست أمام المرناة أنتظر، والدة ما تحتضن طفلها عثروا عليهما معا بين الأنقاض في اليابان، الخراب يعم المكان، احتفظت السماء الملوثة بالإشعاعات الخطرة بشيء أعظم من الحياة، الأمومة، ألم أقل لكم سابقا أن الأمومة أكبر لعنة!

ومن بين زحام عقلي تذكرت شيئا مهما، محل الزهور في البلد مزدحم جدا، فاليوم هو يوم الأم والجميع يريد أن يحتفل به، الزهور تعانق أيدي حاملها، عينا (أصايل) دامعتان، فتاة في عمر الخريف فاتها قطار الحب فبقيت وحيدة تنتظر.

الزهرة الحمراء في ركن الغرفة تعانق نظراتي المحتارة، لو أذنت لها لتكلمت، كيف للذاكرة أن تضمحل وتنسى (عادلة) المرأة العاقر التي غابت عنها شمس السنين قاسية، جارة (أصايل)، شيء ما وطد صداقتهما، زنبقتان جميلتان، ساكنتان هادئتان، جف من جسديهما زهو الشباب ولم تتحقق أحلامهما!

أوصيت طفلي في يوم عيدي:

- تجنّب المرور أمام بيت (أصايل) فهي لا تحب الأزهار، ثم أخشى أن تراك (عادلة) فتأخذ منك الباقة لنفسها وتنسى أنها تعاني من حساسية الربيع، علمته كيف يسلك طريقا آخر أثناء عودته إلى البيت!

طالت رحلة المرض، عيد آخر يأتي وآخر يذهب، تمر الأعياد عشرة والكعك المبسوس بالزبد ينتظر من يقلبه، وحيدي يكبر مع السنوات ويكبر قلق قلبي معه.

ساعة جهازي تؤشر إلى الخامسة صباحا، السماء المثقلة بالهموم تهمس في أذن شجرة السرو المطلة على نافذتي، الريح تتمتم كالعادة، سطح بيت جارتي يصغي السمع، قطتها السوداء تظهر فجأة، تقف على سور الحديقة الذي يفصل بيننا، عيناها متعبتان وأنفها الأفطس لن يعيد الحياة إلى ربيع نفسي، هذا اليوم الماطر يغيّب عن أذنيّ زقزقة الطيور

وهمس الفراشات، قلبي المتعب لن يفرح لرؤيتها، لا أسمع صدى خطواته... لم يأتِ بعد!

تعبت من الانتظار، صداع ما يتمكن مني، كبرت الزهرة الحمراء لتصبح شجرة سامقة فيما بعد، أراها متفتحة الآن أو ربما هي وساوس عقلي، تشب داخلي ذكرى أليمة فالذكريات أصبحت متشابهة، الأسرّة البيضاء تغمر عقلي، أكياس معلقة ودريلات، وجبات دماء، أطباء وممرضات، رائحة تنبعث من المكان تذكّي حاسة الشمّ عندي، لم تكن رائحة زهرة البيلسان ولا بخّور دور العبادة التي زرتها، ولا رائحة عطب السنين، هل توجد رائحة لجسد المريض؟ أشم رائحة شيء كريه، كوب الحليب مركون منذ الصباح إن لم أشربه أنا فلن يشربه أحد غيري!

كلمة واحدة تنسيني ألم الأيام، لماذا لم يقلها قبل أن يغادر ويريح قلبي، لم أنسَ موقفا تكرر معي مرات عديدة عندما نثرت الملح أمام فتحة بيتي بعد مغادرة بعض الضيوف الذين وضعوني في حسابات عقولهم الحسودة، لا البيوت ولا الجاه ولا المال يمكنه أن يعيد صحة وليدي لي، لماذا كنت أنثر هذه الذرات بعد مغادرتهم بيتي، رغم كل هذا، قد خاب ظني... لقد تأخرا!

جارتي تذهب إلى عملها، إذن أصبحت الساعة الثامنة صباحا، صوت القطار من بعيد يبعث الدفء في عروقي التي بدأت تجف قلقا،

استفاقت الحارة، ضحكة طفل تطرق باب اليوم، هدأت السّماء فبدت صافية... لم يعد!

سألتها، فلنا لغتنا الخاصة بنا، بلكنة إنجليزية لكي تفهم تساؤلاتي، لقد انحلت عقدة لساني أخيرا، لغتها واضحة، سمعتها جيدا عندما تمتمت الريح في أذني قائلة:

- هل نسيتِ أنهم هنا في أستراليا يحتفلون بعيد الأم في شهر مايو، أيار؟

***

وجاء موعد الفراق، أخبرتَ أحدهم أنكَ تركت وصية وأشياء أخرى وعوضا عن أخذ مساحة من الحزن والبكاء جيدا، أرغمتنا على منازلة هؤلاء الذين ظهروا فجأة يطالبون بحقهم فيما تركت من بعدك، ماذا تركت لهم ولماذا تركت لهم هم بالذات عهدة عمركَ؟ وبدأنا نبحث عن تفسيرات لأعمالك غير المسؤولة وجثمانك ينتظر، غابت روحك عنك وهم يحاولون النبش في خصوصياتك، بدأوا جميعهم البحث عن الوصية، صرخت في وجهه عبر الهاتف:

- ابني مات، ابني انتهى وأنت تفكر فقط بما تركه لك!
- هو أخبرني بأمر الوصية.
- كف عن الكلام، أسكت! قلت
- جدعون يعلم بكل شيء، صديق المرحوم اسأليه!
- لكن جدعون موجود في كندا ونحن موجودون في أستراليا؟
- هو يعرف كل شيء!
- لماذا لا نؤجل هذا الكلام، أرجوك!
- اسألي صديقة، اتصلي به حالا!
- لكنه لم يدفن بعد، لماذا لا تنتظر حتى نقوم بواجبنا نحوه ثم نتحدث بهذا الأمر، اعتقدت أنك ستسألنا ماذا يلزمكم، أو اعتبروني معكم في

الغربة، أو انتظروني حتى آتي لأكون بجانبكم، على الأقل اسأل إن كنا بحاجة لشيء وأنت تعلم جيدا أن هذه الأمور مكلفة هنا!

- لا أستطيع المساهمة!
- لماذا؟
- هو اختار أن يهاجر معكِ فتكفلي أنتِ به، هو الذي اختار!
- وهل تعتقد أني سأقلل من قيمته، هل تعتقد أنني قاصر، فقط أردت أن أمتحنكَ، أمتحن كرامتك، أمتحن عقلك ونيتكَ، لماذا تدخلت فيما بيني وبينه إذن، لماذا ابعدته عني، هل...

لم تكتمل المحادثة، أسهل شيء هو التهرب من النقاش بوضع السماعة مكانها، وضعها، حينها قررت أن أبوح وأن أجعل كل شيء على بياض، سأكتب ما كنت أؤجله دائما، لن أؤجل ما بدأت به الآن وأتمنى أن يخرج المؤلف يوم ذكرى السنة لابننا، ابني، وأريده لهذا المؤلف أن يدخل كل بيت لكي تكون حكايتنا عبرة لمن يجب أن يعتبر لأن حكايتنا رسالة لمن يشبهونك!

ولم يهدأ لك بال حتى اتصلت بجدعون، أنت وزوج أختك اتصلتما إلى كندا، أرغمتما الشاب بأن يتصل مع جهات هنا لكي يسأل عن الوصية، يا لضياع المروءة، يا لتفاهتكم، يا لكم من أشخاص... لا أجد صفة ملائمة أصفكم بها! وبقي المسكين جدعون حائرا، تركتموه يتحمل

المسؤولية وحده وهو بأمس الحاجة لأن يحزن، مثلنا نحن، اتركونا نحزن، هذا الشريف يحزن على باسم أكثر منكم، وتساءل:

- هل أنتم متأكدون أنه مات فعلا، أرجوكم قولوا كلا لم يمت! صرخ جدعون على الطرف الآخر من الهاتف وبكى بكاء مرا.

***

لمحتكَ من بعيد عندما دخلت غرفة المكتب، وعندما خرجت منها برزمة أوراق بيضاء لم أسألكَ ما الخطب، فكنت أتابع خطواتك كلها دون أن تشعر لكي لا تحس بوطأة الرقيب عليكَ، فمنذ عودتك من المشفى وأنا لا يرف لي جفن دون أن أراقب جميع تحركاتك حفاظا عليكَ، وذلك بعد الحادث الذي تعرضت له، في صباح اليوم التالي تسرقت إلى غرفتك خلسة ووجدت أوراقا كنت قد دونت فيها هذه المادة:

أغبياء...هم أغبياء!

لقد اتهموني بالغباء، أيمكن أن أحاول الإنتحار، وهل سيخرب العالم إن فعلت ومن يكترث؟ كما اتهموا والدتي بمحاولتها قتلي، يتهمون هذه المرأة التي يعيش كل صفاء الكون داخلها، يا لغبائهم!

سأروي لكم الحكاية واحكموا أنتم من هم الأغبياء.

أمضيت يومين كاملين في قسم الطوارئ وكل الذي أذكره هو أني كنت أسبح في الفضاء الخارجي مع الملائكة، لم تكن هناك ملائكة، لا لم تكن، بل كانت، لا أذكر، أعتقد أنه... لا أعرف، بل صدّقوني لم يكن هناك أي شيء وإن اعتقد بعضكم بهذا، فهذا صلب من الغباء، والحقيقة هي ولكي أكون نزيها معكم، لست أذكر مع من التقيتُ بينما

كنت أتردد الدخول إلى العالم الآخر... مجهول قادني إليه، كل الذي أذكره الظلام الدامس من حولي بينما وجه والدتي يتراءى لي من بعيد وهي تبكي، غبية أمي، ألا يكفيها من العذاب، ربع قرن وهي تحاول إعادتي من الموت وتنجح، تعرفون لماذا؟ لأنها كانت تدعو لي يوميا في صلاتها ببقائي على قيد الحياة، ألم أقل لكم إنها امرأة غبية!

قالوا لي إني تناولت وجبة مضاعفة من المخدر، أنا لست مدمنا على المخدرات، فلا تسيؤوا الظن بي، وصدقوني أني لا أعرف له طعما رغم أني أعتاش عليه يوميا وبدونه يختل توازني ويبدأ الوجع ينهش أضلعي وينغص عليّ حياتي، لئيم هذا الوجع، تموت شهيتي للطعام، جسدي يضمحل، أبدو كهيكل عظمي متحرك، أنطوي على نفسي فأسكن مخدعي الصغير، أجلس في العتمة، وأشاهد برامج السّحر والشعوذة، أحب متابعتها جدا فهي تزيد من رغبتي لمتابعة الحياة، الحياة.. كم قصيرة هذه الكلمة كقصر سنوات عمري، قال لي الأطباء إن حياتي ستكون قصيرة، أغبياء، ألا يفهمون أنهم يتدخلون بشؤون الله، دائما يخفقون!

تعودت وفي كل مرة أقابل طبيبي المختص أن أريه أني ما أزال على قيد الحياة متفاخرا، يستغرب، يعبس وجهه ويقول:

- نحن نعجز عن معرفة السبب!

- عن أي سبب تتحدث يا دكتور؟ أجبته متهكما

- سبب بقائكَ حيا حتى هذا اليوم، النتائج المخبرية سلبية فكيف تعيش بهكذا ظروف، هل تحب الحياة إلى هذه الدرجة؟

أحيانا أطلب النجاة من الألم بالموت، لكن لا تخبروا الطبيب بذلك، فواحد مثلي أرهقته سنوات المرض الذي كان من المحتم عليّ مقاومته، هذا السرطان اللّعين الذي نخر عظامي، وقوّض سلسلة ظهري وأظهرني محدودبا، فأصبحت أخطو كالجمل التائه في رمال صحراوية، نعم هو ما آل إليه حالي الآن بعد أن مررت عملية زرع نخاع ولم تنجح، الفشل قائم وحياتي قائمة على شروط، لا تشفقوا علي لأني أكره نظرات الشفقة التي أراها كل يوم في عيون الآخرين ...

خرجنا من المستشفى، أنا ووالدتي التي لم تذق طعما للنوم أياما، وبعد إصراري على ذلك وعلى عاتقي، وقّعتُ عن نفسي وثيقة خروج من المشفى، وطالبوا والدتي بالتوقيع كشاهدة على توقيعي، يخاف عليّ هؤلاء الأغبياء، لكني رفضت العودة إلى البيت، أردت أن أستنشق من بعض هواء مدينتي الجميلة، فأخذتني إلى الشوارع المكتظة بالناس، تسوقني بكل مودة من يدي كطفل حديث المشي، مسكينة والدتي، طفلها يكبر ويصبح شابا عجوزا بدلا أن تتعكز هي عليه يتعكز هو عليها...سؤال ما يخيفني:

- على كتف من ستتعكز والدتي يا ترى؟

- هل تكلم نفسكَ يا بنيّ؟ سألتني هذه الأم الرؤوم لكني أجبتها بخبث:

- أنتِ واهمة، هل بدأ الخرف يزحف إلى رأسكِ الصغير هذا يا أمي فاغتال عقلك المتعب؟

- غبيّ أنت إن كنت تظن ذلك، والدتك لن تخرف أبدا!

- لا أصدقكِ، ستخرفين!

- بل صدّق، لن أفعلها!

- (طيب احلفي إنك مش راح تخرفي)!

- يا مراوغ، يا محتال اذهب من هنا حالا وإلا رميتك بهذه الأوراق!

- هههه لن ترميني لأنكِ تخشين على الأوراق، كم أنتِ متعطشة للكتابة، من أين يخرج هذا الكلام كله، كأنك جاروشة قمح، (نازلة في الكمبيوتر جرش).

وكثر الأغبياء من حولي، أقصد الناس، عذرا، أرجوكم لا تغضبوا مني، وبعد مغادرتي المستشفى، وبعد نجاتي من الموت الأكيد الذي هو محتم

عليّ، لقد حقنني الأطباء بمادة تزيل السّموم من جسدي وقاموا بغسل معدتي، لو تدرون كم مصل غرزوا داخل شراييني خلال خمسة وعشرين عاما، فقد دامت معاناتي أكثر من ربع قرن، كم أكرهكم أيها المتعافون الأصحاء، جميعكم أغبياء لأنكم تخشون المرض، أنا فقط الشجاع الذي يقاومه ولا يخشاه!

أنا لا أشتم... بل هي ذرابة لسان! أشتهي البوح بكل ما يجول بخاطري المتوهم بالخلاص، أريد أن أشتم وأن أصرخ وأحتج، هل تعتقدون أني سوف أتخلص من هذا المرض، أنتم واهمون، لكن لا أحد يبتّ بالأمر سواه، ولأنكم غير مدربين على الصّبر مثلي ولكي لا تغضبوا مني سأكمل لكم القصة، فاستمعوا:

سرنا معا في الطريق، مررنا بصحبة مكونة من شاب يحاول العزف على آلة قديمة أوتارها صدئة، لكنه مهما تدرب على العزف فلن يصبح عازفا، عادة متجددة لظاهرة التسوّل من أجل شراء وجبة المخدر اليومية، تحيطه أربع شابات جميلات، شقراوات، شعرهن ناعم مثل الحرير، قدهن أهيف، عيونهن ملونة، شفاههن شهية وأنوفهن مصقولة، لو تعلمون كم أحب بنات حواء!

ما كان مني سوى أني هجمت على حقيبة والدتي وأستوليت على ما في داخلها، كانت مليئة بالدولارات، وبدون أن أحصيها رميتها لهم وأنا

سعيد، اليوم بالذات بدأت أحب الآخرين بعدما غرفت من طعم الموت القليل ووالدتي تتمنع قائلة :

- ويحكَ، ماذا تفعل يا بني؟

- لا تكوني بخيلة يا والدتي، لا تكترثي للمال!

- ماذا تريد؟

- سترين الآن!

- اتركهم وشأنهم واهتم أنتَ بنفسك فقط.

- اتركيني يا أماه!

- أنا لا أكترث سوى لهؤلاء الشباب الذين بدأوا يسلكون كل السّبل في سبيل اقتنائهم للمخدر، خسارة لكل هذا الشباب والجمال أن يذهب هباءً، خسارة فعلا.

- دعهم يتخدرون، هو اختيارهم فحسب، أنا أشتري العمر بالدقيقة، أسرقه من القدر بلا حياء، وهم يبيعونه بالرّخص المجاني، هباء... أغبياء... ألم أقل لكم إنهم أغبياء!

***

الحجرات الكثيرة تصيبني بالبرد والخواء، لا أحب البيوت الكبيرة، تكفيني حجرة صغيرة واحدة بسرير ومنضدة، ومكتب أنيق أركن عليه جهازي وأوراقي وكأس مليء بالشاي المعطر بالنعناع أسهر بمعيته، حينها أشتهي الكلام وأبدأ التدوين، لكن بعد ذكرى الأربعين قررت مغادرة بيتي واللحاق بشقيقتك (زيزي) التي غادرت إلى عملها مع زوجها في ولاية أخرى، وشقيقتك (رورو) ستلحق بنا أيضا لكي تكمل إجازة الماجستير في ذات الولاية، و(سوزان) ستغادر إلى بيتها فتلتزم في عملها كالمعتاد، وستغادر الصغيرة (مرلين) إلى الجامعة لتبدأ دراستها الجامعية فاختارت موضوعا حساسا تكون فيه القابلة واليد الأولى التي تستقبل الأطفال إلى الحياة، معنى ذلك هو أن أبقى وحيدة أسترجع الذكريات المؤلمة وحدي، لكني لحقت بحفيدتي التي كلما رأيتها يدبّ الأمل داخلي لأنها تنسيني بعض أحزاني.

طالبوني بنسيان الماضي والمضي في طريقي دون الإلتفاف إلى الخلف، فكتابة سيرة حياتي أشبه بالانتحار البطيء خاصة بحضور هذا الفايروس اللعين الذي أصابني والذي لا يتركني بحالي، السعال يقوى وأعاني من آلام مبرحة في الأذن الوسطى التي تسبب لي الدوران فتغيب مني الحروف أحيانا، أطبع على الجهاز بأسلوب العميان، أتناول الدواء في مواقيته وأزور الطبيب كل أسبوع، جميع التحاليل إيجابية، لكني ما

زلت أشعر بالاختناق، يقلقون عليّ جميعهم، جميعهم حولي، لا يتركوني، يحيطونني بالرعاية اللازمة، و(زيزي) ما تنفك تردد قائلة:

- (يا رب تخلصي من هذا الهمّ وتخلصينا)!

وزوجها (خضر) يقف ما بيني وبينها حائرا وكلما عاد ليلا من عمله يسألني:

- (آنتي) هل انتهيت من تدوين الرواية؟

ابتسم له بلوعة، أترك الجهاز وأجلس معهم قليلا وأحاول اكتشاف التساؤلات التي تلمع في عيونهم، أرى بكل وضوح خشيتهم ومحبتهم لي، أنت ذهبت وربي عوضني به ابنا حنونا، هو ربّ أسرة وفيّا ورجلا يعتمد عليه.

وأجيبهم:

- الكثير من الروايات كتبت خلال سنوات عديدة وها أنا قد شارفت على النهاية بعد أربعة شهور فقط، أعلم أني أنتحر.

- أنتِ متعبة، انس الأمر وابدئي الحياة من جديد. قالوا

- لو نسيته فسوف أتنكر لنفسي أولا ولوجودي أخيرا، لكني بعد وفاة باسم، قررت تكملة هذه المذكرات لعلي أنسى، ولأنني قررت سلك طريق النسيان سأكمل هذا المؤلف وأطوي تلك المرحلة التي أخذت من عمري ستة وثلاثين حولا. غصّتان اثنتان عكرتا عمري، تخلّصت من غصتي الأولى وتحديدا في ٢٠٠٥/٨/٨م عندما وصلت الأراضي الأسترالية تاركة كل شيء خلفي، وغصتي الثانية انتهت بوفاة عزيزي الآن، وفاته غصتي الأكبر، ليته لم يمت!

ربما بعد التدوين أستريح، أتمنى أن أنتهي منها وبأقصى سرعة ممكنة، لقد تعبت وأشعر أن نهايتي اقتربت!

- كلا ماما، ألف سلامة عليك، أنت تتقمصين وتؤدين الدور مجددا وحتى وأنت معنا ألاحظ أن الدور يتلبسك، لقد بدأت أخشى عليكِ!

- هذه هي أنا، في كل رواية أكتبها تلبسني الأحداث ولا أستطيع التخلص منها، هنا أنا بطلة فعلية ولست وهما، هذا جزء بسيط مما عانيته فكيف لو سقط زندي وأكملت الأحداث الأخرى بالتفاصيل، لكني لن أفعل وأتمنى أن أتعافى من ذكريات الماضي بأقصى سرعة ممكنة! أجبتها

- هل ستتعافين حقا؟ سألتني (زيزي) وهل ستنسين، ولن يحصل!

***

يوم الجمعة الثامن عشر من شهر ابريل سنة ألفين وأربعة عشر، الجمعة العظيمة، حلمت بكَ ورأيت الدماء تسيل من فمك في الحلم، كنت قد طلبت منكَ أن تأتيني في الحلم لكي أطمئن عليكَ، وسألتك سؤالا محددا، سؤالا أجبتني عليه من خلال رؤيا فزادت التساؤلات، حزينة جدا أنا اليوم، فتحت الفيس بوك وأزلت جميع صورك منه وحفظتها في فايل داخل حاسوبي وصوت فيروز الحزين يخترق مسامعي (وا حبيبي.. وا حبيبي.. أي حال أنت فيه..!)، أريد التخلص من الحزن، أرشدني كيف أفعل!

يا أمنا مريم الحنون، يا أم الأمهات، أدرك تماما كم تألمتِ وكم صبرتِ وكم تعذبتِ، فمن ترى ابنها يتألم ويتعذب تموت مئات المرات والمرات. أسبوع حزين يمرّ على الأمهات الثكالى المفجوعات.... يا أيتها الجمعة العظيمة المثقلة بالحزن... لو تعجلتِ، حتما سيأتي الغد من بعدك بنور الخلاص....للألم عيد من الأحزان أيضا، هلاّ تبرأت ذاتي منه، ها أنا أحتفل بعيد الحزن اليوم، اليوم الوحيد السنوي الذي ألتزم به للذهاب إلى الكنيسة يأتي، وقد قررت عدم الذهاب لأني أعلم جيدا أنني لن أستطيع التغلب على البكاء الذي سيحاصرني فآثرت البكاء وحدي، لن أخبر أخواتكَ لكي لا يقلقن عليّ ولكي لا تلغين الذهاب هن أيضا.

اليوم أستطيع أن أبكي وحدي وبصوت عالٍ، سأختلي في مأواي وسأبكي كثيرا، ماذا فعلت بي يا باسم برحيلك وماذا فعلت بكَ الدنيا بقسوتها، وحيدة أنا حتى لو تجمعت داخلي جميع الكلمات، وحيدة أتنفس الحزن وأتذوق علقم ومر وقسوة الحياة، وحيدة أسيّر خطواتي فعلى من سأتكل من بعد الصّبر.

لكني انتفضت حالا وقررت الذهاب إلى الكنيسة واللحاق بأخواتك، تهت في الطريق، بحثت عنك في شوارع (بريزبن) الطويلة، قدت السيارة والدموع تغسلني، طويت الطريق تلو الطريق ولم أفلح بإيجاد طريق العودة، ولم أفلح بإيجادك...

طلبت مني شقيقتك (سوزان) أن نزورك في العيد فأبيت لأني أدرك تماما أنك لن تكون هناك، فالجسد فان، ولأني أعلم جيدا إنني أستطيع استحضارك في أحلامي متى أردتُ ذلك كما فعلت الليلة الماضية، سأطلب منك الحضور مجددا لكي أطمئن عليك، فالقبر ما هو إلا جماد، حجارة صامتة صماء لا تتكلم، واسمك محفور على صخرة، (باسم م)، إن كان اسمك محفورا في قلبي فلمَ أذهب وأبحث عنه هناك، لن أذهب لأنك بالنسبة لي لم ترحل!

لو تدرك كم أخواتك متألمات، كل واحدة منهن كتبت منشورها الخاص بها في صفحتها، تعلن الحزن بالعربية وبالانجليزية، (مرلين) كتبت هذا النص تتبنى يسوعا أبا لها:

(بهيدا اليوم يسوع تعزب كتير منشانا نحنا. ووجعو كتمو بقلبو حتى يحمينا ويمنحنا الجنة. بهيدا اليوم دموعو و دموع امو نزفو متل الدم من قلوبهن. خلينا بهاليوم نتذكر ونصلي لمخلصنا ونقلو اديش نحنا منحبو... بهيدا اليوم خلينا نتسالم مع الحياه ونطلب الغفران إلنا وللناس. يا يسوع سامحنا واحمينا يا أحلى ملاك. بحبك يا بابا يسوع).

*

وبحثنا في مؤلف خاص يتحدث عن كنه الأرقام، الرقم ٧٨٨ ما هو إلا مؤشر خير، بحبوحة تأتي ما بعد ضيق، سعدت بهذا التفسير ولاحظت أن الرقم ٨،٨ هو يوم وصولي إلى أستراليا، ويوم ميلاد (رورو) أيضا حيث عشنا معا ثماني سنوات من السعادة التي لا توصف في وطننا الجديد، ولن أتعمق في موضوعة الأرقام كثيرا.

***

في الساعة الثامنة ذات مساء تحدثت معي شقيقتك (سوزان) لكي تعلمني بأمر الوصية، بما أنها محامية العائلة، التي تركتها وأخبرتني بمحتواها، لقد عهدت بكل شيء تملكه للمحتاجين والمرضى.

جاء (لوري) صديقك الذي اعتنى بك، حمل كل شيء من بيتك تلبية لما كتبته في وصيتك، وقد انتفع منك المحتاجين بكل شيء تملكه حتى ملابسك الثمينة منها والرخيصة، لقد سُرق منك عمرك بني لكنك رغم كل شيء عشت مرفها وغير محتاج.

أحبك بمقدار الدموع التي ذرفتها، أحبك، لم يتركوا لي أي شيء منك أحتفظ به للذكرى، بل أغلقوا بيتك بالشمع الأحمر ومنعونا من الاقتراب وسيقت سيارتك أيضا إلى جهة مجهولة تلبية لوصيتك.

وبعد مماحكات كثيرة استطعنا العثور على آخر الأرقام للمكالمات التي أجريت بالأسماء، أردت أن أعرف رقم الشخص المجهول الذي دربك على كرهي فكان هذا هو كل همّي... يا لحقد البشرية!

كما بحثنا عن دليل يقودنا إلى القبر الذي اشتريته لنفسك ولم نجده، من بينها أرقام مجهولة ربما تكون لأناس اقتنصوا منك الوصية دون أن تعلم واختفوا، أو ربما ضاع الدليل بضياع هاتفك النقال أيضا الذي سرق من على المنضدة قرب سريرك، أو ربما أنك لم تترك شيئا فتوهمت بامتلاكه، فمن ينتفع من أشياء مريض يعاني لا ضمير له...

بني

عشت بطلا مغامرا وغادرتنا بطلا مسايرا

لقد قتلتني مرتين

الأولى عندما مرضت

والثانية

عندما غادرت

*

"لم يعد في وسع هذا العالم أن يصرخ أكثر"

نعم "درويش"، للصراخ أطراف عملاقة تكبر وتكبر أيضا.

آمل أن ينتهي صراخي

سأنهي الحكاية!

*

دينا سَليم حَنحَن:

روائية وقاصة فلسطينية تقيم في أستراليا. لها من الاصدارات:

١) الحلم المزدوج - دار العودة بيروت ٢٠٠٤ – رواية

٢) تراتيل عزاء البحر – دار العودة بيروت ٢٠٠٧ – رواية

٣) سادينا – دار ناجي النعمان لبنان ٢٠٠٧ – رواية

٤) الحافيات – دار أزمنة الأردن ٢٠٠٨ – رواية

٥) قلوب لمدن قلقة – مؤسسة شمس للنشر والاعلام القاهرة ٢٠١١ – رواية

٦) ربيع المسافات – مؤسسة شمس القاهرة ٢٠١١ – رواية

٧) جدار الصمت – مؤسسة دار الجندي القدس ٢٠١٥ _ رواية

٨) " نارة " – مؤسسة دار الجندي القدس ٢٠١٦ _ رواية